

مَجَلَّة كُلِّيَّةُ الْآدَابِ



المجلد السادس والعشرون

١٩٧٢

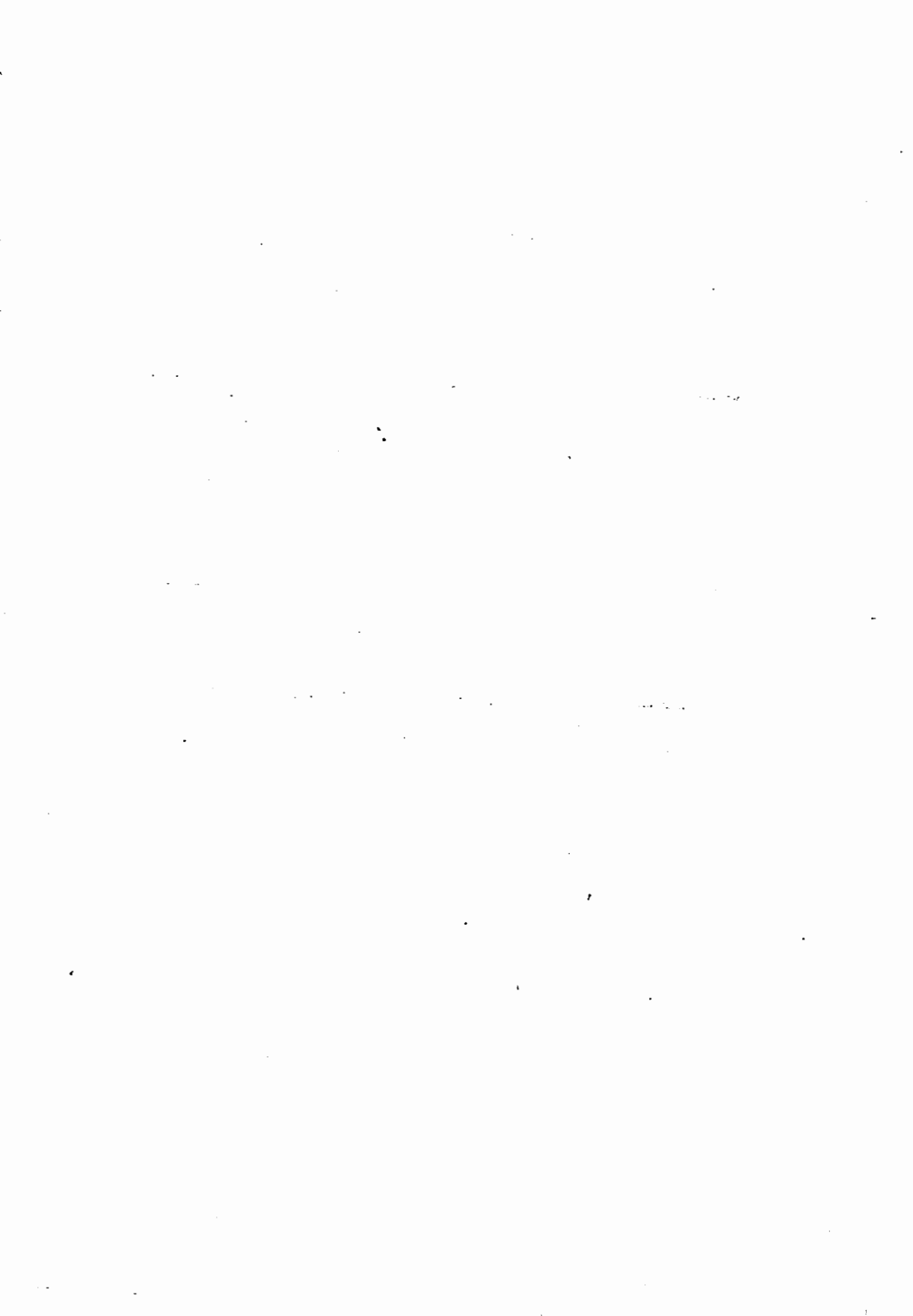
تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
إلى كلية الآداب

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٧٩

فهرس

العلاقة بين فخر الدين المعنى الثانى والدولة العثمانية	صفحة
دكتور عمر عبد العزيز عمر	١
الولادة المقدسة ودورها فى أحقية العرش فى مصر القديمة	
دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم	٥٣
العلاقة المصرية - اللبنانية فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٤٠	
دكتور عمر عبد العزيز عمر	٦٣
دراسة مقارنة للفروق بين الجنسين من الموهوبين فى بعض سمات الشخصية	
دكتور خليل ميخائيل معوض	١١٧



العلاقات بين فخر الدين المعني الثاني

والدولة العثمانية

(١٥٩٠ - ١٦٣٥)

للدكتور عمر عبد العزيز عامر

١ - دخول « لبنان » في حوزة العثمانيين :

في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر شهد حوض البحر المتوسط انقلاباً جذرياً في التجارة الدولية ، وتغيراً في الطرق التجارية الرئيسية ، كما شهد أيضاً انقلاباً سياسياً في توازن القوى الدولية الرئيسية . وكان لهذين الانقلابين ، التجاري والسياسي ، أثر سيء في لبنان . فلقد تحول طريق التجارة الرئيسي إلى رأس الرجاء الصالح ، ولم يعد البحر المتوسط «بحراً يتوسط العالم المتمدن» كما كان زمن الفينيقيين . وفي نفس الوقت أخذ العثمانيون - الذين كانوا خلال القرنين الأخيرين يشبّون أركان ملكهم في البلدان التي استولوا عليها في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان - يتطلعون جنوباً إلى بلبلان العربية التي كانت في حوزة المماليك . وكانت السلطنة المملوكية قد فقدت قوتها ونفوذها لأسباب عسكرية واقتصادية . فانحل النظام العسكري المملوكي وأهملت التدريبات التقليدية في الفروسية وكره المماليك استخدام الأسلحة النارية ، وكان الأمر على عكس ذلك في الدولة العثمانية التي استخدمت الأسلحة النارية ، وهي لا تزال فتية ، فبلغت بها ذروة قوتها (١) . ومما عجل بانحطاط الاقتصاد المملوكي تحول طرق التجارة

(١) عبد الكريم زائق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت

(١٥١٦ - ١٧٩٨) ، دمشق ، ١٩٦٦ ، ص ١٩ - ٢٣ .

ومنافسة البرتغاليين التجارية للمماليك ؛ وفشل المماليك ، دبلوماسياً وعسكرياً ، في وضع حد للخطر البرتغالي الاقتصادي والعسكري (١) . وبينما كانت السلطنة المملوكية في مرحلة الانحطاط ، تأزمت العلاقات بينها وبين الامبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيها ، وبسبب صراعهما على النفوذ . وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام ، بين العثمانيين والمماليك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر (٢) .

وبعد أن هزم العثمانيون الصفويين في موقعة جالديران عام ١٥١٤ ، اختل توازن القوى في المنطقة لصالح العثمانيين ، لاسيما وأن هؤلاء أزاحوا حاكم ألبستان علاء الدولة ، الذي كان حليفاً للمماليك ، بسبب عدم مساعدته لهم ضد الشاه اسماعيل الصفوي ، ووضعوا خلفاً له علياً بن شاه سوار الذي أصبح تابعاً للعثمانيين . وقد أقلق المماليك هذا التبدل على الحدود الشمالية ، وزاد من شدة الخلاف بينهم وبين العثمانيين . واتهم المماليك العثمانيين بأنهم يمنعون التجار المارين ببلادهم من جلب المماليك الشراكسة إلى بلاد السلطنة المملوكية . ولكن الموقف تأزم كثيراً حين علم العثمانيون ، أثناء القتال مع الصفويين ، بالمفاوضات السرية بين الشاه اسماعيل والمماليك ، وبمحاولة هؤلاء إيقاف قوافل المؤن العثمانية إلى السلطان سليم . وزاد من حدة الموقف لجوء ابن أحد أشقاء السلطان سليم ، الذي سبق أن ثار عليه ، إلى المماليك ، وكان قبل ذلك لاجئاً لدى الشاه اسماعيل ، ورفض المماليك تسليمه إلى العثمانيين بقصد المساومة عليه (٣) .

(١) عمر عبد العزيز عمر ، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠ - ٢٣ ، ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٨٦ .

وفي مايو عام ١٥١٦ ، غادر السلطان المملوكي قنصوة الغوري مصر متوجهاً إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير . وكان هدف السلطان المملوكي استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم . ودخل السلطان المملوكي دمشق واستقبل استقبالاً رسمياً حافلاً . وغادر الغوري دمشق متوجهاً إلى حلب ، واعتقد أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنته سيخيف السلطان العثماني فيتنازل له عما يريد . وكان الغوري يفاوض ، في نفس الوقت ، الشاه اسماعيل الصفوي ، ليتحالف معه ضد العثمانيين ولكن وقوع مراسلات الغوري مع الشاه اسماعيل في أيدي العثمانيين جعل السلطان سليماً يتعجل الأمر للقضاء على جيش المماليك . ولهذا احتل السلطان سليم عينتاب ، واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغوري الذي كان قد دخلها في ١١ يوليو . وإذا كان السلطان الغوري قد قصد فعلاً من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فإنه قد أساء التقدير فعلاً ، لأنه استثار بعمله هذا العثمانيين ، ودفعهم إلى القتال .

وفي ٢٣ أغسطس عام ١٥١٦ ، التقى الجيشان العثماني والمملوكي في موضع يعرف بتل الفار في مرج دابق ، قرب حلب ، وهزم المماليك وتوفي سلطانهم . ويرجع انتصار العثمانيين إلى قوتهم العسكرية ، لاسيما استخدامهم بندق الرصاص في المعركة — ذلك السلاح الذي كره استخدامه المماليك الفرسان . وكان القتال في مرج دابق يسير ، في البدء ، لصالح المماليك الذين أبدوا شجاعة كبرى ، ثم تحول ضدهم بفعل تأثير رصاص العثمانيين من ناحية ، وبسبب الخيانة في صفوف المماليك من ناحية أخرى . فقد كان خاير بك المملوكي يعمل علناً لصالح العثمانيين ، ثم انتقل مع أتباعه من صفوف المماليك إلى صفوفهم أثناء المعركة . واتهم جان بردي الغزالي ، فيما بعد ، بأنه كان متواطئاً مع العثمانيين في مرج دابق . وكأفا العثمانيون خاير بك والغزالي ، بعد احتلالهم بلاد الشام ومصر ، فأعطوا الأول حكم ولاية مصر ، والثاني حكم ولاية الشام . وفي ٣ سبتمبر

عام ١٥١٦ : عاد الغزالي إلى دمشق ونادى به الأمراء المماليك نائباً عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خاير بك والخليفة العباسي . وعين الغزالي - الذي أصبح يؤيد ، في الظاهر ، السلطنة المملوكية - حكاماً من قبله على حماة وحصص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوي المسيطر على البقاع ، وعينه ، حسب طلبه ، نائباً على حصص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع . كما أنه عين صهر ابن الحنش - ابن جانبای البدوي الملقب بأمر الشام - على بلاد حوران والمرج . واستمر العثمانيون في تقدمهم جنوباً صوب دمشق ، فدقوا أبوابها في ٩ أكتوبر ولاقاهم سكانها من عرب ودروز وموارنة بترحاب ، وفتحوا لهم أبواب المدينة . وباستيلاء السلطان سليم على دمشق ، أصبحت كل سورية - حتى مدينة غزة - تحت السيطرة العثمانية . وفي العام التالي تم فتح مصر بعد الحاق الهزيمة بالمماليك في موقعة الريدانية .

وأثناء عودة السلطان سليم إلى استانبول ، قضى أشهر الشتاء في دمشق . واهتم السلطان سليم في دمشق بثلاثة أمور هي : ادخال بعض التنظيمات العثمانية في دمشق بقصد تدبير المال للدولة ؛ وتوطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لاجناد الاستقرار ولحماية قافلة الحج ؛ والانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه اسماعيل الصفوي . وفي خارج دمشق اتخذ السلطان سليم اجراءات تنظيمية ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطة الذين عارضوه . وقد حاول أولاً القضاء على أمير البقاع البدوي ناصر الدين ابن الحنش بسبب ازدياد نفوذه ، وتحكمه في منطقة البقاع الغنية التي تمر فيها الطريق الرئيسية بين دمشق وبزوت ، وإيوائه كثيراً من المماليك الفارين ؛ فهرب ناصر الدين اثر سماعه بخروج السلطان سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقاس الشركسي ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقد تضرر الأمراء التنوخيون في جبل

لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين بن الحنش إذ عهد السلطان سليم إلى اعتناهم ، ولم يطلق سراحهم الا بعد أن قتل ناصر الدين فيما بعد (١) .

وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم فقدوا هذه الزعامة التي انتقلت إلى المعنيين - برباسة فخر الدين الأول (٢) - الذين أيدوا العثمانيين في معركة مرج دابق ، فاعترف العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان (٣) . وذكر أن الأمير فخر الدين المعني الأول ألقى خطبة في دمشق بعد أن تم النصر للسلطان سليم مجد فيها السلطان سليم العثماني وقال : « اللهم أدم دوام من اخترته لملكك ، وجعلته خليفة عهدك ، وسلطته على عبادك وأرضك ، وقلدته سنك وفرضك ، ناصر الشريعة النيرة الغراء ، وقائد الأمة الطاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين الامام العادل ، والذي الكى الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه ، أدام الله بقاءه ، وفي العز الدائم أبقيه ، وخلد في الدنيا مجده ونعمه ، ورفع إلى القيامة طالع سعده ، وبلغه مأموله وقصده .. أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد بأنعم العز والتمهيد .. آمين » (٤) . ولكن هذه الخطبة مشكوك في صحتها لأنها تتضمن إشارة واضحة إلى موضوع الخلافة العثمانية ، فالمعروف أن السلطان سليم لم يعلن نفسه خليفة (٥) ، كما يشك

(١) Lammens, *La Syrie : Précis Historique*, (Beyrouth, 1921, T. ii. p.56.

(٢) المعنيون من السلالات العربية ، فهم بطن من بطون ربيعة . قد انتقلوا إلى الفرات ثم إلى منطقة حلب ، ثم درجوا جنوباً حتى البقاع ، واستقروا أخيراً في الشوف في القرن الثاني عشر الميلادي ، واشتركوا مع آل شهاب جيرانهم وحلفائهم في وادي التيم ومع آل تنوخ في غرب لبنان في قتال الصليبيين . وحينما أقبلت الجموع العثمانية إلى مرج دابق ، تريت أميرهم فخر الدين الأول متربحاً نتائج القتال . ولما ثبت سليم في الشام ، أقبل عليه أمراء جبل لبنان وعلى رأسهم فخر الدين وقدموا له فروض الطاعة والولاء .

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر : محمد علي مكى ، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (٦٣٥ - ١٥١٦) ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٧٣ - ٢٨١ .

(٤) محمد علي مكى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٥) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٨٨ - ٩٣ .

في صحة هذه الخطبة من ناحية أسلوبها ، كذلك يشك البعض في اللقب الذي نسب إلى المعنيين وهو تلقيب السلطان العثماني للأمر فخر الدين بلقب «سلطان البر» .

ولقد عين السلطان سليم جان بردي الغزالي والياً على دمشق ، وأطلق يده في كل جنوب سورية من معرة النعمان إلى العريش . وحتى نهاية عهد سليم ، كان جان بردي الغزالي مشغولاً على الأخص باخضاع القبائل ، إلا أنه عندما علم بوفاة سليم في أكتوبر عام ١٥٢٠ قام بالثورة وأطاح بالحاكم العثماني لاقليم البقاع وعين بدلاً منه أحد العرب المحليين . وعاد الغزالي بعد ذلك إلى دمشق فحاصر القلعة التي كانت تحت قيادة ضابط عثماني ، وبعد استيلائه على القلعة أعلن عصيانه على السلطان سليمان ومنع من ذكر اسمه في خطبة الجمعة ، و«تسلطن» في الجامع الأموي في دمشق ، واتخذ لنفسه لقب الملك الأشرف ، وخطب له على المنابر (١) ، كما ضربت السكة باسمه على الذهب والفضة (٢) . وفي نوفمبر من نفس العام ، بدأ الغزالي في الزحف على حلب لأهميتها الاستراتيجية ، ولكن القوات العثمانية قتله عند قابون بالقرب من دمشق في فبراير من العام التالي . وعين القائد العثماني والياً عثمانياً جديداً على دمشق بدلاً من المماليك واقتصر نفوذه على دمشق وما جاورها . وعين حكاماً تابعين له في غزة وصفد والقدس ، إلا أن ضرابلس رفعت إلى مرتبة الولاية وأصبحت على قدم المساواة مع حلب ودمشق .

ويعتبر القضاء على الغزالي نهاية لآخر نفوذ المماليك في بلاد الشام ، وبداية لحكم العثمانيين الفعلي بها . وقد عزز العثمانيون حاميهم في دمشق ، كما جدوا من سعة ولاية الشام ، وأعادوا النظر في التقسيمات الإدارية في بلاد الشام . وغوضاً عن امتداد سلطة والي الشام على المنطقة الممتدة

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مصر ، ١٣١٢ هـ ، ج ٣ / ٣٧٥ .

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، ١٩٢٥ ، ج ٢ / ٢٣٢ .

من معرة النعمان وعريش مصر . كما كان الأمر في عهد الغزالي ، فقد اقتضت سلطة الوالي وقتئذ على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش ، وقسمت هذه بلدورها إلى صناعق (١) . وأصبحت التقسيمات الادارية في بلاد الشام ، في القرن السادس عشر ، على النحو التالي : ولاية الشام ، وتتألف من الصناعق التالية : دمشق مركز الولاية ، القدس ، غزة ، صفد ، نابلس ، عجلون ، اللجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك ، ولاية حلب ، وتتألف من الصناعق التالية : حلب مركز الولاية ، أذنه ، كلس ، بيره جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، وتركان حلب واعزاز ، وولاية طرابلس : وتتألف من صناعق طرابلس مركز الولاية ، حماة ، حمص . سلمية ، جبلة ، اللاذقية ، والحصن . ومما يلاحظ هنا ، أن هذه التقسيمات لم تكن نهائية إذ كثيراً ما كان يلغى صنjq ما ، أو يدمج بآخر ، أو يؤسس صنjq جديد . وسنرى أن صنjq صفد ، وصنjq صيدا مع بيروت ، قد سلخا عن ولاية الشام ، في القرن السابع عشر ، وتأسست منهما ولاية رابعة في بلاد الشام هي ولاية صيدا . (٢)

(١) تميز حكام المناطق العثمانية عن غيرهم من الموظفين باستخدام اللواء (الراية) ، الذي كان يطلق عليه في التركية اسم صنjq Sancak - أو صنjq كما يعرف في العربية عادة - ولهذا عرف الواحد من هؤلاء الحكام باسم «أمير لواء» ، الذي اختصر فأصبح «مير لواء» أو باسم صنjq بك (صنjq بك) Sancak beyi . ولما كان هؤلاء الصناعق مسؤولين عن قيادة جنود مناطقهم في الحرب ، وعن تصريف الشؤون الادارية فيها ، فقد أطلق لفظ صنjq أو لواء على المنطقة التي كانوا يحكمونها .

(٢) أنظر : أحمد عزت عبد الكريم ، التقسيم الادارى لسورية في العهد العثماني ، حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥٢ ، ص ١٥٣ ؛

B. Lewis, Studies in the Ottoman Archives — I, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, XVI. 3, 1954, pp. 471 — 2.

وفي الولايات الجبلية أو البعيدة عن قلب الدولة العثمانية ، كان الحكم العثماني صورياً أو اسمياً ، أى أن الدولة لم تكن ترسل حكاماً عثمانيين وانما هي تعترف فقط بوجود رياسة معينة قد تكون قبلية أو عسكرية أو اقطاعية تحكم باسم السلطان ، وتؤدي للدولة قدراً معيناً من الجزية في كل سنة ، ومن هذه البلاد : أجزاء من شبه جزيرة بلاد العرب أو الجهات الجبلية مثل كردستان وبعض أجزاء من سورية ولبنان . وكانت الأسر في جبل لبنان منقسمة إلى حزبين : قيسية ويمنية ، وهو من بقايا العصبية التي انتقلت مع القبائل العربية (١) . وكان المعنيون قيسية ، بينما كان أعداؤهم من الدروز ، برئاسة آل علم الدين ، يمنية . وضم الحزب الواحد أتباعاً من مذاهب مختلفة ، كالسنة ، والشيعية ، والموارنة . ولم يقتصر وجود هذين الحزبين على جبل لبنان ، بل تعداه إلى القرى والمدن في الداخل . وقد استمرت هذه العصبية واضحة حتى القرن الثامن عشر ، إلا أنها تحولت بعد ذلك إلى نوع من الخصومات الأسرية التي تمت إلى الجذور الهندسية أو الترومية . وقد اصطنعت القيسية علماً خاصاً بها أحمر اللون شارته قرنقله

(١) تفشت الحزبية في لبنان ، وترجع جذورها إلى ما قبل الفتح العربي لهذه البلاد في القرن السابع الميلادي . فلقد انقطعت القبائل العربية في سورية إلى فئتين : فئة القبائل المستقرة في البلاد منذ أمد بعيد ، وفئة البدو القادمين حديثاً إليها طلباً للكلاء ورعى المواشي . وقد تخضرت الفئة الأولى المستقرة واندججت في حياة البلاد المتمدنة وأصبحت من أهل الحضرة والمدن . أما الفئة الثانية فهي فئة البدو غير المستقرة وكانت تمر في سورية في مواسم معينة عابرة فهي مؤلفة من رحل يعيشون في الخيام ودأبهم الانتقال والرحيل . ومعظم القبائل اليمنية الأصل التي إنزحت من اليمن إلى سورية في موجات متعاقبة قبل الميلاد وبعده وخاصة على أثر انهيار سد مأرب استقرت في البلاد واندججت في حضارتها فعرفت بالقبائل اليمنية . ومن أشهر هذه القبائل بنو غسان وبنو كعب ، وبنو تنوخ وغيرهم . أما القبائل شبه الرحل فأكثرها من الحجاز وأشهرها قبيلة قيس . ودعيت هذه القبائل بالقيسية من قبيل تسمية الكل باسم الجزء البارز والأكثر شهرة . وبدأت كل من الفئتين تتخذ منذ الفتح العربي طابعاً حزبياً سياسياً منذ أيام معاوية . واستمر التناحر بين هذين الحزبين على مر الأجيال حتى عام ١٧١١ عندما سحق القيسيون اليمنيين في معركة «عيندار» فلم تتم بعدها لليمنيين قائمة.(انظر: فيليب حتى ، تاريخ العرب ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣٥١) .

حمراء ، في حين اتخذت اليمنية علماً أبيض اللون شارته زهرة خشخاش بيضاء (١) . ورغم هذا الانقسام القيسي - اليمني في جبل لبنان ، فقد استطاع المعينون اثبات نفوذهم في لبنان الجنوبي . وكان ينافس المعين بنوعساف الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالي ، التابع لولاية طرابلس . وقد وقف بنو عساف إلى جانب العثمانيين في معركة مرج دابق ، فكافأهم العثمانيون بمنحهم حكم كسروان وجبيل ، وجعلوا مركز حكمهم في غزير (٢) . وبعد وفاة الأمير عساف في عام ١٥١٨ ، حدث خلاف بين أبنائه . وفي عام ١٥٢٣ ، تولى الامارة الأمير منصور ، حفيد عساف ، فبقى فيها حتى عام ١٥٨٠ (٣) . وكانت تنافس آل عساف أسرة آل سيف الكرديّة الأصل ، التي تمركزت في منطقة طرابلس ، وحكمتها فترة طويلة بتأييد من العثمانيين ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وكانت علاقة ولاية الشام بالأمراء المحليين في ولايتهم تقوم على تحقيق الأمن وجمع المال المبرى ، واقتضى ذلك من الولاية أن يقوموا بعدة حملات لتنفيذ غرضهم . ففي أكتوبر عام ١٥٢٣ ، قام والي الشام بحملة ضد دروز الشوف وانتصر عليهم . وليس هناك من ذكر للأسباب التي دعت إلى هذه الحملة ، ولكن يبدو أن العثمانيين ، بعد أن أخذوا ثورة الغزالي قبل ذلك بحوالي سنتين ، كانوا حذرين من زيادة سلطة الأمراء المحليين ، لاسيما وأن الدولة العثمانية كانت في هذه الأثناء - في عهد السلطان سليمان - في أوج قوتها . وكانت أخبار انتصاراتها في الجبهة الأوروبية بصفة خاصة ، مشجعة للولاية لاثهار قوتهم . إلا أن دروز الشوف ردوا على انكسارهم بأن

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٥٥ .

(٢) اسطفان الدويهي ، تاريخ الأزمنة (١٠٩٥ - ١٦٩٩) ، نشرة الأب فرديناند توتل ،

مجلة المشرق ، مجلد ٤٤ (١٩٥٠) ، ص ٢٣٦ .

(٣) الأب بطرس ضو ، تاريخ المواردة الديني والسياسي والحضاري ، جونية ، ١٩٧٧ .

ص ١٢٣ - ١٢٤ .

قتلوا المسئول العثماني لديهم ، وثأروا على الوالي الذي جرد حملة أخرى ضدهم في عام ١٥٢٤ ، فتكت ونكلت بهم من جديد . ويبدو أن دروز الشوف قد أخلدوا إلى السكينة بعد هذه الانتصارات التي أحرزها والي الشام عليهم ، واستمروا كذلك طيلة القرن السادس عشر ، حتى قيام فخر الدين المعني الثاني ، أمير بلاد الشوف ، وتحديه للعثمانيين .

٢ - تولى فخر الدين الإدارة والصراع من أجل التوسع (١٥٩٠ - ١٦١٣)

في عام ١٥٨٤ ، تضعضعت العلاقات السلمية بين الأمراء المحليين والعثمانيين عندما بدأت الولايات تشعر بضعف الامبراطورية العثمانية . فقد أمدت تطورات الأحداث المعنيين بأسباب القوة والتفوق في الوقت الذي كانت تسير فيه أسرة آل عساف نحو التدهور والانتقراض . وكان بنو سيفنا يتطلعون إلى ما وراء بلادهم : فظلوا ياتبعون آل عساف حتى قضوا عليهم نهائياً في عام ١٥٨٠ ، وبذلك أصبح التنافس منحصراً بين آل سيفنا في طرابلس ونواحيها والمعنيين في الشوف . وقد حاول يوسف سيفنا مد سيطرته إلى بلاد قرقياز بن فخر الدين المعني الأول (١٥٤٤ - ١٥٨٥) ؛ ففي عام ١٥٨٤ دبر يوسف سيفنا مكيدة لقرقياز ، إذ هاجم رجاله جماعة من الانكشارية في جون عكار وهم في طريقهم إلى الآستانة لتوصيل خراج مصر وفلسطين (١) . وادعى بنو سيفنا أن للمعنيين بدءاً في ذلك ، فأرسل السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) حملة تأديبية بقيادة والي مصر ابراهيم باشا توغلت في الجبل والتحمت مع الدروز في اقليم الشوف . وفر قرقياز إلى الجبال ، وكتب إلى الباشا رسالة أكد فيها طاعته وولائه للدولة قال فيها :

«أنا أرغب كل الرغبة في أن أقدم عليك ، وفي أن أقوم بخدمتك دائماً في كل فرصة قد تكون فيها في حاجة إلى مساعدتي لأنني أعلم بأنك

(١) طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ، ١٨٥٩ ، ص ٢٥١ .

تثق بالاحترام الذى أكنه للسلطان وانى أقوم بتأدية جميع الأموال ، الشيء الذى لم يفعله ابن منصور ، الذى قدم عليك فى أورشليم .. ومعك الآن ٩ من أعدائى ، وهم يرغبون فى الايقاع بى وأنا واثق من أن طلبك حضورى عليك يحمل فى طياته أمر اعدائى وخصوصاً وأنى أذكر أبى الذى قبض عليه باشا دمشق ، تحت ستار الصداقة ثم قتله غيلة ، وفى الحق انى لأحمل فى ذهنى صورة رأس أبى وهى مصغرة ، وتخلج وهى تتمثل بى فى ظلام الليل وفى وضوح النهار ، وهى تحادثنى وتدعونى لأن أتجنب البغاة ، وعلى هذا فلا أقدر أن أطيع مطالبكم وأنه ليؤلمنى فى هذا الصدد أننى سأظهر كأنى غير مطيع لأوامركم .. » (١) .

وأخذ الباشا يبذل ما فى وسعه لحمله على المثل بين يديه ، فلجأ إلى اللين بإنفاذ الرسل إليه ، وكان يريد بمراسلته اما أن يفلح فى حمله على القلوم عليه ، واما أن يضعفه بالتدريج بما يقدمه فى كل مرة من الهدايا والأسلحة .

وأمام هذا الالحاح من جانب ابراهيم باشا لم تر السيدة نسب - زوجة قرقاز حرصاً على مصلحة شعبها - بدءاً من أن تتقدم إلى الباشا لكى تبين له عذر قرقاز وترجوه أن يعفيه من طلب القلوم عليه . ولما فشل ابراهيم باشا فى اقتناص فريسته بالغدر والخداع ، نقض عهد الأمان ولجأ إلى العنف الصريح ، فأمر قواته باجتياح الشوف . ودمرت معظم قرى الشوف فى وقت قصير ، وعين الباشا ابن الحرفوش على البلاد ثم أقلع إلى استانبول محملاً بالأموال والهدايا النفيسة بعد أن نجح فى اخضاع الجبل الذى عجزت عنه الدولة منذ زمن بعيد . أما قرقاز ، فقد هلك مريضاً فى مغارة جزين (٢) . وفى وسط هذه الأزمة العنيفة نشأ فخر الدين ؛ فلقد ولد حوالى عام ١٥٧٢ ،

R. Ricault, *The History of the Turkish Empire*, 3 vols., (London, (١) 1700), Vol. I, p. 693.

(٢) اسطفان الدويهى ، تاريخ الطائفة المارونية ، بيروت ، ١٨٩٠ ، ص ١٧٨ .
عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ الأمير فخر الدين المعنى الثانى ، ص ٤٦ - ٤٨ .

وكاد أن يقضى عليه لولا أن السيدة نسب أنقذت الموقف، فهربت ولديها
فخر الدين ويونس إلى بلونة في كسروان عند أبي إسحق إبراهيم الخازن .
وكان المكان مناسباً ، إذ أن أبا إسحق قيسى ، هذا إلى أنه مشهور بالأمانة
والتقوى (١) .

على كل حال ، نشأ الطفلان الصغيران عند آل الخازن ، فتعلم فخر الدين
الفروسية وتثقف باللغة العربية ، وقرأ التاريخ ، وعلى الأخص تاريخ
إبائته ، وتعلم التسامح الديني بأوسع معانيه ، فالحوازنة موارنة ، ولكنهم
مع ذلك لم يحاولوا تنصير الأميرين . وفي حوالى عام ١٥٨٨ ، انتقلت بهما
السيدة نسب إلى خالهما سيف الدين التنوخى في أعبية بالشوف . وإلى جانب
خالهما نشأ الأميران . ودخلا في دور اعداد عملي ، وأخذتا يتلقيان دروس
الحكم العملية ، ويدربان على السياسة ، فبالأول إلى الحكم والادارة ،
ومال الثانى إلى الحرب والقيادة . ولقد أيقظت اعتداءات إبراهيم باشا
في نفوس أهل الجبل — خاصة الموارنة والدروز — شعور البغض نحو النير
العثمانى . وأخذ شيوخ الموارنة يدركون أنه لابد لانقاذ الجبل واستقلاله
من الاتحاد مع آل معن والدروز ، مؤملين أن تتسع دائرة هذا الاتحاد
في المستقبل (٢) . ولقد راح آل الخازن وآل حيدش في كسروان يعملون
بنشاط في سبيل تحقيق هذه الوحدة الضرورية . ولما كان من اللازم على
سكان الجبل لكي يتمكنوا من رفع النير العثمانى أن يكون لهم زعيم مطلق ،
فقد رأوا من الأوفق أن يكون واحداً من زعماء الدروز المتميزين بالصلابة
والقدرة الحربية . وإلى جانب هذا فقد جعلت مأساة قرقاز من آل معن
شبه زعماء وطنيين للجبل ؛ ولما كانت الدولة العثمانية قد اقتنعت ، من ناحية
أخرى ، بما نال لبنان من التأديب بعد حادث جون عكار ، لم تمنع

(١) طنوس الشدياق ، المصدر السابق ، ص ٨١ ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع

السابق ، ص ٤٤ - ٥٠ .

(٢) الأب بطرس ضو ، المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

من ولاية أحد أمراء آل معن ، فأصبح الطريق بذلك ممهداً لظهور شخصية قوية قادرة تتولى مقاليد الإمارة . ففي عام ١٥٩٠ بلغ فخر الدين أشده ، فتنازل سيف الدين التنوحي عن الوصاية وتولى فخر الدين حكم الشوف (١) .

ومهما يكن من أمر فقد اقتصرت ولاية فخر الدين في البداية على الحدود القديمة ، فشملت الشوف ، وجزءاً من الساحل الفينيقي بما فيه صيدا . ولم يكن فخر الدين مجرد ناهب أو جامع إمارات : بل كان ~~ملكاً~~ ^{ملكاً} يعمل على عمل يرمى إلى إيجاد وحدة وطنية ثابتة الدعائم ، موطنة الآن كان . وذلك ليحقق سياسته . فقد تزعم فخر الدين المقدسية ضد آل سيف وآل عساف وآل حرفوش وآل فريخ ايمنية وكان إلى جانب فخر الدين آل شهاب في وادي التيم ، وموارنة كسروان من آل الخازن وآل حبيش . وأخذ فخر الدين يعمل على توحيد حلفائه من الدروز وآل شهاب والموارنة ، ثم رأى أنه يلزمه قوة حربية مستدامة ، فاتخذ آلافاً من السكان (٢) ، وهم جند من المرتزقة يمتازون بالشدة في القتال وبمعرفة الطرق والنواحي . وبدأ فخر الدين أولاً بمنصور بن فريخ الذي كان عدواً لآل معن منذ حملة ابراهيم باشا ، والذي كانت سيطرته تمتد من نابلس إلى البقاع وأصبح أميراً للحجج ، وأخذ يعسف برعاياه . ووجد فخر الدين في عسف ابن ابن فريخ سبيلاً إلى إيغار صدر باشا دمشق عليه ، فدبر له الآخر مكيدة وقتله في إحدى الولائم ، وبهذا تخلص فخر الدين من أحد أعدائه ،

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

(٢) مسمى أفراد هذه القوة أيضاً بالسكبان ، وهي كلمة فارسية الأصل تتألف من مقطعين (سك) وتعني (كلب) و(بان) وتعني (صاحب أو حامي) ، وتعنيان معاً الكلابي ، أي الذي يقود الكلاب ويسير مع الأمير إلى الصيد . (أنظر : عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ، ص ٧٧ - ٧٨) . وكان السكبان يتقدمون في الصيد ويتألف جندهم من ٣٤ أورطة . وبلغ عددهم عند المعنى مع الدروز نحو مائة ألف ، كما كان عند الجنبلاطلي نحو ثمانين ألفاً من البندقين (التفكجية) . (عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٦٥ - ٦٦) .

مستغلاً بذلك الادارة العثمانية في دمشق في سبيل تحقيق أغراضه (١) .

وكان التنافس بين يوسف سيفاً ومحمد بن عساف قد بلغ أشده في شمال غربي الجبل . وقد انتهى هذا التنافس بمقتل ابن عساف وانقراض أسرته بعد حكم دام ٢٣٠ سنة (٢) . وهكذا بسط ابن سيف نفوذه من بيروت إلى قرب أنطاكية شمالاً ، وأخذ يتركز بالموارثة حلفاء فخر الدين . وكان من الطبيعي بعد أن تآخمت أملاك ابن سيف اماره فخر الدين أن يبدأ الاحتكاك بينهما . وقد نشب الصراع بين كل منهما في وقعة دارت عند نهر الكلب عام ١٥٩٨ انتصر فيها فخر الدين وانتهت بتوليته بيروت . ولكن فخر الدين السياسي أثر الاتساع التدريجي ، فعقد صلحاً مع ابن سيف وتخلّى عن بيروت . إلا أن الصراع تجدد بين فخر الدين وابن سيف ، ففجرت وقعة جونية عام ١٦٠٥ التي انتصر فيها فخر الدين أيضاً ، وولى من قبله يوسف المسلماني على غزير وأبو نادر الخازن على كسروان (٣) . ولقد استمرت النزاعات بين يوسف سيفاً وفخر الدين عدة سنوات ، ثم تمكن فخر الدين أخيراً من أن يقضى على آل سيف في عام ١٦٢٧ (٤) . وكان آل سيف . طوال هذه الفترة يمثلون شوكة في جنب فخر الدين ، فقد حذوا من توسعه في الشمال ، إلا أنه بقيت له حرية التوسع في الشرق وفي الجنوب .

ولكن زوال آل فريخ - الذين كانوا يشكلون قوة عازلة حاجزة بين ولاية الشام وفخر الدين . وامتداد نفوذ هذا الأخير على إقليم البقاع الخاضع مباشرة لهؤلاء الولاة - زاد من الاحتكاك والمنافسة بين الطرفين ، لاسيما

(١) محمد الحبي ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٨٦٩ ،

ج ٤٢٧/٤ - ٤٢٨ .

(٢) طنوس الشدياق : المصدر السابق ، ص ٣٨٢ .

(٣) عيسى اسكندر معلوف ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٤) حيدر الشهابي . غرر الحسان من حوادث أبناء الزمان ، القاهرة ، ١٩٠٠ ، ص

٦٢٢ - ٦٢٤ .

وأن المنطقة التي أصبح يسيطر عليها فخر الدين كانت تمر فيها الطرق التجارية التي تربط بين دمشق والساحل ، وبين دمشق وفلسطين ومصر ، وتحكم في سلامة قافلة الحج . وهكذا بدأت المشاحنات بين فخر الدين وولاية دمشق . ولكي يواجه فخر الدين خطر ولاية الشام فقد أقام عيوناً له في استانبول لرعاية مصالحه فيها ، وجند جيشاً من الدروز والقيسية ، كما سبق الإشارة ، وحصن القلاع في منطقته ، وقام باتصالات مع آل مدينتشي - حكام توسكانا في إيطاليا - للحصول على المساعدة العسكرية والفنية ولتنشيط تجارة بلاده معهم ، وخاصة تجارة الحرير التي كانت مزدهرة في منطقة الشوف (١) . وكان فخر الدين يتمتع بتأييد الحاج كيوان نعمة ، وهو أحد كبار الانكشارية في دمشق (٢) .

وفي ذلك الوقت ، كانت الدولة العثمانية شاطئة بالأزمات الداخلية والخارجية ، ولم تكن لتخلص من أزمة حتى تواجهها أخرى . ففي مطلع القرن السابع عشر ، ظهر في منطقة حلب بعض الأفراد الثائرين من أسرة جنبلاط ، وهي أسرة كردية الأصل تنسب إلى جان بولاد (أى النفس الفولاذية) ، الذى حور اسمه إلى جنبلاط . وقد اشتهر من هذه الأسرة حسين باشا جنبلاط الذى عين في أول أمره حاكماً على كلس . وفي عام ١٦٠١ عين حسين باشا جنبلاط والياً على حلب ، وكان يعتمد في توطيد سلطته على جنده من السكان ، وعلى دعم بعض أصحاب النفوذ في استانبول ، مثل سنان باشا الذى أرسله السلطان لقتال قوات الشاه عباس الأول الصفوى (١٥٨٧ - ١٦٢٩) . ولكن العلاقات ساءت وقتئذ بين سنان باشا وحسين باشا جنبلاط بسبب تقاعس الأخير عن نصرته الأول أثناء قتاله مع الصفويين ،

A. Ismail, *Histoire du Liban du XVIII^e Siècle à Nos Jours*, Vol. :I (١)
Le Liban au temps de Fakhr—eddin II (1590 — 1633), Paris, 1955, pp. 77— 78.

(٢) للمزيد من التفصيلات عن كيوان ، راجع : الحجي ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر . ج ١٨٧/١ .

مما أدى إلى هزيمة سنان في عام ١٦٠٥ . وحين عاد سنان من خيلته الفاشلة ، قتل حسين باشا جنبلات في أواخر عام ١٦٠٥ . وثار على بن أحمد بن جنبلات لمقتل عمه ، وأخذ ولاية حلب عنوة ، وجمع جيشاً كبيراً من السكبان ، وامتنع عن دفع أموال الميرى . وقد تطوع يوسف سيفاً - حاكم عكار وبلاد طرابلس - لدى السلطان العثماني أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) ، اقتال على باشا جنبلات . وكان يوسف باشا سيفاً يحاول ، بعد قضائه على آل عساف واتساع نفوذه ، أن يوطد سلطته بموافقة السلطان ، لاسيما وأن فخر الدين الثاني المعني منافسه في جبل لبنان ، كان هو الآخر يزداد نفوذاً . وقد عين السلطان العثماني يوسف سيفاً قائداً على عساكر الشام ، فبدأ يجمع قواته في حماه ، حيث تحارب مع على باشا جنبلات في يوليو عام ١٦٠٦ . وقد هزم يوسف سيفاً ، وفر بجرأ إلى حيفا التي كان يحكمها الأمير أحمد طراباي ، وتحصن مملوكه يوسف في قلعة طرابلس وعمه محمود في حصن الأكراد .

وازداد على أثر ذلك نفوذ على باشا جنبلات ، فأرسل إلى الأمير فخر الدين المعني يطلب التحالف معه ، وتم ذلك على يد كيوان أحد كبار انكشارية دمشق وصديق فخر الدين (١) . واجتمع الحليفان عند نبع نهر العاصي ، ثم سارا لاحتلال طرابلس ومحاصرة دمشق حيث لجأ يوسف سيفاً وأخذ يجمع القوات العثمانية من جديد . واستولت قوات على باشا على مدينة طرابلس ، باستثناء القلعة ، ثم توجه الحليفان نحو البقاع ، ففرا ببعلبك ، ونصبا عليها يونس الحرفوش الذي عارضه به الفرع الحرفوشي الآخر الذي يتزعمه موسى الحرفوش المؤيد ليوسف سيفاً . وكان أحمد شهاب ، حاكم وادي التيم ، يؤيد الأمير فخر الدين وعلى باشا .

ووصلت قوات على باشا جنبلات وفخر الدين إلى منطقة العراد ،

(١) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت ، ج ١ / ٢٧٠ - ٢٧١ .

وتجمع جند الشام في وادي دمشق الغربي وجرت مراسلات الصلح بين الفريقين . ولكن بعض مشاغبى جند دمشق قطع الأمل في نجاح مساعي الوفاق ، ولجأ على باشا إلى الدس والغدر ، ففترقت فلول الجيش الدمشقي ودخل بعضهم قلعة المزيريب . وكان ابن سيفا في تلك الأثناء متمارصاً في دمشق ولم يخرج للقتال . وبدأ أهل المدينة يدركون ما جلبه عليهم ابن سيفا فلم يدعوه يفلت إلا بعد أن دفع لهم ١٠٠,٠٠٠ قرش ثم ولى الأدبار (١) . ولما علم على باشا بفرااره ، سلط جنده وجند فخر الدين على المدينة فقاموا بالنهب أياماً . ثم انتهى الأمر بأن خرج وفد من كبراء دمشق للتفاوض مع على باشا وفخر الدين ، وبالفعل ارتد عنها على باشا عندما علم بهرب يوسف سيفا وبعد أن دفع له الدمشقيون المائة ألف قرش التي أخذوها من ابن سيفا . وبموجب هذه المصالحة ، تقرر إعطاء ٢٠,٠٠٠ قرش إلى فخر الدين . ثم افرق الحليفان ، إثر هذا الانسحاب ، فتوجه فخر الدين إلى بلاده ، وسار على باشا لحصار حصن الأكراد ، وأخيراً تم الصلح بينه وبين يوسف سيفا ، وتصاهرت الأسرتان ، وعاد على باشا إلى حلب (٢)

وقد زاد هذا الصلح من نفوذ يوسف سيفا ، لأنه يعتبر تحولا في سياسة على باشا تجاه فخر الدين المعني . وتقاسم النفوذ في بلاد الشام كل من على باشا الذي عاد إلى حكم حلب (١٦٠٥ - ١٦٠٧) وامتدت سلطته حتى حمص ، ويوسف سيفا الذي امتد سلطانه على حمص والمنطقة الواقعة في جنوبها وغربها ، ولكنها كانت من الناحية العملية تحت نفوذ على باشا . واستمر الأمر كذلك مدة عامين ، إلى أن انتهت الدولة العثمانية من حروبها في الحبر ، ووقعت مع النمسا معاهدة سيتفاتوروك (Sitvatorok)

(١) عيسى اسكندر المفلوف ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٣ - ٨٤ .

في عام ١٦٠٦ (١) ، فجهزت جيشاً بقيادة المصدر الأعظم مراد باشا للقضاء على على باشا جنبلاط وعلى ثائرين آخرين أقل شأنًا في منطقة حلب — سيواس . ومما تجدر ملاحظته أن الغرب المسيحي — ممثلاً في إمارة توسكانا الإيطالية قد — حاول الاتصال بعلى باشا جنبلاط لمساعدته على إضعاف الدولة العثمانية ، ودفع خطرهما عن أوروبا ، واستخلاص الأراضي المقدسة . وقام الماروني الحلبي فضلي بن يوحنا قريع (٢) بلور رئيسي في المفاوضات التي دارت بين إمارة توسكانا من جهة وعلى باشا جنبلاط وإلى حلب من جهة أخرى . وجاء في الخطاب الذي وجهه الجرانديوق فرديناند الأول أمير توسكانا إلى على باشا جنبلاط على يد ميخائيل قريع في ٢٥ يناير عام ١٦٠٧ ما يلي (٣) : « ان وقوفكم الجريء الشريف في وجه آل عثمان الظلمة قد أكسبكم عطف جميع الأمراء المسيحيين وثناهم . وهم يتمنون لكم من صميم أفئدتهم مزيد العز والفخر . أما نحن اللدائين في مناوأة هذا العاني الكبير ومضايقته بأغربتنا (٤) ومراكبنا ، فتجدونا مستعدين الاستعداد كله لشد أزر جميع الخارجين عليه .. » .

(١) E. Creasy *History of the Ottoman Turks* London, 1878, pp. (١) 319 — 320.

(٢) جاء اسم فضلي قريع في الوثائق الأوروبية والتوسكانية Michelangelo Corai ميخائيل قريع .

(٣) بولس قرأى ، على باشا جنبلاط ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٢٤-٣٤ ، يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ٢/٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٤) الأغربة والغربان : جمع (غراب) ، من المراكب الحربية شديدة البأس التي استعملها المسلمون والفرننج في العصور الوسطى في الغارة والغزو في حوض البحر المتوسط ، ويرجع استعمالها إلى العصور القديمة على عهد الرومان والقرطاجيين وغيرهم من أم تلك العصور ، واستمر استخدام هذا الضرب من السفن كأحد القطع الحربية حتى زمن العثمانيين والدول الأوروبية المطلة على البحر المتوسط ، وتشير النصوص إلى استمرار استعمال الأغربة حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر . وكان الغراب يسير بالقلع والمجاذيف ، ومنه الصغير والكبير ، ويحدد حجمه وضخامته عدد مجاذيفه ، فأحفظه ما كان يحرمه مائة وثمانون مجذافاً ، وأصغره تجدف به =

ووصل ميخائيل قريع إلى حلب في أوائل ابريل عام ١٦٠٧ ، ودارت
المفاوضات بينه وبين علي باشا جنبلات حتى ٣ اكتوبر من نفس العام ،
وأُسفرت عن مشروع معاهدة وضع نصه علي باشا جنبلات ووقعه وأرسله
بواسطة ميخائيل قريع إلى أمير توسكانا ليوقعه هذا مع البابا وملك أسبانيا (١).
ولكن في السادس من اكتوبر عام ١٦٠٧ ، وصل الوزير العثماني مراد باشا إلى
أدنة على رأس عسكر «بلغ ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل» كما يذكر المحبى .
وبعد أن تغلبت القوات العثمانية على الثائرين الصغار ، اصطدمت في مرعش
بقوات علي باشا ، التي حلت بها الهزيمة رغم النجندات من السكبان التي
تلقاها من ابن سيفا وفخر الدين . وقد قضى سليمان باشا ، وإلى الشام ،
على قوات الثائرين من السكبان الذين هربوا في اتجاه الشام وروعوا سكانها .
وقد زال نفوذ الأسرة الجنبلاطية في منطقة حلب على أثر ذلك ، ولجأ
بعض أفرادها في عام ١٦٣٠ إلى حكام الشوف المعنيين ، نظراً لما كان
بين الأسرتين من الصداقة القديمة ، ودخلوا في خدمتهم . وبعد قرن من
هذه الأحداث لمع اسم الجنبلاطيين في بلاد الشوف ، واستفادوا من ضعف
الأمراء الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان بعد المعنيين (٢) .

وبعد القضاء على الثائرين وزعيمهم علي باشا جنبلات في منطقة حلب ،
انتقل مركز الثقل إلى بلاد الشام الجنوبية حيث الثائر الآخر الأمير فخر الدين
المعنى الثاني . ويختلف فخر الدين عن علي باشا والثائرين الآخرين في الشمال
بأنه ينتسب إلى أسرة من الأمراء في جبل لبنان اعترف العثمانيون بسلطتهم

==عشرة مجاديف ، انظر تعريفاً وشرحاً وافين لهذا النوع من السفن ، في : درويش النخيل ،
السفن الاسلامية على حروف المعجم ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٤ -
١١٢ ؛ انظر ما في هوامش هذه الصفحات من مصادر ومراجع .
(١) يوسف ضو ، المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٣٤ . راجع نص المعاهدة في الملحق
المرفق .
(٢) بولس قرأى ، المرجع السابق ، ص ٨٤ - ٨٧ .

وبوضعهم الخاص داخل نطاق الامبراطورية . كما أن بعد منطقة فخر الدين ، وانعزالها نسبياً ، وطبيعة أرضها ، بالإضافة إلى تاريخها ، ساعد على استمرار بقاء الأمراء المحليين فيها . أما منطقة حلب التي ثار فيها على باشا جنبلات والتي شجع على ظهور الثائرين فيها تعدد أقوامها وطبيعة جغرافيتها ، فقد كانت — في الوقت نفسه — سبباً هاماً في القضاء على الثائرين نظراً لقربها من الأناضول وعلى الطريق الرئيسية المؤدية إلى الجهة الشرقية والتي كثر اجتياز الجيوش العثمانية لها لقتال الصفويين وخلفائهم الأفغانيين . ولم تكن الدولة العثمانية لتسامح مع الثائرين في منطقة حلب خوفاً من إضعاف جبهةها ضد الصفويين وخلفائهم ، ولكي لا تترك مجالاً لدولاء لاستغلال الوضع المداخلي وتأييد الثائرين .

وتحولت الدولة العثمانية بعد صلحها مع النمسا في عام ١٦٠٦ والقضاء على قوات على باشا جنبلات في عام ١٦٠٧ إلى مقاومة فخر الدين المعني الذي كان قد مد سلطته إلى البقاع وصفد وبيروت وصيدا وتحالف مع على باشا . فكلفت ولاية الشام بالتصدي له خوفاً من ازدياد سلطته ، وتهديده لطريق الحج وطريق التجارة مع مصر ، وطعنه العثمانيين من الخلف وقت انشغالهم في حربهم مع الصفويين . وقد عين في ذلك الوقت أحمد باشا الحافظ على ولاية الشام في عام ١٦٠٩ ، وظل يحكمها حتى عام ١٦١٤ ، وركز على مقاومة فخر الدين الذي شكل خطراً على سلطته . وبدأ أحمد باشا الحافظ بإثارة الأمراء المحليين المعادين لفخر الدين ضده ، فشجع بني سيفا ، حكام طرابلس ، وأثار الاضطرابات ضد فخر الدين في منطقة البقاع — عجلون الخاضعة لسيطرته ونفوذه . وحاول أحمد باشا الحافظ القضاء على الأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك ، والأمير أحمد شهاب حاكم وادي التيم ، وهما من حلفاء فخر الدين ، إلا أن ارسال فخر الدين النجدة لهما أربح أحمد باشا .

وفي عام ١٦١١ عين نصوح باشا ، وهو عدو لفخر الدين (١) ،
 صلياً أعظم في استانبول ، فحاول الحد من نفوذ فخر الدين ، ودعم
 أحمد باشا الحافظ في محاولته تحقيق ذلك. وأخذ أحمد باشا في عام ١٦١٢ يثير
 المشاكل في وجه فخر الدين ، فخلع حمدان قانصوه - وهو موال لفخر الدين -
 عن عجلون و نابلس والكرك و ولاها لابن فريخ . ثم عزل الشيخ عمر شيخ
 عرب المفارجة عن حوران ، وكان أيضاً موالياً لفخر الدين وأعطاه
 لرشيد شيخ عرب السردية . فليجأ الأميران المعزولان إلى فخر الدين و طلبا
 نجده . ولكن فخر الدين لم يتعجل في نجلدهما ، بل آثر التريث والحذر
 وأخذ يسعى لدى الدولة لمصلحتهما ، فأرسل مصطفى كتندهاه إلى استانبول
 لكي يعرض الأمر على رجال السلطان . ولكن كيوان ، صديق فخر الدين ،
 حرصه على سرعة نجلده المعزولين . فتورط فخر الدين وأرسل ابنه علياً
 على رأس قوة فلاقت عسكر دمشق عند المزيريب في عام ١٦١٣ . وانهمز
 جند الشام وحلفاؤهم بقيادة ابن فريخ . ودفع استمرار المناوشات بين
 الفريقين فخر الدين إلى إرسال مدد عدته ١٠,٠٠٠ مقاتل بقيادة حسين
 اليازجي (٢) ، فلم يقو جند الشام على القتال ، واضطر إلى التراجع بعد
 أن ثبت ابن قانصوة في عجلون وعمر في حوران .

وهكذا لم يلزم فخر الدين الحذر ، فتورط في تحريض كيوان على قتال
 جند الشام ، وفي تلك الأثناء كان كتندهاه في استانبول قد نجح في الحصول
 لفخر الدين على إمرة نابلس وإمرة الحج الشريف ؛ ولكن وصول أخبار
 فخر الدين إلى الشام ، ووصول شكايات أحمد باشا الحافظ وعروضه ومبالغته
 في خطر فخر الدين واتهامه بمحاولة حصار دمشق ، واتصاله الدائم بالغرب
 المسيحي ، قد أدى إلى صدور الأوامر العالية بتجهيز القوات للقضاء عليه (٣) ؛

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

فجعل أحمد باشا الحافظ سرداراً على القوات العثمانية التي تكونت من باشاوات ديار بكر وقرمان والرها وطرابزون وصناجق كردستان مع قوات من الانكشارية . ووصلت القوات البرية إلى الشام . وإزاء هذه الجموع الحاشدة ، لم يقو حلفاء فخر الدين على المقاومة ، ورأوا انقازاً لأنفسهم من الهلاك انختم أن يتقدموا بالطاعة إلى الباشا ، وهو ما فعله يونس الخرفوش حاكم البقاع ، وأحمد وعلى الشهابيان مقدماً وادى التيم . وبذلك ازداد مركز فخر الدين حرجاً ، فأخذ يبذل جهده لانقاذ الموقف . فحصن قلاعه ووضع بها الجنود والذخائر والمؤن الكافية لخمس سنوات ، وجعل على بانياس حسين اليازجي ، وعلى الشقيف طویل حسين .

ثم أخذ فخر الدين يسعى أيضاً إلى انقاذ الموقف بالسلم والسياسة ، فعين وفداً من شيوخ وعلماء صفد وصيدا وبيروت ، وكان بينهم أحمد الصنفى مؤلف «تاريخ فخر الدين بن معن» (١) ، وأرسله إلى دوشق في طلب الصلح . فتقدم الوفد إلى ديوان الباشا ، وعرضت رسائل فخر الدين فأعلن الباشا استعداده الصلح والعفو ولكنه اشترط قدوم فخر الدين بنفسه ، ولئن استجاب إلى ذلك فإنه يقرره على بلاده (٢) . ولم ير فخر الدين سبيلاً

(١) هو أحمد محمد الخالدي الحنفي ، نشأ في صفد ، ورحل في الجزء الأخير من القرن العاشر الهجري إلى القاهرة لتلقي العلم حيث درس الفقه والحديث والتفسير والتاريخ . وعندما عاد إلى صفد درس وأفتى وناب في القضاء ، وتوفي عام ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٤ م . وكان الخالدي معاصراً لفخر الدين وإشترك في بعض الحوادث . ويتناول تاريخه عن فخر الدين الحوادث ما بين ١٠٢١ هـ / ١٦١١ م و ١٠٣٢ هـ / ١٧٣٢ م وهو تاريخ مفصل للحوادث في سورية ولبنان . كما احتوى مؤلفه على وصف دقيق لحياة فخر الدين ومشاهداته في الغرب . فسرده طائفة من «العجائب» كما رآها شرق لأول مرة .

(٢) قال الحافظ لوفد فخر الدين « المعنى مراده الصلح ولكن لو ملا هذه الخيمة ذهباً لا يمكن ذلك ما لم يدرس على هذا البساط . وحق نعمة السلطان لئن جاء إلى هنا لاقرن عليه بلاده وأنعم عليه بما لم يحصل لأحد من قبله فأرسلوا إليه وأعرضوا هذا الكلام عليه » . (عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٠٤) .

لتحقيق ذلك وهو يثق بغدر الترك ، فرحل مع كيوان إلى طبرية . وسير
إلباشا قواته لمنع من الهروب ، والتقت قوات الشام بقوة لابن معن عند
جسر الخيام كانت تحفظ الطريق ، وظهر الدمشقيون . وتراجع فخر الدين
إلى قلعة الشقيف . وعوضاً عن قدوم مدد توسكاني لنجدة فخر الدين ،
إذ بعارة بحرية عثمانية تصل صيدا بقيادة محيي الدين باشا رودس ، لحصار
فخر الدين بحراً . ولكن القوات البحرية لم تكن شديدة الخطر على فخر الدين .
فلقد كان محمد باشا القبطان يميل إليه ، لسابق خدمته إياه عندما مر ببلاده
معزولا عن مصر . واجتمع فخر الدين بمحيي باشا عند نهر صيدا ،
وأخذ يشرح له تعدى الحافظ وإثارته الفتن مع الوفاء له بالأموال .

وفي ذلك الوقت ، حدثت تطورات خارجية خففت الضغط عن
فخر الدين ، إذ أن سفناً صقلية هاجمت سفناً عثمانية بالقرب من Lcio
وغنمت منها خراج بلاد المورة . فاضطرت التجارة التركية المحاصرة للشاطئ
الفينيقي إلى الابتعاد عن ساحل الشام لكي تشترك في صد قرصنة صقلية .
وعلى هذا أصبح طريق البحر مفتوحاً أمام فخر الدين . وعقد الأمير مجلساً
عند الدامور ، جمع فيه أهله وأعوانه ورأى حرج موقفه ، وضعف قواته
عن المقاومة ، وتجددت الآراء ازاء الموقف ، فكان هناك رأى يقضى
بوجوب الحرب ، ورأى يميل إلى الحصول على رضا السلطان ببذل الأموال .
وكان من رأى السيدة نسب أن يسافر فخر الدين بنفسه إلى استانبول
لتقديم الولاء والطاعة ونيل العفو . وأخيراً تغلب رأى كيوان الذى يقضى
بالسفر إلى توسكانا . فعهد فخر الدين إلى أخيه يونس وابنه على بالحكم ،
وجعل مقره دير القمر ، وجعل حسين اليازجى سرداراً على قوات آل معن .
وتمكن كيوان عن طريق كردانا - قنصل فرنسا في صيدا - من استئجار
سفينة فلمنكية وآخرين فرنسيين ، ونزل فخر الدين ومعه زوجته
خاصكية في السفينة الهولندية واستقل إحدى السفينتين الفرنسيين أخوها

سيدى على وقنصل فرنسا والخدم، في حين ركب الأخرى كيوان وعائلته..
وبدأت الرحلة في ١٥ سبتمبر عام ١٦١٣ .

٣ - لجوء فخر الدين الى الغرب المسيحي (١٦١٣ - ١٦١٨) :

كان بحكم إمارة توسكانا الإيطالية - كما أشرنا من قبل - الجراندوق فرديناند الأول (١٥٨٧ - ١٦٩٨) ، الذي اختبر في ذهنه في ذلك الوقت فكرة انجاز عدة مشروعات في البحر المتوسط وفي سورية تحركه فيها عوامل اقتصادية وأخرى دينية بغرض تنمية العلاقات التجارية مع الشرق الأدنى واسترجاع بيت المقدس (١) . وبعد نكبة على باشا جنبلط ، اتجه اهتمام أمير توسكانا إلى توطيد العلاقات مع الأمير فخر الدين المعني الثاني (٢) . فارسل الأمير فرديناند بعثة أخرى لتتعرف على طبيعة ونتائج الحوادث في سورية ، فاتصلت البعثة التوسكانية بفخر الدين الذي دعاها إلى صيدا . وعرضت عليه البعثة مساعدة توسكانا بالاشتراك مع البابا وأسبانيا لكي يحتفظ بإمارته ويستمر على حاله من الاستقلال ، فرحب فخر الدين بهذه المساعدة المعروضة عليه . وانتهى الأمر في عام ١٦٠٨ بعقد معاهدة بين فرديناند الأول والأمير فخر الدين جاء فيها :

١ - صرح فخر الدين بعزمه على احتلال دمشق والقدس وتسلمهما إلى أمير توسكانا .

٢ - ليتمكن الأمير اللبناني من ذلك طلب :

(أولاً) أن يضع الجراندوق تحت تصرفه خبراً يصب له اثني عشر مدفعاً مع توابعها .

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ - ١٩٢٠) - مطبوعات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٤٠ - ٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٥٠ .

(ثانياً) أن يستفك الأسرى التوسكانيين الثلاثة من الوزير مراد باشا
المعرفتهم قلاع فخر الدين معرفة تامة وهذه القلاع إذا تم تحصينها وتجهيزها
بالمدافع والذخائر والسلاح صمدت أمام كل قوات الأتراك .

(ثالثاً) أن يفوز الجرانديوق من البابا ببراءة يأمر فيها الموارنة أن
يقفوا بجانبه في الحروب القادمة .

(رابعاً) أن يضع تحت تصرفه في ميناء صيدا مركبين يستخدمهما
في تبادل الرسائل والبعثات معه وتهريب خزينته إلى توسكانا عند الحاجة ،
وغير ذلك .

(خامساً) أن يزوده بتذكرة مرور تتيح له الركوب إلى توسكانا
متى لزم الأمر (١)

وأخذ الجرانديوق فرديناند يبذل ما في وسعه لكي يساعد فخر الدين
ضد الباب العالي تحقيقاً لأغراضه من حيث نشر التجارة وبسط النفوذ
التوسكاني في الشرق الأدنى . ولم تغير وفاة فرديناند في عام ١٦٠٩ شيئاً
من مشروعات توسكانا نحو الشرق ، فان خلفه كوزيمو الثاني (١٦٠٩ -
١٦٢١) سار على نفس النهج . فأرسل سفناً محملة هدايا من البنادق ومعدات
القلاع والمواد المتفجرة وغير ذلك . وأرفق رسالة إلى فخر الدين الثاني
مؤرخة ٢٢ سبتمبر عام ١٦٠٩ يعلن فيها عن رغبته في استمرار الصداقة
مع توسكانا وسورية وتثبيت المعاهدة السابقة . وفي نفس العام أيضاً أرسل
البابا بولس الخامس كتاباً إلى فخر الدين يشكره على اهتمامه بالمسيحيين
خاصة الموارنة . وأرفق البابا بالكتاب هدية إلى الأمير وبسيف إلى الشيخ
يونس حبش . وحمل كل ذلك إلى لبنان سر كيس مطران دمشق . وفي
عام ١٦١١ ، انتدب فخر الدين المطران جرجيس مارون ، أسقف نيقوسيا

(١) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، ج ١/٢٧٧ - ٢٧٨ .

الماروني ومعتمد البطريرك الماروني لدى البابا ، سفيراً له لدى بلاط توسكانا والبابا مكلفاً بإياه بإجراء مفاوضات لعقد معاهدة هدفها تنظيم حملة عسكرية لانتزاع الأراضي المقدسة من الدولة العثمانية (١) . ولما ضايقته الحملة العثمانية بقيادة أحمد باشا الحافظ الأمير فخر الدين في عام ١٦١٣ ، اتجه الأخير إلى توسكانا حيث عرض على كوزيمو مطالب شعبه وأمله في المساعدة فوعده خيراً . ووجد الغرب المسيحي أن التجاء أمير لبنان إلى توسكانا وطلبه مساعدته فرصة ملائمة لتحقيق حملة أوروبية نحو الشرق . فأخذ أصحاب الأحلام من ساسة فلورنسة يعرضون الموضوع على كوزيمو . وأوفد كوزيمو بعثة إلى الشرق لمعرفة أحوال إمارة فخر الدين . وقابلت البعثة ، التي تنكر أفرادها في زى تجار ، الأمير يونس ، وزارت قلاع نيجا والشقيف وبانياس .

وبعد رحيل فخر الدين ، خلفه ابنه على في إمارة الشوف ، وكان يساعده عمه الأمير يونس المعنى . وقد عاد أحمد باشا الحافظ مع قواته إلى دمشق بعد أن أخذ بعض الرهائن من المعنيين ، وفرض عليهم مبلغاً كبيراً من المال . ولم ينقطع العثمانيون عن محاولاتهم لإضعاف قوة المعنيين بعد هرب فخر الدين . وكان هدفهم هدم قلعتي شقيف وبانياس اللتين تحصنت فيهما قوات المعنيين والسكبان المستخدمين لديهم . وكان العثمانيون يرون أن تحقيق هذا الهدف من شأنه القضاء على مراكز المقاومة والحصار المعنية . وقد حضرت إلى دمشق قوة عثمانية بقيادة مؤمن باشا ، حاكم قونية ، وذلك في ٢١ أغسطس عام ١٦١٤ ، لمساعدة أحمد باشا الحافظ في احتلال القلعتين والقضاء على المعنيين ، بعد أن أشيع أن فخر الدين قد عاد من فلورنسة . وقامت القوات العثمانية بحملة على بلاد الشوف أحرقت خلالها كثيراً من القرى . وكان حسين باشا بن يوسف باشا سيفاً يساعده

العثمانيين على قتال المعنيين . وقد عزل أحمد باشا الحافظ عن ولاية الشام في عام ١٦١٤ ، قبل أن يتم له تحقيق هدفه في احتلال قلعتي شقيف وبانياس . وتعايش ولاية الشام من بعده مع علي بن فخر الدين الذي قبل بدفع مال الميرى لهم . وقد صدرت أوامر من استانبول في عام ١٦١٤ بإنشاء ولاية صيدا ، وتتألف من صنجق صيدا (مع بيروت) وصفد ، لإحكام الطوق على المعنيين ، ولكن ليس هناك من دليل آخر على أن هذه الولاية قد وجدت بالفعل في عام ١٦١٤ ، أو أنها استمرت في السنوات التالية . ولم تظهر ولاية صيدا بشكل ثابت حتى عام ١٦٦٠ .

وبينما كانت جهود علي وعمه يونس للحفاظ على كيان الإمارة المعنية تسير بخطى ناجحة ، كانت مفاوضات فخر الدين مع توسكانا تسير في مناهات معقدة . ففي عام ١٦١٤ ، رجعت البعثة التوسكانية من الشام بعد أن درست أحوال إمارة فخر الدين ، وعاد معها أفراد من أتباع الأمير من بينهم الشيخ خطار الخازن الذي بقي معه حتى عودته إلى لبنان عام ١٦١٨ (١) . وقدمت البعثة تقريراً مفصلاً عن حالة الإمارة (٢) . وكان أصحاب الأحلام في توسكانا في ذلك الوقت يهتمون بالأحوال السياسية

(١) يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١/ ٢٩١ - ٢٩٣

Giovanni Mariti, *Voyages dans L'Isle de Chypre, La Syrie et La Palestine avec l'Histoire Generale du Levant*, Traduit de L'Italien, vol. I, Prsis, 1791, pp. 132 — 138.

كان المؤرخ الايطالي ماريتي (١٧٣٦ - ١٨٠٦) مطلعاً على الأوراق والوثائق والمعاهدات التي دارت بين فخر الدين المعني وحكومات الدويلات الايطالية المستقلة ، ولاسيما ما في وثائق فلورنسة الرسمية ، لأنه قيمها وعرف مضمونها . ولذلك فإن كل ما نشره في تاريخه الايطالي عن فخر الدين *Istoria di Faccardino Grand Emir dei Drusi*.

من الوثائق والرسائل موثوق به لاشك فيه .

في سورية ويطمحون إلى إنشاء الدول فيما وراء البحار ، ويدفعهم في ذلك العامل الديني من حيث الرغبة في استرجاع الأراضي المقدسة ، ونقل القبر المقدس من بيت المقدس إلى كنيسة سان لورنس في فلورنسة التي بدأها كوزيمو الأول عام ١٥٦٨ . ولكن كوزيمو الثاني لم يكن يعبأ بمثل هذه الأماني بقدر ما كان يعنيه تقدم توسكانا الاقتصادي والسياسي ، وبرغم أنه لم يعارض هذه الفكرة المنتشرة فإنه أراد أن يتخذ من الشعور والحماس الديني أداة لتحقيق مشروعاته السياسية . ورأى كوزيمو أن يقوم بخطة عملية ، واعترم التدخل بإرسال بعض السفن المسلحة . وقوة حربية مع معداتها من المدفعية ، وهدف بذلك أن يحجز بعض النصر مما يدفع البابا وأسبانيا إلى مساعدته للقيام بحملة مشتركة . ولكن فخر الدين بدأ يتردد ، وقام تردده على عدة بواعث ، فلقد تنازعت عدة عوامل نفسية ، إذ وصلته أخبار عن استقرار أحوال بلاده . وكان يخشى الترك ووقوعه في الأسر ، ويخاف على شعبه عسف العثمانيين . فأخذ كوزيمو يهدئه ويخفف عنه ، واتضح له أنه ليس من المحقق عملياً تنفيذ مشروع الحملة السورية . وانتقل فخر الدين من توسكانا إلى صقلية ، وأبدى رغبة في معرفة أخبار بلاده . فقبل مطلبه وأصدرت الأوامر للقبطان بعدم السماح له بالنزول إلى البر لضمان رجوعه وعودته . واستقل فخر الدين السفن وقصد المياه السورية ، فوصل إلى مكان بين صور والناقورة وتمكن من الاتصال بأهل الشوف . وعرف فخر الدين أخبار إمارته وكيف أن الظروف لم تزل حرجية ، وأن الفرصة لم تسنح بعد لرجوعه وتسلمه مقاليد الامارة (١) .

وعاد فخر الدين إلى توسكانا ، ولكنه شعر أن الإقامة هناك أصبحت لا قيمة لها وأن العودة إلى إمارته خير له ، وأن التفاهم مع السلطان العثماني

(١) عن تلك الزيارة الحاطفة إلى لبنان انظر : عيسى سكندر المفلوف ، - المرجع السابق - .

أكثر حفاظاً له على إمارته من التعاون مع هؤلاء الساسة الأوروبيين . وعندما كان فخر الدين يلح في العودة ، يقال - إن الأسبان عرضوا عليه التنصر ، إذ أخبر حاكم نابولي ناصر الدين ، أحد رفاق الأمير فخر الدين «أن ملك أسبانيا أرسل لنا كتاباً يقول فيه أن كان الأمير فخر الدين يدخل في ديننا نوليّه حكماً أعظم من إمارته ونعطيه أضعاف ما يعطيه له سلطان المسلمين» . وإن كان لا يرضى بذلك فله الخيار أن يقيم في هذه الديار أو يرجع لبلاده - فرجع ناصر الدين وأخبر الأمير بذلك فقال له ارجع واشكر من أفضال الدوقا و السلطان الأسبان وقل لهم اننا لم نأت إلى بلادهم لنطلب حكماً أو نغير ديننا بل جارت علينا الحكام فجئنا لبلادهم نختصم بها ، فإن رضوا بنا أقمنا وإن أرسلونا لبلادنا فهو المراد » (١) . وكان الجرانديوك يمتلكاً في اعطائه الموافقة النهائية حتى هدد فخر الدين بأن ينسف السفينة التي وضع فيها زوجته وأفراد أسرته بالبارود إن لم يصدر الجرانديوك التصريح . وصدرت أخيراً موافقة الجرانديوك ، وكانت اتصالات فخر الدين بالباب العالي قد أثمرت وصدر عنه العفو ، وعاد فخر الدين إلى إمارته في عام ١٦١٨ .

وهناك مجموعة من الأسباب دفعت السلطان العثماني إلى إصدار فرمان العفو عن الأمير فخر الدين ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

(أولاً) لم يكن في استطاعة الدولة العثمانية حكم لبنان حكماً مباشراً ، ومن ثم كانت في حاجة إلى أمير يتولى شؤنه ويتعهد بجمع الميرى منه . ولقد حاولت الدولة العثمانية تدعيم قوة الحزب الإنجي لكن يتفوق على الحزب القيسية ، ولكن الحزب الإنجي فشل في إخضاع القيسية ، بل على العكس أثبتت القيسية أنها أرسخ قديماً وأقدر على الحكم والإدارة في أصعب الظروف

(١) يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ٣٠٢/١ - ٣٠٣

الأمر الذى جعل السلطات العثمانية تنقل رضاها على الحزب اليمنى إلى الحزب القيسى ، وبالتالي أصبح فخر الدين المعنى أقرب إلى الحكومة العثمانية من أى وقت مضى ، خاصة إذا قبل الخضوع للسلطان العثمانى وأعلن ذلك . وكان فخر الدين مستعداً كل الاستعداد - فى ذلك الوقت - لأن يعلن ذلك .

(ثانياً) تمكنت الإمارة المعنية أثناء غياب فخر الدين (١٦١٣-١٦١٨) من أن تقف على قدميها ، ولكن السلطان العثمانى أراد أن ينهى حالة التمرد التى كانت سائدة فى الإمارة ضد الدولة ، وأن يعيد الزعيم القوى إلى إمارته حتى يفرض استقراراً أكثر ثباتاً . وكان من أهداف السياسة العثمانية استقرار هذه المناطق الداخلية .

(ثالثاً) اقتطعت الدولة العثمانية فعلاً أجزاء مهمة من الإمارة المعنية ، مثل وضع اقليم البقاع تحت سيطرة والى دمشق ، واقتطاع السهل الساحلى من الإمارة ، وبذلك يصبح من المتعذر على الأمير فخر الدين الاتصال بالدول الأوروبية .

(رابعاً) كان التغيير فى رجال الحكم فى العاصمة العثمانية عاملاً مهماً فى اتاحة المناخ الملائم لتفهم حقيقة أوضاع الإمارة المعنية ، وإمكانية الافادة من الأمير فخر الدين المعنى بدلاً من مناصبته هو والإمارة المعنية العداء الذى يكلف خزينة الدولة العثمانية .

٤ - عودة فخر الدين وتجدد الصراع مع الدولة العثمانية (١٦١٨-١٦٣٥)

عاد فخر الدين بعد غياب دام خمس سنوات ، فعم السرور البلاد ، وهرع القوم إلى لقائه والترحيب به ، وأخذ ينتقل من عكا إلى صور ثم إلى صيدا . وقدم عليه الأمراء والمشايخ يقدمون له الهدايا . ولكنه رفض هدية ابن سيفا بسبب ما كان بينهما من تنافس ، وبسبب امعان آل سيفا فى احراق ونهب الشوف أثناء حملة أحمد باشا الحافظ ، وقال غاضباً :

نحنا صغار وفي عين العدو كبار
انتوخشب حور نحنا للخشب منشار

وحق طيبة وزمزم والنبي المختار

ما بعمر الدير (١) إلا من حاجر عكار (٢)

وحينما رجع فخر الدين ، وجد إمارته قد عادت إلى النمو والاستقرار من جديد . فاختلال الدولة ومشاكلها العديدة وسرعة تغيير الحكام قد غيرت سياسة العثمانيين نحو آل معن ، وأقنعتهم بضرورة الاستمرار في تعقبهم . ثم إن تطورات الأحداث في سورية نفسها قد أدت أيضاً إلى قيام آل معن بالتوسع لحساب الدولة وبأوامر الباب العالي . فتسلم فخر الدين الإمارة وهي على حال مستقر ، واستأنف نموه الوئيد .

وبدأ فخر الدين يمد نفوذه من جديد على المناطق المجاورة للشوف . فاصطدم بيوسف سيفاً ، وإلى طرابلس . وكان ابن سيفاً يكسر الأموار السلطانية ، فكانت الدولة تعزله عن طرابلس وتنقص من إمارته ، ثم كان يبذل المال فيرجع إلى مقره ، وظل الحال على هذا النحو في السنوات التالية حتى وفاته عام ١٦٢٤ . وكان فخر الدين له بالمرصاد ، فجرد إليه عدة حملات لحساب الدولة العثمانية وتنفيذاً للفرمانات السلطانية . ففي عام ١٦١٨ عين عمر باشا والياً على طرابلس ، فعصى يوسف سيفاً أوامره ولم يدفع الأموال بانتظام . فاستنجد عمر باشا بفخر الدين لإرغام ابن سيفاً على إطاعة الأوامر . وأعد قواته وتقدم شمالاً إلى نهر ابراهيم ثم إلى جبيل ، فحاصر قلعتها ثم أخذ يطوف أنحاء طرابلس وعكار . فلجأ ابن سيفاً إلى قلعة الحصن ، فحاصره فخر الدين فيها . ووصلت إلى فخر الدين امدادات من سلى الشهابي ومن ابن الحرفوش ، ولما اشتد الأمر على ابن سيفاً استنجد

(١) دير القمر

(٢) عيسى اسكندر المفلوف ، المرجع السابق ص ، ١٧٠ - ١٧١ .

ببasha الشام فأجابه ، وانتهى الأمر بدفع ابن سيفا الأموال . ثم دفع فخر الدين أموال السلطنة ، وهو في هذا كله يؤدى الواجب وينفذ الأوامر فأرسلوا يشكرونه على بسالته ، وأعطاه عمر باشا ولاية البترون وجبيل . وبذلك عاد الأمير إلى بيروت ظافراً (١) .

ولكن التنافس بين آل سيفا وآل معن لم يقف عند ذلك الحد ، فسعى ابن سيفا إلى إثارة الدولة العثمانية على فخر الدين . ولكن سرعان ما انقلب رضا الدولة على ابن سيفا ، فصدرت أوامر جديدة لفخر الدين بجمع الأموال من ابن سيفا ، وتقديم فخر الدين في عام ١٦٢٠ لتنفيذ الأوامر من جديد . وطلب من ابن سيفا أن يبيعه أملاكه من مخلفات آل عساف في بيروت وأنطلياس وغزير ، فقبل . وأوهمه أنه بذلك يخفف عنه جميع أموال الدولة كلها ، ولكنه كان في ذلك يخادعه . فلم يلبث فخر الدين بعد أن أخذ تلك المخلفات العسافية أن راح يطالبه بكل المتأخر ، وتقدم لمهاجمة طرابلس ذاتها . وحاصرت قوات فخر الدين القلعة . وطبق فخر الدين ما رآه في الغرب ، فأمر جنده من السكبان بعدم التعرض للأهالي الآمنين بسوء . وطال الحصار والتراشق بالرصاص فهجم فخر الدين بنفسه كالبرق الخاطف وتبعه جنده دفعة واحدة على متاريس جند ابن سيفا . والتجيم الفريقان بالسيف ، وانتهت المعركة بانتصار فخر الدين الذي دخل طرابلس منتصراً . واستعان فخر الدين بسفن فرنسية لحصار ابن سيفا بحراً ومنع الإمداد عنه والحيلولة دون هروبه . وكان ابن سيفا لا يفتأ يبذل وسعه لدى الدولة العثمانية فيشكو ويتذلل ويعد بدفع ما عليه من الأموال . واتهم فخر الدين برغبته في امتلاك طرابلس لنفسه . وأخيراً وصلت إلى طرابلس سفن عثمانية ومعها أوامر سلطانية بوقف هجوم فخر الدين على ابن سيفا وبثبيت الأخير في طرابلس . وامتثل فخر الدين للأوامر وعاد إلى بلاده .

ولقد أدت فوضى الإدارة العثمانية وعزل وتولية الحكام إلى استمرار الصراع على باشوية طرابلس . فعاد عمر باشا من استانبول واليا على طرابلس ومعه أحكام بمساعدة فخر الدين في تنفيذ الأوامر . فأعد فخر الدين قواته من جديد واضطر يوسف سيفا للخروج من طرابلس إلى عكار . غير أن الأوامر نقضت وعاد يوسف سيفا إلى طرابلس . ولكن فخر الدين نال رضا الدولة العثمانية لما أظهره في كل هذه المرات العديدة المتتالية من التفاني في خدمة الدولة ، وتمكن بما بذله من أموال من أن يحصل على نابلس لكتخذاه ، وعلى عجلون لابنه حسين . واستمر عزل ابن سيفا وتولية عمر باشا بدون انقطاع . واستمر فخر الدين أيضاً في تنفيذ الأوامر حينما تصدر إليه ، وفي الكف عن ابن سيفا في الوقت الذي تطلب منه الدولة ذلك.

وهكذا اتسع نفوذ فخر الدين لدرجة أن حاكم دمشق طلب منه أن يقدم إعانة مالية للحج . وفي مقابل ذلك اشترط فخر الدين أن يكون أمير الحج السوري أحد أبنائه أو وكلائه . وأدى توسع فخر الدين إلى وقوع صدام بينه وبين بونس الحرفوش ، أمير البقاع ، الذي خشى توسعه بعد أن كان حليفاً له ؛ فهزمه فخر الدين في معركة وقعت في البقاع في عام ١٦٢٢ ، واستولى ، أثر ذلك ، على موقع قب إلياس الاستراتيجي الذي يسيطر على طريق دمشق - بيروت . وقد أثار بونس الحرفوش والى الشام ، مصطفى باشا ، ضد فخر الدين . ومن ناحية أخرى ، لم يوافق مصطفى باشا على وضع البقاع تحت سيطرة فخر الدين المباشرة ، حتى لا تكون الخطوة التالية للأمير المعنى هي مهاجمة دمشق نفسها ، لاسيما وأنه قد سبق له أن أقدم على هذه الخطوة الخطيرة . ولما طالب فخر الدين إمارة الحج له - نتيجة للأموال الكثيرة التي قدمها لولاية دمشق للانفاق على سلامة الحجاج - وعد مصطفى باشا كيوان بأن يحقق للأمير هذه الرغبة ، ولكن ما إن حصل الباشا على الأموال حتى نكث بعهده رغم

احتجاجات كيوان القوية (١) . واستعد الوالى عسكرياً لمحاربة فخر الدين الذى تنهياً هو الآخر لمنازلته . وكانت الفرصة مواتية لأن يوجه الأمير فخر الدين ضربته إلى والى دمشق . حقيقة أن يونس الحرفوش ويوسف سيفاً قد وضعاً امكانياتهما فى خدمة والى دمشق ، الا أن ذلك لم يغير من حقيقة تفوق القوة المعنية . وقد استعد الطرفان للمعركة ، وعبرت قوات والى دمشق البلاد إلى مجدل عنجر عام ١٦٢٣ (٢) ، حيث دارت المعركة التى رفعت فخر الدين إلى ذروة القوة . فأسر فخر الدين مصطفى باشا ثم أطلق سراحه (٣) . وأصدر الباشا أوامره باعطاء فخر الدين غزاة وملحقاتها ، وبتقرير صفد ونابلس وعجلون لأبنائه وكتخذاه ، ثم عاد الباشا إلى دمشق .

وبعد موقعة عنجر حصل فخر الدين على مكاسب جديدة ، إذ لم يعش يوسف سيفاً طويلاً ، فتوفى فى عام ١٦٢٤ منهوك القوى مهيبض الجناح سياسياً ومالياً وكان شيخاً طاعناً فى السن . وتولى ابنه قاسم حكم طرابلس ، وبعد ذلك بسبعة أشهر تقريباً انقض فخر الدين على طرابلس واحتلها ، وأخذها لابنه حسين وعين عليها نائباً من قبله . وفى نفس السنة اعترف رسمياً فى مرسوم سلطانى بسيطرة فخر الدين على لبنان والمناطق المجاورة ، ولقد دفع فخر الدين مبالغ طائلة فى سبيل الحصول على المرسوم الذى اكتسب بمقتضاه لقب «سلطان البر» (٤) ، وعين حاكماً على عربستان وتمتد من حدود حلب إلى حدود القدس ، مع الانتظام فى دفع الأموال السلطانية وقدرها ٢٠٠,٠٠٠ ذهباً . وهكذا بلغت إمارة فخر الدين أقصى حدود الاتساع ، وتضاءل أمامه نفوذ الباشوات العثمانيين ، وأصبحت إمارته خطراً يهدد كيان الامبراطورية العثمانية فى الشرق العربى . ولكن

(١) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٢) تقع عنجر فى البقاع العزى على طريق دمشق وواى التيم واسمها القديم خلقيس أو كلشيس ، وهى كلمة يونانية بمعنى «مدينة النحاس» ، وسمها المصريون «مات نحاس» .

(٣) يوسف مزر ، المرجع السابق ، ج ١/٣١١ - ٣١٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

الدولة العثمانية كانت مضطرة إلى قبول الحالة الراهنة نظراً لاضطراباتهما الداخلية ومشاغلهما الخارجية ، إلا أنها كانت تترقب الفرصة للقضاء على هذه القوة الناشئة . وكان يحكم الامبراطورية العثمانية في تلك الفترة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) وكان على عكس سابقه من السلاطين ، يمتاز بالشدة والمقدرة الحربية ، فحاول انقاذ الامبراطورية من الانحلال ، وقضى على فتن الانكشارية ، ووجه عنايته إلى الثورات الداخلية (١) .

ولقد أثار استفحال نفوذ فخر الدين خشيته جيرانه من الباشوات العثمانيين ، ومن أمراء العرب . فأخذوا يدسون عليه لدى السلطان مراد الرابع ، وأرسلوا ضده الشكايات لكي يحملوا السلطان على البطش به . فوجهوا ضد الأمير طائفة من التهم الخطيرة التي يكفي كل منها لاعتباره عاصياً للدولة . فذكروا أنه لا يحترم الدين الاسلامي ، وأنه لا يصوم رمضان ولا يقيم الصلاة ، وأنه يحمي المسيحيين على حساب المسلمين ، وأنه يسمح للبعثات المسيحية بإقامة الكنائس والأديرة وأنه حليف لدوق توسكانا ، وأنه قد أنشأ قنصلية تجارية لتوسكانا في صيدا ، وأنه يسمح لفرسان مالطة بالنزول في بلاده ، وأنه يدأب على تحصين قلاعه (٢) . وعلى هذا ، اعتمز السلطان على أن يقضى على هذا الخطر ، فأصدر أوامره إلى أحمد الكجك (أى أحمد الصغير) ، باشا الشام (٣) بأن يكون سرداراً على الجيش الموجه ضد فخر الدين ، وانضم إليه قوات آل سيف وآل طرباي .

E. Creasy, *op. cit.*, pp. 246 — 257.

(١)

(٢) عيسى اسكندر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣) كان الكجك أحمد زعيم المتأمرين والمحرض الأكبر على فخر الدين . فلقد اتصل الكجك في أول نشأته بالأمير فخر الدين ، قرب في كنفه ، واعتنى به حتى رقاة إلى رتبة البلوكباشية . ثم ولاء جباية الأموال الأميرية في وادي التيم . ولما أنجز عمله قصد الأمير في بيروت ، ويبدو أنه طلب منه منصباً أو مالاً ، فلم يستجب الأمير لطلبه بل نهه وأهانته ، فحقن الكجك عليه وأنكر احسانه وذهب إلى استانبول ودخل في خدمة الدولة وساعده الحظ حتى استوزر وتولى ولاية الشام في عامي ١٦٢٩ و ١٦٣٢ . (انظر : يوسف مزهر ، المرجع السابق، ج ١/ ٢٢٤) .

ثم خرج من استانبول أسطول عثماني لمحاصرة فخر الدين ببحراً . إلا أن هذا الأسطول قد عطل تقدمه تصادمه مع بعض السفن الانجليزية المحملة بالتمح إلى ليفورنو ، واشتبك الفريقان ، وألغم الانجليز مستودع البارود فأصابت النيران قطع الأسطول العثماني . واقتضى اصلاح العطب تأخير وصول الأسطول العثماني إلى المياه السورية (١) . وأخيراً وصلت العمارة العثمانية بعد أن انضمت إليها وحدات من رودس وقبرص في أغسطس عام ١٦٣٣ ، ثم تقدمت قوات دمشق . وهكذا أحاط الأعداء بفخر الدين من جميع الجهات . فعقد مجلساً في دير القمر ، ورأى مستشاروه وجوب المفاوضة في الصلح ودفع الأموال والرشاوى . وحاول فخر الدين أن يستميل القبطان باشا ، فقدم له الهدايا ، وذكر له أنه لم يجمع قواته ضد السلطان ، بل ضد ظلم الباشوات . وضد أعدائه من العرب ، وأنه على استعداد لتسريح قواته في الجبل . وأكد له الطاعة والولاء للدولة العثمانية . ولكن الأوامر السلطانية كانت صريحة في وجوب القضاء على فخر الدين وإمارته .

وإزاء ذلك اضطر فخر الدين إلى إرسال قوة بقيادة الأمير على لكي تحول دون اتصال باشا الشام بآل فريخ وآل طرباي . فتقدم على والتقى بالقوات العثمانية قرب صفد في عام ١٦٣٣ ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب بعد أن تكبد الفريقان خسائر جسيمة . ولما أشيع مقتل على ، اضطر فخر الدين إلى التراجع بقواته من الدروز والموارنة إلى قلاعه ، ولكنه سرعان ما تبين له اشاعة مقتل الأمير على فنشط من جديد ، وفي تلك الأثناء جرت مفاوضات للصلح بين الطرفين . وتم الاتفاق مبدئياً على وقف القتال وعلى تولية منصور بن فخر الدين على الإمارة المعنية مع دفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ قرش . وقام فخر الدين بوفاء هذه الشروط فأرسل ابنه منصور ومعه هدايا ، ثم أرسل الأموال مع الشيخ أبي خطار الماروني . ولكن الباشا لم يكده يستقبل رسل فخر الدين حتى قبض على منصور ، وقتل أبا خطار . وفي

E. Roger, *La Terre Sainte*, Paris, 1646, p. 305.

(١)

نفس الوقت أغرض القبطان باشا عن مساعي الأمير لاستمائه إليه ، وأخذ يجد في تنفيذ الأوامر ، فاستولى على صيدا ، وأسقط بيروت وأجرى النهب والإتلاف في قصور الأمير . ثم هاجم موارنة كسروان ، فأخذ غزير والبترون . وفي وقت قصير ، أصبح الناطق الفينيقي كله في يد الدولة العثمانية . ووصلت امدادات عثمانية وتوغلت في إمارة فخر الدين . ولم يقو المعنيون على مقاومة الجموع العثمانية ، وتم الاستيلاء على صفد وسقطت بعلبك . وبلغ الأمير فخر الدين موت ابنه على وأخيه يونس ، فأسقط في يده وفقد شجاعته ، وتفرقت قواته ، واضطر كثير من الدروز إلى التسليم لباشا الشام ، فاتخذ منهم حاميات في صيدا وبيروت . وتراجع الموارنة إلى الجبال هرباً من العنف والاعتداء . ولما حل الشتاء كف أحمد باشا عن التقدم ، وعاد الأسطول العثماني إلى استانبول .

وفي تلك الأثناء حاول فخر الدين انتقاذ الموقف على يد الغرب المسيحي ؛ فاتصل بالبابا أوربان الثامن وبفرديناند الثاني ، وعرض عليهما مشروع معاهدة لارسال حملة صليبية لانتقاذ الأراضي المقدسة . وتولى هذه المهمة المطران جرجس بن مارون (الإهلني) - مطران قبرص - الذي كان محل ثقة فخر الدين المعني . فأسند إليه الأخير مهمة التفاوض مع البابا وجراندوق توسكانا من أجل عقد ذلك التحالف الكبير . واتفق فخر الدين مع جرجس مارون حول الخطوط الرئيسية للمعاهدة المقترحة ، ويبدو أن صياغة مشروع هذه المعاهدة كان من وضع جرجس مارون . وقد جاء في مشروع المعاهدة «ان سعادة أمير صيدا قد حمله حبه الشديد للديانة المسيحية وبغضه المغروس ضد الشيعة الحمادية على الرغبة في أن يتحد مع قداستكم وجراندوق توسكانا برباط غير منحل وباتفاق . وسلم دائماً...» واشتملت الشروط الواردة في مشروع المعاهدة على ما يلي :

١ - أن يمد الجيش المسيحي بالرجال والموئن كل مرة ترسل قداستكم وشمو جراندوق توسكانا عسكرياً لأخذ قبرص والمقدس .

٢ — أن يعطى العسكر المسيحي ميناء واحدة أو أكثر لكي يمكنه أن يلجأ إليها وقت الحرب .

٣ — يعد أن يملكهم بيت القدس ويمد لهم دائماً يد العون والمساعدة وقت مباشرة التعاهد والسلام .

٤ — يعد أن يسمح لجميع مرووسيه أن يعتنقوا الإيمان الكاثوليكي وهو يكون أول من ينادى به مسيحياً ويجعل عائلته أن تتعمد .

٥ — لأجل هذه الغاية قد شاد عدة كنائس للمسيحيين ورمم كنائس أخرى على نفقته وقد أمر بطريرك الطائفة المارونية الأنطاكي وسائر الأساقفة وروساء الأساقفة أن يعملوا نفس عمله .

٦ — يعد أيضاً أن يرعى حرمة الولاية الكنائسية في كل مملكته ويعفى جميع الاكليريكيين والكنائس وأملاكها من كل الرسومات الجمركية والبرية وغيرها من الرسومات والضرائب المعتاد وضعها على أى كان من العلمانيين .

٧ — يعد أن لا يقبل عهداً أو معاهدة أو عقداً معروضاً عليه من السلطان أو من وزرائه قبل أن يعلم بذلك قداستكم وسموه ويسير بمقتضى حكمكم .

٨ — يعد أن يعطى رهناً لقداستكم ولسعادتكم بحسب رغبتكم لأجل المحافظة على الأمور المذكورة أعلاه .

٩ — يعد أن يجعل باقى أمراء العرب أن يبرموا عهداً مع الجيش المسيحي وهذا سهل عليهم بسبب القرابة والزواج المعقود ما بينهم والريح العظيم الذى يحصلون عليه من الاتحاد المار ذكره .

وبعكس ذلك فان أمير صيدا يرغب من قداستكم البند المسطرة أدناه :

١ - أن تأخذ قداستكم وغراندوق توسكانا عمارة بحرية مؤلفة على القليل من خمسين بارجة جزيرة قبرس . وهذا يكون سهلاً لديكم لقلة الأتراك الموجودين ثم في الجزيرة ولتفاقم جورهم وظلمهم ولعظم الخوف واليأس وبسبب سقط (أى ضعف) أسلحة السلطان البحرية وقوة جيش الأمراء المسيحيين والمساعدات والامداد من رجال وخیل والمؤن التى يقدمها سعادة الأمير بوقتها والآن هى مجهزة على جيش المسيحي . غير أن السلطان لا يمكنه أن يعضد بوقته الجزيرة المذكورة ضد الجيش المسيحي لأن سعادة الأمير وملك العجم (أى شاه فارس) يثيران عليه حرباً فى سورية ويقدمون عليه غيرهما أمراء كثيرين من مرووسيه .

٢ - أن تتكرم قداستكم وسموه بارسال مهندسين ورجال خبرين فى (فن) الحروب و(انشاء) المعامل .

٣ - بأن تعطوه مدافع وباروداً وكللاً (١) لمقاومة العدو التى لا توجد فى الشرق .

٤ - أن تحافظ دائماً قداستكم وسموه على السلم والمعاهدة وتعطى لأجل المحافظة عليها وعلى سائر العهود والشروط رهناً لسعادة الأمير . وتعد قداستكم وسموه لدى نشوب الحرب أن تعضدوا بحراً سعادة الأمير المذكور كما أن سعادة الأمير نفسه يعد ويوجب على نفسه أن يمد الجيش المسيحي برأ وبحراً بجميع المساعدات النافعة والضرورية (٢).

واستمرت الاتصالات بين المطران جرجس والبابا وتوسكانا فترة من الزمن بذل خلالها المطران جهوداً كبيرة لتنفيذ المعاهدة ، ولكن مشاغل الغرب المسيحي قد حالت دون تنفيذها . وعلى ذلك ترك فخر الدين وحيداً من جميع الجهات ، وبدلاً من أن تأتیه نجدات الغرب ، إذ بالأسطول

(١) قتابل .

(٢) عبد العزيز نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ، ص ٧٤ - ٧٨ .

العثماني يقترب ثانية من المياه السورية . وهاجم أحمد باشا الامارة المعنية من جديد ، فتقدمت قواته وأسقطت قب إلياس . وأفلت فخر الدين إلى مغارة في جزين وسط الجبل (١) فتعقبه الترك واستعصى عليهم الوصول اليه . وأخيراً عرض عليه القبطان باشا رغبة السلطان في رؤيته ، وأنه سينال العفو إن استجاب وكانت هذه هي النهاية المحتمة . وأرسل الأمير فخر الدين مع أولاده منصور وحيدر وبلك إلى استانبول ، ونقل معه بغلين محملين ذهباً وفضة وهدايا نفيسة . فلما وصل فخر الدين إلى استانبول قابل السلطان مراد . فأثبه على أفعاله ، ولكن المعنى اعتذر له بقوله : « اننى مظلوم فما جمعت الرجال الا بأمر الوزراء والنواب ، ولم ابن القلاع إلا للدفاع عن حوزة البلاد ، وما قتلت إلا الذين مرقوا من طاعة الدولة فاستوليت على حصونهم لأسلمها إلى الحكومة العثمانية وأمنت طريق الحجاج بمنع العرب عن التعدى عليهم . وأديت الأموال الأميرية بأوقاتها وأيدت الشريعة الشريفة محافظاً على قوانينها وسننها .. » (٢) فاستخلصه السلطان وتأكد تحامل الولاة عليه ولاسيما الكجك وكثرة الوشايات بحقه .

ولم يكن من المستبعد أن يستبقيه السلطان وأن يتخذ كمشير له ، الا أن رجال البلاط خشوا استفحال نفوذه فأخذوا يبدسون عليه ، وتكررت الشكاوى بأنه تنصر وأنه كان يعصد النصارى . فاستدعاه السلطان وسأله هل له إخوة وأولاد ؟ فاعتقد فخر الدين أن السلطان يريد أن يحول الحكم إلى أخيه أو إلى أحد أولاده . فأنكر عليه الحقيقة وأقسم بالله وبرأس السلطان « انه ليس له من أخوة ولا أولاد » . وكان السلطان يريد أن يعيده إلى منصبه ضناً بموته وعدم قيام من خلفه في ولايته : فأمر بإطلاق سراحه . وبينما كان فخر الدين يتأهب للعودة إلى بلاده وإدارة شئونها إذا بنساء مسلمات قادمات من ثغور سورية حاملات ثياب أزواجهن وأولادهن المخضبة بالدماء ، فثخن أمام السلطان مولولات : وفلن له : « ان الأمير ملحقا ابن

(١) عيسى اسكندر الملووف ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

الأمير يونس شقيق الأمير فخر الدين بعد أن رجع من مخبئه عند آل طربية في عجلون جمع رجاله القيسيين ونهب مدن بيزوت وصيدا وصور وعكا وقتل مدبر الكجك وفنك بالسكان فتكاً ذريعاً حتى أنه لم يبق ولم يذر وهم عازم على محاصرة دمشق وذلك انتقاماً لعمه فخر الدين الذي وقع في أيدي الحكومة» (١). فأوغر ذلك العمل الفظيع صدر السلطان واستقدم فخر الدين ونهره على قسمه الكاذب «على أنه لا إخوة له ولا أولاد» ، وكان أيضاً قد عرف أنه استصحب أولاده معه إلى العاصمة ، فاتهمه بالخيانة وصدق كل ما قيل له عند الواشين به ولا سيما عن تنصره ومعاذته للأفرنج . ويقال ان الجند بحثوا في ثيابه فوجدوا فيها شعار المسيحية من مثل صليب أو نحوه (٢) فأمر السلطان بقتله مع بعض أولاده عام ١٦٣٥ ، وحملوا

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٢) يردد بعض الكتاب أن فخر الدين قد اعتنق المسيحية إذ كانت تربطه صداقة مع الآباء النكبوئين في صيدا وخاصة مع أحدهم الأب أدريان دي لا بروس (Adrien de la Brosse) الذي حدثه عدة مرات عن أمور الدين المسيحي بغية حمله على اعتناقه . وأبدى الأمير تجاوبه ، ولكنه ظل يؤجل العهد إلى أن مرض مرضاً خطيراً في عام ١٦٣٣ . وفي أثناء مرضه استدعى الأب أدريان المذكور الذي علمه ما يتعلق بالخلاص الأبدى . وظل الأمير متردداً ووعد الراهب المذكور بأنه سيفكر ملياً في الأمر . «وفي الغد أعاد الأب أدريان الكرة ، فأجابته الأمير أنه مشتاق إلى اعتناق الدين المسيحي منذ زمن طويل ، ولكن الخوف من الدولة العثمانية كان يحول دون اظهار هذا الشوق واخراجه إلى حيز التنفيذ .. ثم طلب إلى الأب أدريان أن يحلف له ويده على الإنجيل بأن يكتم الأمر (عماد فخر الدين وتنصره) عن أي كان ، وأكد له أنه مستعد لاجراء كل ما يراه الأب مناسباً لمجد الله وخلاص نفسه . فعمده الأب ودعاه «لويس فرانسوا» وتلا الأمير قانون الايمان طالباً إلى الأب أن يزيده معرفة بأسرار يسوع المسيح طوال مرضه .. وبما أن الأمير أراد أن يقتصر أولاده الآخرون .. فانه وضع بتصرف الأب أدريان كمية من الحجارة الثمينة والمال المودع في البنك في أوروبا واعدا بأن تخصص أولاده .. بأكثر من مليون قرش ذهبي ليتمكن هؤلاء الأولاد من الانتقال إلى أوروبا عن طريق فرسان مالطة ليتربوا في بلاد النصرانية على الدين المسيحي . ولكن عارض هذا الأمر أبو نادر الخازن وحال دون تنفيذه » . (الأب بطرس ضو ، تاريخ الموارنة ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩) . ولكن عيسى اسكندر المعلوف (ص ٢١٦) يشكك في هذه الرواية لكثرة أقوال المؤرخين من أفرنج وعرب بشأن تنصر الأمير وبناته مع أولاده .

رأسه على حربه ، وطافوا به في شوارع استانبول وعلى رأسه الكتابة الآتية : «هنا رأس الأمير فخر الدين العدو الناصر» .

على كل حال ، لم تكن نهاية فخر الدين المعني الثاني نهاية لحكم المعنيين في جبل لبنان ، إذ بقي هؤلاء يحكمون حتى عام ١٦٩٧ . ولكن مما لا شك فيه أن القضاء على فخر الدين قد أضعف أسرته كثيراً ، وأضعف بالتالي إمارة جبل لبنان . وقد أدى القضاء على فخر الدين إلى حدوث شبه فراغ سياسي في جبل لبنان وفلسطين ، ولم يستطع أي أمير محلي أن يملأ هذا الفراغ إلى أن سيطر ظاهر العمر الزيداني في القرن الثامن عشر على فلسطين ، وطغى بنفوذه على أمراء جبل لبنان والولاة العثمانيين . واعترف العثمانيون ، بعد القضاء على فخر الدين ، بالأمير على علم الدين ، من الحزب اليمني ، أميراً على الشوف ، وبالتالي على جبل لبنان . وكان الأمير على هذا قد ساعد العثمانيين ضد عدوه فخر الدين الذي تزعم الحزب القيسية . ولكن الأمير ملحقاً بالمعني ، الذي خلف عمه فخر الدين ، لجأ إلى الشهابيين في وادي التيم ، فساعده مع القيسية الذين تكتلوا لطرد اليمني ، واستعاد مركزه أميراً على الشوف وعلى جبل لبنان في عام ١٦٣٥ . واستمر العثمانيون . يؤيدون آل علم الدين ، زعماء اليمنية ، ضد المعنيين لإضعافهم . وظلت المشاحنات مستمرة طوال القرن السابع عشر بين المعنيين الذين أيدهم الشهابيون الأقوياء في وادي التيم وبين آل علم الدين الذين أيدهم ولاية دمشق . ومما لا شك فيه أن السلطة التي بلغها فخر الدين قد زادت من أهمية منصب أمير الشوف . ولكن خلفاء فخر الدين المباشرين لم يستطيعوا ،

سوري أنه لا يمكن القطع في ذلك» إلا إذا تواترت الشهادات وثبت القول وصحت الروايات . أما الخالدي الصفدي ، مؤرخ فخر الدين ، فيذكر (ص ١٢١) . أنه كان مطيعاً لله وللسلطان ، حريصاً على إقامة شائر الإسلام أثناء إقامته في الغرب . (انظر ص ٢٥ من البحث) ويبدو أن فخر الدين ، في علاقته مع الغرب ، كان يحاول أن يستميل إليه الرأي العام المسيحي بإعلانه عن استعداده للتحويل إلى المسيحية . (انظر المادة ٤ من مشروع المعاهدة بينه وبين البابا أوربان الثاني في نوفمبر عام ١٦٣٤) .

نظراً للظروف المحيطة بهم ، بلوغ المستوى نفسه من النفوذ إلى أن تولى إمارة جبل لبنان الأمير بشير الشهابي الثاني (١٧٨٨ - ١٨٤١) . ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال ، أن الأمير فخر الدين لم يهدف من حروبه ضد الدولة العثمانية «قومية لبنانية» ، وكياناً لبنانياً ، وحدوداً لبنانية» كما يتصور البعض . فلم تتوصل مدارك ذلك العصر إلى هذه المبادئ الحديثة . كما أن أمراء لبنان لم يتميزوا قط عن سائر الولايات المحيطة بهم إلا بقدر ما يتميز به زعماء البادية عن زعماء الحاضرة ، وحكام السهل الموطن عن حكام الجبل المرتفع .

the first of these is the fact that the
the second is the fact that the
the third is the fact that the
the fourth is the fact that the
the fifth is the fact that the
the sixth is the fact that the
the seventh is the fact that the
the eighth is the fact that the
the ninth is the fact that the
the tenth is the fact that the

ملحق (١)

- مشروع معاهدة على باشا جنبلاط مع أمير توسكانا والبابا وأسبانيا (١)

بايردى على جنبلاط ١٠١٥ (٢)

باسم الله العلى العظيم .

هذا ختم اسرة جامبولات السامية الشرف وختمنا الخاص نحن على جامبولات أمير مملكة سوريا وحاميا لأن أغلبها خاضع بأذن الله لسلطاننا .

ان صاحب السمو غراندوق توسكانا قد أوفد الينا سفيراً الفارس ميخائيل قريع من أعيان حلب . فسلمنا كتاباً منه ارتحنا إلى مضمونه الارتياح كله لأننا لمسنا فيه رغبة سموه في ان يعقد معنا عهد صداقة كاملة . ونحن نعلم ان رغبتنا في هذه الصداقة لا تقل عن رغبة سموه .

ولهذا السبب نتقبل بكل سرور صداقته المتينة . واثيقن ان يقبل بدوره صداقتنا الغير المتزعزعة التى نقدمها له مع رباط المحبة الخالدة ، آمليين أن تفتح هذه الصداقة للفريقين باب فوائد جزيلة . لأن السيد ميخائيل قريع وعدنا باسم سموه أن يحمل صاحب الغبطة البابا بولس الخامس نائب الرب على الأرض للمسيحيين وجلالة ملك اسبانيا وغيرهما من أمراء النصرانية وملوكها على أن يولونا أيضاً صداقتهم وينضموا إلى هذه المحالفة الرامية إلى كسر شوكة الامبراطورية العثمانية وتعزيز بيت جنبلاط وعلى الأخص شخصنا .

(١) بولس قرالى ، على باشا جنبلاط ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٣٩ ، ص ٢٤-٣٤ .

(٢) ١٦٠٧ م .

ولبلوغ هذه الغاية نعهدهم بأن نقوم بكل فتح يطلبونه منا مهما كان صعب
المنال ، ونعاهدكم بأن نرحف على أورشلیم المدينة المقدسة وان نقاتل كل
من يجسر على الوقوف أمامنا ونبذل كل الجهد للاستيلاء عليها ، واثقين
من النجاح بأذن الله . ونعاهدكم أيضاً على مباشرة هذه الحملة حالما يتوصل
سمو الغراندوق إلى حمل الكرسي الرسولي وملك اسبانيا على توقيع عهد
الصدقة والمخالفة معنا ، وتقديم ما يلزم لها من الذخائر والمؤن ، حسب
الشروط التي وضعناها لهذه الغاية .

(ثالثاً) فتح القدس - ونترك تدبير الأمر لفطنة سمو غراندوق
توسكانا ومروءته . ولا يخفى عليه أن المهمة التي تبذلها للقيام بهذه الحملة
والتغلب على الصعوبات التي تعترضها تزداد على قدر المساعدات التي
يتلقاها . فنكرر القول انه حالما يعلمنا سموه بقبول العاهلين المذكورين
التحالف معنا ، ونسلم صورة أصلية من المعاهدة موهورة بتوقيعكما ،
وتصل في الوقت عينه الذخائر التي طلبناها إلى احد المرافئ في مملكتنا حيث
نضع نظاماً وافياً لتسلمها ولرسو الأغربة والمراكب التي تقلها ، نقوم
بدورنا بالرحف على أورشلیم بدون تأخير ، حتى تبلغ بشائر فتوحاتنا
إلى بلاد النصرانية بأتررب وقت .

ولكي يثق الأمراء المذكورون من جهودنا ومن رغبتنا الخالصة في
خضد شوكة هذا العدو القدير ، وان أمكن كسرهما ، نعهدهم بتخصيص
احدى أساكلنا (١) لاغربتهم ومراكبهم ، حسب الاتفاق الذي نعقده
سابقاً مع سمو الغراندوق ، وان نقدم لهم جميع التسهيلات والخدمات التي
يتطلبونها منا لهذا الغرض . وبما أن أول حملة نقوم بها ستكون موجهة
إلى أورشلیم المدينة المقدسة ، نعاهدكم على أن نرأسها بشخصنا . وأملنا

(١) الفرد (اسكلة) ، أى ميناء .

وطيد بالله أن نستولى عليها . ونحن نبدى منذ الآن رغبتنا في أن يسكنها بأمان جميع المسيحيين ويمارسوا فيها بحرية تامة شعائر ديانتهم الكاثوليكية . وللراغبين من بلاد النصرانية أن يهاجروا اليها الحق في استيطانها . وإذا نشب بينهم خلاف يكون مرجعهم القنصل التوسكاني أو وكيله المقيم في حلب .

إذا قصد المسيحيون إلى المدينة المقدسة ، ليس التوسكانيون فحسب ، بل جميع الخاضعين لسلطة صاحب الغبطة البابا بولس الخامس ، سواء جاءوا لزيارة قبر يسوع المسيح مخلصهم والههم أو سائر الأماكن المقدسة أو لغرض آخر ، يعفون في دخولهم وخروجهم من كل الرسوم والضرائب التي تعودوا أن يؤدوها في عهد الدولة العثمانية التي كانت تملك هذه الأماكن بدون استحقاق ، لأن سفير الغراندوق وعدنا باسمه ان يعوض علينا بدلا من هذه الرسوم سنوى تتفق عليه مع سموه .

(رابعاً) امتيازات تجارية — وبما أن هذه المخالفة يجب أن تعود بالفائدة على الطرفين ، باطلاق حرية التجارة في الاساكل والمدن الخاضعة لسلطاننا ، حسب اصول المعاملات التجارية ، نأمر أن تلحق البنود الآتي بيانها بالشروط المدونة أعلاه التي صادقنا عليها واقسمنا بالمحافظة عليها .

لما كان صاحب السمو غراندوق توسكانا اول من سعى من الامراء الأوروبيين إلى صداقتنا ومحالفتنا ، فقد خولنا الامة التوسكانية ، وخاصة الفلورنتية ، الحق في تعيين قناصل في مدن مملكتنا ، يرجع اليهم سائر رعايا الدول الداخلة في الحلف ، سواء كان في الشؤون التجارية او غيرها ، كما سيلي شرحه ، الا اذا كان رأى سموه غير ذلك .

ولجميع الرعايا الفلورنتيين والتوسكانيين الخاضعين لسمو الغراندوق الحق بأن يدخلوا بمراكبهم أيا كان نوعها ، اساكل مملكتنا ، وان يسافروا منها ، وان يتجولوا اينما شاءوا في المدن والأراضي الخاضعة لنا ، ويتعاطوا كل أصناف البضائع وأنواع التجارة ، وان يعقلدوا العقود في اسواقنا

حسب الاتفاق بينهم وبين تجارنا ، وان يبيعوا ويستردوا بأمان. والامة
الفلورنتية الافضلية على غيرها من الأمم الخاضعة لسموه .

لسفراء سموه غير العاديين الموفدين اليها ، ولقناصل الأمة الفلورنتية
ووكلائهم وتراجتهم وكتبهم ، أن يدخلوا جميع الأماكن الواقعة في مملكتنا ،
وأن يخرجوا منها ويسكنوها بطمأنينة ، دون أن يجسر أحد على ازعاجهم ،
بل نرغب أن يلاقوا من الجميع الرعاية والمساعدة في احتياجاتهم .

على جميع الرعايا الخاضعين للملوك والأمراء المسيحيين المتحالفين معنا
أن يرجعوا إلى قنصل الامة الفلورنتية المقيم في حلب في كل الخلافات التي
قد تنشأ بينهم سواء كان لاسباب تجارية أو غير تجارية ، مدنية ام جزائية.
وليس لهم أن يلجأوا إلى غير محاكم افرنجية ام وطنية . والاحكام الصادرة
من هذه المحكمة غير قابلة الاستئناف ومخولة كامل السلطة التنفيذية .

مراعاة للصدقة التي ارتبطنا بها مع سمو الغراندوق ، نمنح كل الفلورنتين
الذين يتعاطون التجارة في اراضينا حق شراء البضائع الممنوعة أو المهربة ،
وشحنها على مراكب سموه او على اى مركب آخر دون أن يتعارضهم احد.

اذا قبل تجارنا النقود التي يجلبها او يستجلبها الفلورنتيون من بلادهم
فلا يحق لامناء خزنتنا او للذين يضربون العملة العثمانية او الجمبلاطية ان
يحجزوها بحجة احتكارهم ضرب العملة .

ولا يجوز ايضاً حجز البضائع الخاصة باعدادنا اذا كانت مشحونة
بالاجر على مراكب سموه أو على مراكب الفلورنتيين . هذه هي ارادتنا.

ولا يجوز أيضاً فرض رسوم اضافية على البضائع التي يجلبها الفلورنتيون
إلى اساكلنا ومرافئنا او التي يصدرونها منها بحجة تخمينها بأسعار تزيد عن
الأسعار الموضوعه سابقاً على مثل هذه البضائع .

على جميع التجار الذين يشحنون بضائع على مراكب فلورنتية ، أو يتاجرون تحت راية سمو الغراندوق ، ان يدفعوا رسوم القنصلية الى سفير سموه او الى وكيله او الى اى موظف يعينه لهذه الغاية ، اذا ارتكب أحد الرعايا الفلورنتين جريمة القتل او جناية ما او اختلف مع احد مواظنيه على امر ما ، فليسفروهم او لقنصلهم ان يحكم فيها بحسب شرائعهم ، ولا يحق لاحد من موظفينا التعرض لشؤونهم .

لا يجوز سجن القناصل الفلورنتين المعينين فى اساكل مملكتنا للسهر على راحة التجار ، ولا وضع الاختام على منازلهم . واذا رفعت عليهم دعوى او طولبوا بمال فليس للقاضى او الصوباشى او الكاخية او غيرهم من الموظفين العسكريين او المدنيين الحق فى ملاحقتهم بل برفع أمرهم الى حضرتنا رأساً او الى ديواننا العام .

ناذن للقناصل الفلورنتين ولرعاياهم ان يشيدوا لهم كنيسة فى حلب حيث يوافقهم بعد الاتفاق مع المالك . ونوصى رعايانا بان يسهلوا عليهم اقامة هذه الكنيسة حسب امنيتهم ، وتعين رهبان من ذويهم يتولون خدمتها حسب شرائعهم وطقوس المذهب الكاثوليكي ، دون ان يجسر احد على معارضتهم او مضايقتهم . ونرخص ايضاً للفلورنتين أن يشتروا او ان يستأجروا او يبنوا لهم منازل لسكنائهم ومخازن ودكاكين لبضائعهم .

لما كان سمو الغراندوق قد اظهر لنا صداقة عظيمة وسعى وراءها بواسطة سفيره ، وسبق الجميع فى ما عرضه علينا من السعى فى تعزيز بيتنا وحمل سائر ملوك النصرانية وامرائها على الارتباط معنا بالصدقة ، نرغب ان يكون لسفرائه وقناصله وكلائهم ، اذا قصدوا الى قصرنا او الى قصور قاضينا وكاخيتنا وكبار موظفى دولتنا ، حق التقدم على غيرهم من سفراء وقناصل الدول المتحالفة معنا المقيمين لدينا ، وعلى بقية السفراء او القناصل المقيمين فى حلب ، الا اذا شاء سمو الغراندوق خلاف ذلك .

إذا شاء سفير غراندوق توسكانا أو قنصله أو وكيله من رعايا الامة الفلورنتية الخروج الى المدينة ليمثل في حضرتنا أو لاي داع آخر أو الخروج خارج المدينة لاشغاله ونزهاته ، فله الحق هو ورفيقه من الامة ذاتها والحارس الوطني الذي يرافقهما أن يمتطوا الجياد دون ان يعترضهم أو يزعمهم أحد (١) .

للفلورنتيين القادمين بالبضائع على مراكبهم الى اساكل مملكتنا ومرافئها ملء الحق في دخولها والخروج منها والتجول في أراضيها بأمان . وإذا قذفهم العاصفة واحتاجوا الى مساعدة فليمد رعايانا لهم يد المعونة . وليكن لقباطينهم وخدمة مراكبهم الاحترام والرعاية ، وليقدم لهم من ملهم كل ما يحتاجون اليه من زاد وخلافه .

وإذا ارتطم مركبهم بصخر وغرق يعاد اليهم كل ما امكن تخليصه من البضائع والاسباب والاموال . وعلى الحكام وغيرهم من الموظفين ان لا يتعارضوهم بل يساعدهم في احتياجاتهم ، ويخولوهم حرية الذهاب والاياب والاقامة بأمان الا اذا ارتكبوا ما يشين الآداب العامة .

ليس للمحافظين والقواد والجنود التابعين لنا ولا لاحد من رعايانا ان يتعرضوا للتراجمة الفلورنتيين واتباعهم القادمين الى بلادنا بجرأاً أو برأاً للبيع والشراء اذا سدّدوا رسوم القنصلية حسب العوائد .

إذا كان احد الفلورنتيين مثقلاً بدين فلا يطلب الدين الا منه او من ضامنه . ويشمل هذا الامتياز جميع رعايا سمو الغراندوق . اما مرجعهم فالقنصلية التوسكانية .

إذا توفي احد الفلورنتيين أو التوسكانيين أو غيرهم من الواضعين انفسهم تحت لواء توسكانا ، نرغب الى جميع ما مورينا ونامرهم بان يمتنعوا

(١) لم يكن للمسيحيين الحق في ركوب الخيل .

عن التعرض لامسأبه وأمواله ، بل يسلموها إلى ورثته طبقاً لوصيته الأخيرة . وان مات بلا وصية فلينقلوها بحضور قنصله ورضاه الى دار احد مواطنيه دون أن يتعارضوهم بشيء او يتداخلوا بامورهم .

على الفلورنتيين وقناصلهم وتراجتهم وجميع التابعين لهم ان يسجلوا عقود البيع والشراء وسائر المعاملات التجارية لدى قاضى العدل . واذا دعى عليهم احد بدين ما ، فلا ينظر فى دعواه الا اذا كان عقد الدين مسجلاً فى سجلات محاكنا . وان جاءوا بشهود زور لاتسمع شهاداتهم ، بل العمدة فقط على العقود المسجلة أمام قضائنا ، والا رفضت الدعوى . وحذار من مخالفة أصول الشرع .

على الحكام أن يحذروا من المكائد التى تكاد على الفلورنتيين لتلصق بهم تهمة السب والشتم توصلا إلى مضايقتهم وابتزاز اموالهم . فلا يسمح ان يمسوا بسوء ، ولا يكثرث للشكاوى التى تقدم عليهم لهذا الغرض .

اذا كان احد الفلورنتيين مديناً بمال او ارتكب جنابة وهرب لا يلاحق سوى الذين ضمنوه او شاركوه فى الجنابة . لا يجبر الفلورنتيون واتباعهم من المشتغلين بالتجارة او الصناعة على دفع الضرائب وسائر الرسوم سواء كانوا مزوجين او غير مزوجين .

لا يجسرن احد على معارضة تعيين القناصل الفلورنتيين فى اساكلنا او استبدالهم بغيرهم أو الادعاء بالحلول مكانهم .

واذا وقع خلاف بين الفلورنتيين فليسفير توسكانا او قنصلها الحق فى فض هذا الخلاف حسب شرائعهم وانظمتهم دون ان يتعارضهم احد من مامورينا .

ولما كنا قد وافقنا على كل البنود المذكورة اعلاه البالغة الثلاثين ووافق عليها سفير سمو غراندوق توسكانا الذى ارتاح اليها الارتياح كله ، واكد لنا

ارتياح سموه اليها ، فقد راينا ان نمهرها بتوقيعنا ، وتختمها بخاتمنا الخاص .
وسينديلها أيضاً السيد ميخائيل قريع سفير سموه بتوقيعه وتوقيع كاتبه اسرازه
السيد جرجى كروجر بعد ان شرحت له . وقد وعدنا السفير المذكور
ان يقدم لنا نسخة مطابقة لهذا العقد ممهورة بتوقيع سموه غراندوق توسكانا
وخاتمه ، اكراءاً لنا وتوثيقاً لعرى الصداقة والمحالفة التى ارتبطنا بها معه .

توكلت على الله

العبد عل

ملحق (٢)

الإمارة المعينة

(١) فخر الدين الأول (توفي ١٥٤٤)

|

(٢) قرقمراز (١٥٤٤ - ١٥٨٥)

|

(٣) فخر الدين الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥)

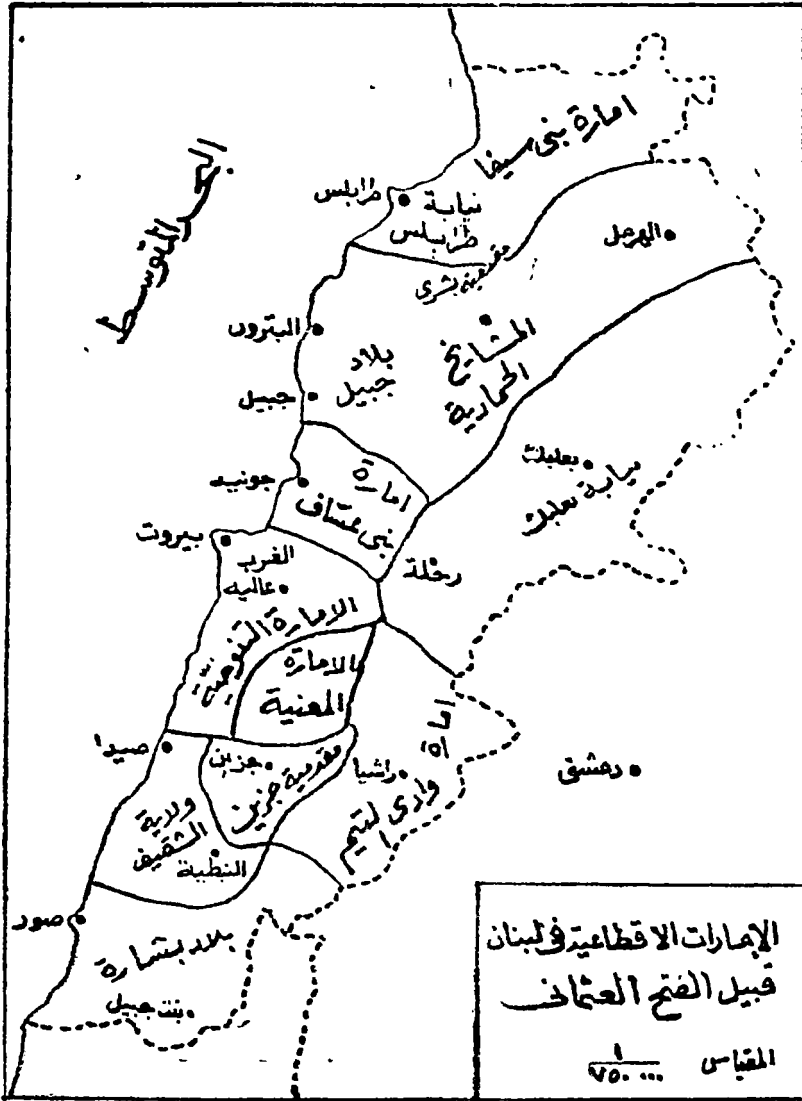
يونس

|

(٤) ملحم (١٦٣٥ - ١٦٥٧)

|

(٥) أحمد (توفي ١٦٩٧)



الولادة المقدسة

ودورها في أحقية العرش في مصر القديمة

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم

مدرس تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

تعتبر الولادة المقدسة من الظواهر الأساسية التي تضمنتها المفاهيم المصرية القديمة . وفي الإمكان معالجة هذه الظاهرة من زاويتين رئيسيتين : الأولى ، هل كانت الولادة المقدسة هي الأساس لتولى العرش ؟ أم كان الشرط اللازم لتولى العرش هو أن يكون الشخص من أم تجرى في عروقها الدماء الملكية نقية تماماً ؟ وإذا لم يتوفر هذا الشرط ، فيجب أن يتزوج من سيدة من الأسرة المالكة . ولا شك أنه كانت هناك من الأسباب التي جعلت هذا الشرط يتحكم في إجلال الملك على العرش . والنقطة الثانية ، هل الولادة المقدسة أو لعل الأحسن تسميتها (الولادة من الإله) كانت لازمة على أساس النبوءة عندما ينتفى الشرط الأصلي وهو انتماء الملك إلى أم ملكية أو زواجه من سيدة ملكية ؟

وفي هذا المجال ينبغي دراسة بعض جوانب الإنتاج الحضارى في مصر القديمة المتعلق بهذا الجانب . فبالنسبة لنشأة الحضارة المصرية القديمة ، يلزم القول بأن الإنسان المصرى القديم قد شارك في صنع الأصول الأولى للحضارة الإنسانية في كافة مجالاتها سواء المادية منها أو المعنوية . وقد بدأ هذا الدور في مرحلة إنتاج الطعام حيث تمكن من التوصل إلى الزراعة وبناء القرى . ثم استمر في تأدية هذا الدور حتى وصل إلى مرحلة النضوج في نهاية عصر ما قبل التاريخ . ولقد استلزم نجاح الإنسان المصرى القديم في هذا

الاتجاه وضع بعض المبادئ اللازمة لتنظيم مجتمعه في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويصعب على المؤرخ التعرف على نوع التنظيم السياسي المبكر في هذه المجتمعات الأولية في مرحلة العصر الحجري الحديث . وذلك لعدم وجود أدلة مكتوبة تبين تفاصيل هذا النوع من التنظيم . ولكنه يلاحظ أن بعض الآثار التي عثر عليها في موقع حلوان العمرى - وهى من حضارات العصر الحجري الحديث - تلقى بعض الضوء التاريخى على المجال السياسى فى ذلك العصر المبكر . فقد عثر على هيكل عظمى وبحوار يده صولجان يرمز للحاكم مما يعبر بوضوح عن حقيقة وجود مظهر أولى للرئاسة . فوجود رئيس يستلزم بالتالى وجود مرؤوسين (١) .

وقد تطور التنظيم السياسى فى عصر ما قبل الأسرات حيث وصل إلى مرحلة تواجد الكيانات الصغيرة المتعددة المستقلة بحدودها وعواصمها وحكامها وآلها ورموزها الخاصة بها . وكان يقوم على رأس تلك الكيانات حكام ترتبط زعامتهم بمظاهر الطبيعة ، فاذا مرض الحاكم أو تقدمت به السن فسوف يؤثر ذلك على مظاهر الطبيعة ، فيقل المطر وتضعف الماشية ويقل المحصول . وإذا ما تغير هذا الزعيم فإن صفات الحاكم الجديد وهو عادة يكون كشاب ملء بالنشاط والفاعلية ، فيعم الخير فى هذه الحالة . وربما كانت هذه أولى الخطوات نحو قدسية الزعامة ولكنها لم تبلغ مرحلة التأليه فى تلك المرحلة المبكرة .

ولم ينفرد المجتمع المصرى القديم بظاهرة الارتباط بين الحكام وبين بعض القوى الإلهية حيث أن كل المجتمعات الأولية قد أخذت بهذه العقيدة ولعل عقيدة الطوطمية Totemism كظاهرة اجتماعية فى المجتمعات البدائية تعتبر دليلا على أن الإنسان الأول قد فرض على نفسه عقيدة تربط بين الحاكم وبين قوى الطبيعة .

(١) ر. الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٦ .

فقد كانت مصر في عهودها الأولى تتكون من جماعات تربط بعضها عن طريق انتسابها لطوطم يتخذ من النبات أو الحيوان ، يعتقدون أنه أصلهم فينخذونه رمزاً يدل عليهم . فالطوطمية في حقيقة مفهومها كانت تعني عبادة الأسلاف من غير البشر ، والقبائل الأولية كان لها تفكير خاص بتصل بالآلهة والعبادات ويختلف كثيراً عما تعرفه الديانات ، ذلك لأن ما يعتقدون به لم يكن ديناً وإنما عبادة لقوى أو مظاهر مختلفة .

وبعد التطور الرتيب ، انعكس هذا الاعتقاد بدوره على القوى الإلهية . ولقد استقر الرأي استناداً إلى دلائل مختلفة على التفرقة بين بدايات هذه الآلهة وبين الطواطم (١) إذ أن لهذه الكلمة مفهوماً واضحاً عند علماء الاجتماع . وربما كانت هذه الآلهة في بدايتها معبودات قبلية للجماعات بشرية متعددة مستقرة هي التي كونت فيما بعد المجتمع المصري القديم . ولم تكن الشعارات التي اتخذتها الأقاليم الإدارية في مصر فيما بعد سوى امتداد للرموز المقدسة لتلك الوحدات من أشجار وحيوانات . وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار بعض الرموز مثل سوت Swt (شعار مملكة مصر العليا) ، والنحلة Bity (شعار مملكة مصر السفلى) (٢) من الطواطم التي يمكن التذليل على وجودها في إقليم مصر في العصور المبكرة . ولقد أثبت علماء الآثار وجود فروق في درجة التطور الحضاري في هذين الإقليمين إذ كانت السيادة الحضارية في أول الأمر للشمال .

وفي المجال الديني ، تتبع الإله حور من إله مصر السفلى منافسة ست إله مصر العليا ، مما يمكن اعتباره دليلاً على محاولة تحقيق الوحدة الشمالية بين الشمال والجنوب والتي اعتبر أن الشمال قد بادر إليها . وبالرغم من أن هذا

(١) ج . يويوت : مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢ .

(٢) Gardiner, A., Egyptian Grammar Being an Introduction to the study of Hieroglyphs, London, 1969, p. 73.

التوحيد الأول لا يعرف عنه الكثير سوى حدوثه ، الا أن البلاد عادت مرة أخرى وانقسمت إلى مملكتين متنافستين على رأس كل منهما ملك من خدام حورس ، وهم ملوك يضعهم المصريون القدماء في مصاف أنصاف الآلهة . وكانت عاصمة الشمال توجد غرب الدلتا ويضع قائدها على رأسه تاجاً أحمر هو الشعار والزينة التي تتخذها الإلهة نيت ربة سايس (صا - الحجر) والإلهة الثعبان واجت ربة مدينة بوتو (تل الفراعين) . واتخذ ملوك الجنوب التاج الأبيض شعار الإلهة العقاب نخت سيدة مدينة نخن . ولم يلبث ملوك الجنوب أن استولوا على مملكة بوتو في الألف الثالث ق . م . وقد ورث ملوك الأسرات الأولى قوى فوق الطبيعة كانت تعزى في الأزمنة السحيقة إلى رؤساء القبائل النيلية . وكان انتسابهم الطوطمي للإله حورس ، واتخاذ التاج والصولجان وطقوس التتويج وحفلات اليوبيل الدورية ، كان كل ذلك يزودهم بقوة سحرية لازمة للمحافظة والإبقاء على كيان المجتمع . وبفضل هذا الامتياز الأدبي ، عرفوا كيف يخضعون مواطنيهم خضوعاً مباشراً للملك حيث كانت تلك المفاهيم في مخيلتهم أثناء مرحلة تطور الطوطمية إلى القدسية . ولقد ساعدت على قدسية هؤلاء الزعماء بعض المظاهر مثل الرموز التي جعلت من يقبض عليها زعيماً أو ملكاً ، سواء كان ذلك التاج الأبيض أو التاج الأحمر أو عصا الرئاسة . وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ، نشأت بعض المظاهر الأخرى التي ساعدت على تأكيد القدسية التي كانت تضافى على هؤلاء الحكام مثل انتساب الملك إلى شمشو حور ، مما كان يكفي لإعطاء حق الجلوس على العرش . ولقد كانت هذه الحقيقة الأساسية في العقيدة المصرية القديمة أساساً لفكرة الملكية الإلهية . وكانت الطقوس الدينية تؤكد أن ملك مصر كان يعتبر تجسيداً للإله حورس منذ الأسرة الأولى . وربما كانت تلك الظاهرة تدعو إلى الاعتقاد بأن حورس قد تجسد منذ فجر التاريخ في زعيم محلي ، واستطاع هذا الزعيم أن يقهر منافسيه ويصبح ملكاً على مصر المتحدة . وهكذا اعتبر حورس ملكاً اسطورياً بعد قيام الوحدة السياسية ، وانعكس هذا الحق على كل من يجلس على عرش.

ويستلزم دراسة موضوع الولادة المقدسة ودورها في أحقية العرش في مصر القديمة تحليلاً لتسلسل بعض الأسرات المصرية ولزوجاتهم . وتنبغي الإشارة إلى أن معظم ملوك الأسرتين الأولى والثانية كانوا يتزوجون من أميرات من الشمال ، ثم تبع ذلك مرحلة بدأنا نستشعر فيها أهمية انتساب الملك إلى أم ملكية . فبالنسبة للخورنرخت زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، فيرجح بعض المؤرخين (٢) أنه قد فاز بالعرش عن طريق أمه في ماعت حب التي ورد اسمها مكتوباً على بعض الأختام التي عثر عليها في بيت خلاف (٣) وذلك على أساس أن هذه السيدة كانت أولاً زوجة لملك مصر السفلى ، وأنها أنجبت من هذا الملك ابنها زوسر ، وأن زوجها قد لقي مصرعه خلال معاركه مع خع سخوى ملك الجنوب الذي تزوجها بعد انتصاراته على زوجها المقتول (٤) . ونتيجة لهذا أصبحت في ماعت حب ملكة مصر العليا والسفلى ، واستطاعت أن تورث ابنها زوسر الحق الشرعي ليجلس على عرش الجنوب وأن يؤسس أسرة ملكية جديدة . وبذلك أصبح زوسر لأول مرة يحوى في شخصه الصفة الإلهية عن طريق بنوته لملك الشمال وبنوته للأم الملكية واستطاع زوسر بهذا أن يحكم مصر بعد الارتفاع بنفسه إلى مصاف الآلهة (٥) . ومنذ ذلك الوقت أصبح الملك المصري القديم يؤله . ويعتبر بذلك تجسيداً للإله حور . وتحقيقاً لعقيدة

(١) ص. ن. كريم : أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف وعبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٨ .

Frankfort, H., Kingship and the Gods, A Study of Ancient Near Eastern Religion as the Integration of Society and Nature, Chicago, 1969, p. 40.

(٢) أ. دريوتون ، ج. فاندنييه : مصر ترجمة عباس بيومي وراجعة محمد شفيق غربال وعبد الحميد البواخلي ، طبعة أولى ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٩٠ .

(٣) Sethe, K., Urkunden Des Alten Reiches, I, Leipzig, 1932, p. 4. L. 9.

Breasted, J.H., A History of Egypt, London, 1935., p. 111. (٤)

(٥) أ. دريوتون ، ج. فاندنييه : المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

الملكية الإلهية ، أضفى الملوك على نظام حياتهم الصفات الإلهية وذلك بربط مظاهر حياتهم بالآلهة بغرض تعزيز الصفة الإلهية للحكم الملكى وتأكيداً لانتسابهم لعالم الآلهة .

أما فيما يتعلق بالملك سنفر ، فقد تزوج من الأميرة حنب حرس - ومن المحتمل جداً أنها ابنة الملك حوى ، وهى الأميرة التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش ، وبذلك أصبح مركزه شرعياً فى البلاد . ولو أن بعض المؤرخين يتشككون فى صلته بحوى آخر ملوك الأسرة الثالثة ويريدون أن يرزا بينها إحدى صلات القرى (١) .

ولئن كان نسب الملك الإلهى رمزياً فى أوائل الأسرات ، فإن بعض من لم يكن من حقهم تولى العرش فى مصر قد خرجوا على الشعب بنبوة من الكهنة لتقنع الإنسان المصرى القديم فى أصلهم المقدس وذلك بغرض الوصول إلى العرش . ومن ذلك نذكر تلك الأسطورة التى عثر عليها مكتوبة على بردية تعرف باسم وستكار (٢) وتنسب إلى الإله رع إنجاب أبناء يتنبأ لهم باعلاء العرش وهم الملوك الثلاثة الأول للأسرة الخامسة . وعلى ذلك فإن تلك البردية قد أوردت بعض التفاصيل عن المولد الإلهى حيث جاء فى أحد الفقرات ان الأطفال الثلاثة هم أبناء من صلب الإله رع ، وفى فقرة أخرى أن رع هو أبوهم ، وعلى أن الإلهات المساعدات فى عمليات الولادة (٣)

Fakhary, A., The Mounments of Sneferu at Dahshur, Vol. 1, (١) 1959, pp. 15 — 23.

Erman, A., Die Maerchen Des Papyrus Iescat, 2 Vols, Berlin, (٢) 1890.

—————, The Literature of the Ancient Egyptians (Translated by Blackman, A.M., London, 1927, p. 36.

Blackman, A.M., „Notices of Recent Publications”. (in) JEA., (٣) Vol., x, London, 1924, p. 169.”

هن الإلهات «حقت» التي عجلت عملية الوضع ، و«إيزيس» التي كانت تنطق باسم كل مولود بعد ولادته ، و«مسخت» التي كانت تعلن ممارسته الملكية لحظة ولادته و«خنوم» الذي كان يمنح جسده الصحة . ويمكن اعتبار قصة المولد الإلهي لأبناء الإله رع الثلاثة لها مغزاها التاريخي ، فهي محاولة نسجها الفكر الديني الهليوبوليتاني حول كهنة الإله رع لتجعل منهم أبناء لهذا الإله ليكتسبوا بذلك شرعية وحقاً إلهياً في الحكم . وهكذا يكون ملوك الأسرة الخامسة قد اضطروا إلى اللجوء إلى الولادة الإلهية في حين لم يحدث هذا مع أى ملك من ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة .

ولقد تلى ذلك مرحلة في التاريخ المصرى القديم لم تصبح فيها ظاهرة الولادة الإلهية وحدها وسيلة الوصول إلى العرش ، إذ كان الإله أيضاً يصور بصورة الجالس على العرش . وقد اعتبرت نساء الأسرة الثامنة عشرة أنفسهن أزواج آمون وكاهناته منذ عصر الملكة إياح حوتب واعتبار الملوك من أبنائهن حكام شرعيين من ورثة آمون إله طيبة . وقد عثر على أثر (١) بين أنقاض الكرنك يرجع إلى عهد الملك أحمس نقش عليه وصية خاصة بالبيت المالك ويظهر فيها الفرعون سقنرع ممسكاً بصبي يدعى أحمس ويتقدم به لآمون بقربان من الخبز الأبيض . ويستدل من دراسة هذا الأثر على أن الفرعون كان يقدم ابنه لآمون . وتبدو من ألقاب الصبي ما يصوره ابناً لآمون وأنه يطلب السماح من آمون أن يعهد إليه بولايته على العرش . وقد صورت أم الصبي وهى الملكة أحمس نفرتارى على نفس الأثر باعتبارها من زوجات آمون . ويتضمن الأثر تنصيب الملكة الكاهنة لآمون مما يدل على أن الملكة كانت تشغل وظيفة دينية في معبد آمون . ويبدو أن هذا التقليد قد توارثه أحمس عن سقنرع الذى كان له نفس الحق ، واحتفظ به لزوجته إياح حوتب . وكانت وظيفة الكاهن لآمون لها شعورتها في تلك المرحلة ،

(١) أ . بدوى : في موكب الشمس ، الجزء الثانى في تاريخ مصر الفرعونية من آخر

اللفصحى إلى أول الأسيل ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٣٧٦ .

وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة على أوقاف معبد آمون وكهنته وصناع كنوزه ..

ويبدو ان تحوتمس الثالث وهو صبي صغير قد صورت له نبوءة من الإله آمون لتولى العرش ، فكان ملزماً أن يجلس على العرش ومعه حتشبسوت .. وتشير لوحة المهندس المعماري انبى (١) إلى ذلك . يقول النص «ان تحوتمس الثانى قد لحق بالرفيق الأعلى بعد أن جعل مكانه ولده تحوتمس (يقصد تحوتمس الثالث) ملكاً على الأرضين . فعدا سلطاناً على عرش من أنجبه . غير أن اخته (يقصد اخت تحوتمس الثانى) الزوجة الإلهية حتشبسوت قد اضطلعت بإدارة شئون البلاد ..» (لأنها «البذرة الملكية» التى خرجت من الآلة يقصد آمون صاحب العرش المقدس) .

ونجد أن حتشبسوت قد اعتمدت فى تبرير ارتقاؤها للعرش على جهود كهنة آمون الذين أوحوا اليها بتصوير قصة مولدها الإلهى . ونرى على جدران معبد الدير البحرى وفى مباني معبد الكرنك ، النقوش التى تسجل قصة مولدها الإلهى . وتظهر على نقوش أحد جدران معبد الدير البحرى ما يشير إلى الإله آمون وهو يعلن أمره إلى الآلة بإنجاب حتشبسوت .. «إننى سأضخم لها التطرين .. الأحياء أحمين ، انى سأمنحها كل البلاد ...» (٢) .

ونرى فى منظر آخر ، الإله «حقث» وهى تقف أمام منظر الإله «خنوم» ومنظر آخر لطفلين متشابهين يمثلان حتشبسوت . ونقرأ فى النقوش «لقد جئت إليك لأصورك أحمل من جميع الآلة .. لقد منحتك لتعتلى عرش حور مثل رع .. هذا طبقاً لأوامر أبيك آمون رع الذى يحبك ..» . ولقد كانت الخلافات حول أحقية تولى العرش بعد موت تحوتمس الثانى من أكثر الموضوعات التى اهتم بدراستها الباحثون وعلى رأسهم كورت

Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt, Vol. 11, (١)

«Chicago, 1906, P. 341.

Naville, E., The Temple of Deir El Bahari, Part II, London, 1896, (٢)

pp. 46.

زيتته (١) وإدجرتون (٢) . فما أن ولي تحوتمس الثالث العرش حتى خرج على الناس بقصة اختياره الإلهي التي سبقت الإشارة إليها . وقد صورت مناظر هذه القصة على جدران الكرنك (٣) وتصور هذه القصة تحوتمس الثالث وهو طفل في معبد آمون ، والإله آمون في زورقه يبحث عنه . وعندما يجده آمون يتجه إليه ويأخذ بيده إلى قدس الأقداس حيث يجلسه على عرش الشمس ، ويتوجه بتاج الوادي ويجعل الدنيا تحت قدميه .

ولم ينفرد تحوتمس الثالث بمثل هذا التصوير ، وإنما فعل ذلك أمنحوتب الثالث . فعندما ولي العرش واطمأن إلى توطيد أركان حكمه تحيز إلى كهنة آمون وخاصة وأنه شعر بمحاولتهم استغلال نسبة إلى أم أجنبية وهي «موت أم وبا» ابنة الملك الميتاني فاستجاب للكهنة على الفور وشيد معبداً ضخماً لآمون في طيبة . فرد الكهنة على هذا الجميل وأعلنوا على الشعب مولده الإلهي . وقد سجل أمنحوتب الثالث قصة مولده الإلهي في نقوش معبد الأقصر وهي تشبه إلى حد كبير قصة المولد الإلهي للملكة حتشبسوت حيث هدف من وراء قصة مولده الإلهي إلى التغلب على نقطة ضعفه ألا وهي أنه كانت تجري في عروقه دماء غير مصرية . ويستدل من هذه القصة أن طريق أمنحوتب الثالث إلى العرش لم يكن سهلاً ، وأنه لجأ إلى تلك النبوة حتى يقنع الناس بأحقية في العرش . ولقد دفع كهنة آمون إلى إخراج هذه القصة كراهيتهم لتحوتمس الرابع الذي كان قد انحاز إلى العقيدة الآتونية . ولقد ترتب على ذلك إنكار كهنة آمون لعهد ، فما أن اطمأنوا إلى موقف أمنحوتب الثالث ، حتى كتبوا له تلك الأسطورة لإظهار حقه في العرش من ناحية ، وليحرموا منافسيه من أبناء تحوتمس الرابع من العرش من ناحية أخرى .

(١) Sethe, K., Die Thronwirren unter den nachfolgern konigs Thou- tmosis 1, Untersuchungen 1, Berlin, 1896, pp. 1 — 58.

—————, Das Hatshepsut-problem noch einmal untersucht (Abhandlungen-Preuss-Akad. d. Wissenschaften, Berlin, 1932.

(٢) Edgerton, W.F., The Thutmosid Succession (Studies in Ancient Oriental Civilization : Publications of the Chicago Oriental Institute), 1933.

(٣) أ . بدوي : المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .



العلاقات المصرية — اللبنانية

فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٤٠

الدكتور عمر عبد العزيز عمر

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر ظهور شخصيات كان لها تأثير على مسار الأحداث في المشرق العربي . فلقد عاصر الأمير بشير الشهابي الثاني (١٧٨٨ — ١٨٤٠) ، أمير لبنان ، فترة حكم محمد علي في مصر (١٨٠٥ — ١٨٤٨) ، وتوطدت بين الاثنين علاقة متينة ظهرت نتائجها خلال الحملة المصرية على بلاد الشام . وكان لكل منهما مشاكله الداخلية وأطاعه الشخصية التي انعكست علاقاتهما بالدولة العثمانية منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر. وحاول الأمير بشير الثاني — عندما تراكت عليه المشاكل الداخلية — أن يستفيد من قوة محمد علي وأن يطلب منه الدعم لما كان له من تأثير ونفوذ كبيرين في الدولة العثمانية . ولقد أسفرت وساطة محمد علي في العشرينات من القرن التاسع عشر عن إصلاح ذات البين بين الأمير بشير الثاني والدولة العثمانية . ويهدف هذا البحث إلى كشف النقاب عن بداية العلاقة بين محمد علي — مؤسس النهضة الحديثة في مصر — والأمير بشير الشهابي الثاني وأسبابها وتطورها إلى أن تم فرض السيادة المصرية على كل بلاد الشام لمدة تسع سنوات متوالية . ويناقش هذا البحث ، كذلك التجربة المصرية في بلاد الشام ، وموقف اللبنانيين من الحكم المصري ، ودور الأمير بشير الثاني الذي تحالف مع محمد علي وكان عوناً له بشكل واضح .

بعد وفاة الأمير أحمد المعنى في عام ١٦٩٧ ، انتقل الحكم في لبنان إلى الأسرة الشهابية (١) لصلة النسب بين الأسرتين . وظل لبنان ، حتى أواخر القرن الثامن عشر ، يخضع لسيطرة ولاية عكا . فبعد هزيمة ضاهر العمر في عام ١٧٧٥ ، عين العثمانيون على ولاية صيدا المغامر البشناقي أحمد الجزار ، الذى اتخذ من عكا مقراً له ، وأصبح الشخصية المسيطرة على بلاد الشام حتى وفاته في عام ١٨٠٤ . وعزم الجزار على وضع جبل لبنان تحت سيادته ، فعزل بيروت عن جبل لبنان ، وعهد إلى اضعاف الأمير يوسف شهاب (١٧٧٠ - ١٧٨٨) بتحريض أخويه وأنسابه عليه . وتدخل أيضاً في النزاع بين الأحزاب في لبنان ، فأيد الجنبلاطيين ضد اليزيكيين (٢) وشجع دسائسهم ضد الأمير يوسف . وهكذا ساءت أحوال الإمارة اللبنانية بعد عام ١٧٧٨ ، إذثار بعض الأمراء الشهابيين ضد الأمير يوسف وطالبوه بالإمارة في السنوات العشرة التالية ، وكان يؤيدهم في ذلك أحمد الجزار والجنبلاطيون . وبحلول عام ١٧٨٨ ، سادت البلاد حرب أهلية تسنى فيها للجزار ان يهاجم الأمير يوسف ، الذى هزم وفقد كرسى الإمارة ، ولقى حتفه شتقاً في عكا . وعين الجزار نسيبه بشير الشهابي ، النصراني المولد ، خلفاً له ، وعرف ببشير الثاني . وأصبح بشير الشهابي الثاني ، بتأييد الجزار والجنبلاطيين الدروز ، أميراً على لبنان . وهكذا تضافرت القوى الداخلية والخارجية على رفعه إلى كرسى السلطة . وكان من العسير على الأمير بشير الثاني ، بعد عام ١٧٩٨ ، ألا يقحم لبنان في المسألة الشرقية . فلم تترك أحوال بلاد الشام والسلطنة العثمانية وتدخل أوروبا المباشر في لبنان ، لم تترك له حرية التصرف . كذلك أجبرت الأوضاع الاقطاعية أمير لبنان على أن يتحالف مع قوى خارجية تمكنه من التغلب على خصومه في الداخل . ولعل حاكماً آخر غير الأمير بشير كان يترك الأمور تجري كيفما اتفق ، متكللاً على الأقدار . أما بشير فأراد ، بسبب طموحه ، أن يجعل من الإمارة اللبنانية عنصراً فعالاً في الشؤون الإقليمية والدولية ، فحالف قوى وابتعد عن أخرى . وأظهر مهارة في تسيير دفة الأمور ، فاحتفظ

لنفسه بإمارة لبنان اثنتين وخمسين عاماً ، وهي مدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذه الإمارة . لكن التزاماته وارتباطاته الخارجية أدت في النهاية إلى سقوطه ، وإلى انهيار الإمارة وإغراق لبنان في الفوضى والتفلاق (٣) .

وكان واضحاً أن يد الجزائر هي التي رفعت بشير الثاني إلى إمارة لبنان ، لكن الأمير الجديد بدأ يشعر بضغط عكسا حالما استتب له الأمر في دير القمر . غير أن احتلال نابليون بونابرت لمصر عام ١٧٩٨ . ثم زحفه على فلسطين ، قد أراح بشير الثاني إلى حين من اهتمام الجزائر . وعندما حاصر الفرنسيون عكا في عام ١٧٩٩ . طلب الجزائر من الأمير بشير مساعدته . لكنه اعتذر . كما اعتذر بشير عن مساعدة نابليون بونابرت رغم وعوده المتكررة بتحقيق «استقلال الأمة الدرزية» (٤) . ولقد أثار اقتراب الحملة الفرنسية من لبنان التوتر بين المواردنة . أصدقاء فرنسا ، والدروز ، غير أن بشيراً حرص على تهدئة خواطر الدروز بالاعتذار عن مساعدة الفرنسيين . وهكذا أثر ألا يتعرض لثأر الجزائر إذا باءت الحملة الفرنسية بالفشل . ولكن الجزائر المنتصر أرى أن يغفر له ذلك . وصمم على الاقتصاص منه . ففي السنوات الأربع التالية بلغ تدخله في شؤون لبنان ذروته . ووقع لبنان في حالة من الفوضى والاضطراب . وبلغ عدد الشهابيين الذين أقامهم الجزائر على كرسى الإمارة . لناوأة الأمير بشير ، خمسة . ولما تبين بشير الثاني أنه لا يمكنه الدفاع عن مركزه في لبنان ، فر إلى قبرص في عام ١٨٠٠ على إحدى بوارج السير سدن سميث ، قائد الأسطول البريطاني في شرق البحر المتوسط . وبعد غياب دام عدة أشهر . عاد بشير الثاني إلى لبنان ، وبقي تحت رحمة الجزائر حتى توفي هذا الأخير في عام ١٨٠٤ .

وأحدثت وفاة أحمد الجزائر فراغاً كان على بشير الثاني أن يملأه . ووجد بشير الثاني نفسه طليقاً فأخذ في سحق أعدائه في الداخل ، وفي تركيز السلطة في يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها . وفيما بين عامي ١٨٠٤ و ١٨١٩ ،

قدر لبشير الثاني أن يصير سيد لبنان المطلق ، وأن يقف في طليعة أنصار العثمانيين في بلاد الشام . وتحالف مع سليمان باشا ، والى عكا الجديد ، وتمتع بمأزرته طوال السنوات الخمس عشرة التي تلت . وعندما وثق من قوة مركزه في لبنان ، قام بمساعدة العثمانيين في مناطق أخرى . ففي عام ١٨١٠ ، غزا الوهابيون سورية واستولوا على دمشق ونهبوها . وبدلاً من أن يصد حكام الشام قوى الوهابيين تلبية لأوامر الدولة العثمانية نجد بعض هؤلاء الحكام يأخذون بتعاليم الوهابيين (٥) مثل يوسف كنج ، والى دمشق . ونتيجة لذلك تحالف سليمان باشا ، والى صيدا ، مع بشير الشهابي ضد يوسف كنج ووضع خطة لطرده من دمشق . وأسند الباب العالي باشوية دمشق سرّاً إلى سليمان باشا ، وترك له الطريقة التي يراها مناسبة لوضع نفسه في حكم الولاية . واتفق سليمان باشا وبشير الثاني على مهاجمة يوسف كنج عندما يتوجه على رأس قواته لمقاتلة الوهابيين في مكان على طريق الحج . وقد يبدو غريباً أن يوسف كنج الذي تأثر بتعاليم الوهابيين توجه لمحاربتهم . والحقيقة أن يوسف كنج كان يرى في التعاليم الوهابية وسيلة لانقاذ المنطقة من تدهور المسلمين . ولكنه لم يكن موافقاً على الطريقة العشائرية التي أراد الوهابيون بها نشر تعاليمهم . ولكي ينفذ خطته في ضرب الحركة الوهابية ، أرسل يوسف كنج إلى محمد علي ، والى مصر ، رسالة تشتمل على خطة ثلاثية تقوم بها العراق والشام ومصر لتوجيه ضربة قاضية إلى الدرعية معقل الموحدين (٦) . وقد كتب يوسف كنج في رسالته يقول : « بما أن مهمة مقاتلة هؤلاء الخوارج والعمل على اجلائهم عن الأرض المقدسة المذكورة لمهمة جد عظيمة تتطلب أن يساهم فيها كل مخلص صادق غيور على عرضه وشرفه مسارع إلى أداء واجبه نحو دينه وملته بصدق وإخلاص فان دولتكم تطلبون مني أن أساهم فيها أنا كذلك وأساعدكم على أن تكون مساهمتي ومساعدتي بتوحيد الجهود فيما بيننا وبالاتفاق بيننا على ميعاد مناسب ومبكر نضرب فيه العدو ضربتنا في آن واحد كل واحد منا من جانبه بالعتاد والقوة اللذين يكون قد أعدهما لتأدية هذه المهمة لأننا إذا وحدنا جهودنا في تأدية

هذه المهمة وساعدنا بعضنا البعض وضربنا العدو في آن واحد نكون حينئذ قد ملكنا الوسائل الكفيلة لتدمير العدو ودحره من كل جانب وأيضاً أسباب نصرة دين مولانا وسيدنا وصفوة خلق الله في الدنيا والآخرة محمد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأسباب اسعاد دولتنا ونيل رضاء الله تعالى عنا وحياسة اعجاب جلالة السلطان بعملنا وتقديره الحسن له تقديرأ عظيماً « (٧) . وبينما كان يوسف كنج يستعد لمحاربة الوهابيين ، كان الباب العالي قد غدر به وأسند الولاية إلى سليمان باشا ، والى صيدا . وهاجم كل من بشير الثماني وسليمان باشا دمشق (٨) .

فر يوسف كنج لاجئاً إلى صديقه محمد علي . وقد تألم محمد علي من هذه الحادثة لأنه كان يثق بيوسف كنج في تقديم معونة كافية للقوات التي كان يزعم محمد علي إرسالها إلى الحجاز ، لأنه كان على عداوة مع سليمان باشا لأنه من المماليك ، وأصبح يحمي المماليك الفارين من وجه محمد علي وبالتالي أصبح سليمان باشا - في هذه الظروف - شوكة في جنب مصر وقادراً على أن يضرب قوات محمد علي في الحجاز من خلف . وأرسل محمد علي يطلب من الباب العالي عزل سليمان باشا عن ولاية الشام واسنادها إلى يوسف كنج حتى يقوم محمد علي بمهمته ضد حركة الموحدين (٩) . ولما يئس محمد علي من اقناع الباب العالي بموامرات سليمان باشا والعفو عن يوسف كنج وإعادته إلى دمشق ، كتب محمد علي في عام ١٨١٣ إلى الباب العالي موضحاً المتاعب الضخمة التي تتعرض لها الحملة التي تقاتل الموحدين في الجزيرة ، وضرورة وجود تعاون بين مصر والشام لانجاح هذه الحملة ، مقترحاً اسناد ولاية الشام إليه هو حتى يتمكن من القيام بواجبه في الحجاز (١٠) . ولكن الباب العالي رفض مطالب محمد علي وظل سليمان باشا في منصبه حتى عام ١٨١٩ . ولذلك فبمجرد أن أنهى محمد علي مهمته ضد الوهابيين واحتلال عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨ ، رفض بطريقة لا تثير غضب الباب العالي ارسال قواته لإنقاذ العراق من الغزو الفارسي له في عام ١٨٢١ - ١٨٢٢ (١١) .

وفي عام ١٨١٩ توفي سليمان باشا ، صديق بشير الشهابي الثاني ، وحل عبد الله باشا محله في ولاية صيدا ، وهو نجل أحد كبار رجال الدولة في الآستانة . وكان عبد الله باشا هذا شاباً طموحاً ، نشيطاً في الحادية والعشرين من العمر . لذلك أبى ، كالجزار قبله ، أن يرى أميراً حاكماً قوياً في لبنان ، فصمم على اخضاع الأمير بشير والخط من قدره . فما أن تم تعيينه في منصبه حتى طالب الأمير بدفع ضريبة باهظة . وحين احتج الأمير ، وضع عبد الله باشا يده على جميع رعايا الأمير اللبنانيين الذين تصادف وجودهم في صيدا وبيروت ، وعددهم نحو مائة وسبعين شخصاً . واضطر بشير الثاني إلى قبول طلب الباشا ، فاستدان مالا لدفع ما فرض عليه ، وأوكل إلى عملائه جمعه من البلاد . لكن ما إن باشر هؤلاء عملهم حتى أعلن أهالي المتن وكسروان العصيان ، بتحريض حسن وسلمان شهاب ، وهما من أنسباء الأمير الحاكم . ولما عجز بشير عن جمع الضرائب والقضاء على العصيان ، تنازل عن الإمارة في عام ١٨٢٠ وغادر البلاد إلى حوران . فصدر أمر عبد الله باشا بتعيين حسن وسلمان شهاب ليخلفاه (١٢) . ولم يمض زمن طويل حتى أدرك عبد الله باشا خطأه . إذ ما إن خلت البلاد من الأمير بشير الثاني حتى عمت فيها الفوضى لأن الأميرين اللذين حلا محله عجزا تمام العجز عن إدارة دفة الحكم . ووجد عبد الله باشا أنه لا مفر من الاستعانة بالأمير بشير الثاني للسيطرة على لبنان .

وعندما تنازل الأميران حسن وسلمان عن الإمارة في عام ١٨٢١ ، اجتمع أعيان لبنان وأعادوا انتخاب الأمير بشير الثاني بموافقة عبد الله باشا . وبمجرد عودة الأمير إلى لبنان ، جرد حملة ضد العصاة في مختلف المناطق ، فسحقهم ونشر الأمن والنظام في البلاد . وتحولت العداوة القديمة بين بشير الثاني وعبد الله باشا إلى صداقة مما دفع الأمير إلى التورط مع الباشا في المشاكل الخارجية . فقد كان عبد الله باشا يطمع في ولاية دمشق ، كما طمع فيها الجزار من قبل . وكانت ولاية دمشق ، في ذلك الوقت ، تحت حكم رجل طموح هو محمد درويش باشا . وكانت بين الأمير بشير الثاني ودرويش باشا عداوة يعود سببها إلى أن درويش باشا طمع في السيطرة على البقاع

وانتزاعه من تحت سيطرة الأمير بشير الثاني ، فأرسل عساكره إليه في عام ١٨٢٠ لتثبيت دعواه . لكن رجال الأمير تصدوا لجند الوالي وردوهم على أعقابهم (١٣) . ولما وقع الخلاف بين درويش باشا وبين عبد الله باشا في السنة التالية ، سارع الأمير بشير إلى تأييد عبد الله ظناً منه أن الباب العالي سيفعل ذلك أيضاً . وبلغت به الحماسة لظهار ولائه لوالي صيدا أنه سار على رأس رجاله لمهاجمة دمشق ، نزولا على طلب حليفه ، فسحق عساكر درويش باشا في معركة المزة في ٢٦ مايو عام ١٨٢١ . ولكن بشيراً أخطأ التقدير ، فما أن اتضحنت نتيجة تلك المعركة حتى تدخل الباب العالي ، فندد بعبد الله باشا وأمر بنقله من صيدا ، وأضيفت ولاية صيدا إلى درويش باشا . وأذاع درويش باشا منشوراً على اللبنانيين أعلن فيه قرار الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا ونفيه والإنعام عليه «بمناصب صيدا وطرابلس واللاذقية ويافا وغزه والرملة واللد وتوابعهما مع ابقا مناصب الشام وايلاتهما ..» (١٤) . وقال أيضاً بأنه طلب من الأمير بشير الثاني المثول بين يديه فأبى ولذلك «رفعنا يده من التزام الجبل وجبيل» . وعندما رفض الأمير بشير الثاني مصالحة درويش باشا على شروطه ، اختار لنفسه مغادرة البلاد إلى مصر ، تاركاً إمارة لبنان لنسيب له يدعى عباس شهاب . وذهب عباس شهاب لمقابلة درويش باشا في مرج البقاع ، «وحضر الأمير عباس إلى قدام درويش باشا فشرفه في الخلع الفاخرة على حكومة الجبل وكسروان وبلاد جبيل حسب المعتاد» .

قرر بشير الثاني بعد أن تنازل عن الحكم الذهاب إلى مصر . وأرسل إلى عبد الله باشا يستأذنه في ذلك ، فأجابه «أنه يبقى مدة قليلة في البلاد ويعين عسكرياً وهو يدفع كلما يحتاج من المال» . ولكن بشيراً طلب منه أن يأذن له بالسير إلى مدينة بيروت ، فأذن له وأرسل الأوامر إلى أهالي بيروت والمتسلم بها «بأن تكون البلدة بيد الأمير بشير ووجه له الذخائر والجبخانا وخمسين ألف قرشاً . ولكن بشير الثاني واجه مقاومة شديدة من أهالي بيروت صورها حيدر أحمد الشهابي كما يلي :

«وقد كان الأمير بشير باطناً لا يرغب الخروج من بلاده وقد كان عازماً على محاربة عسكر الشام . حيث انه كان عالماً بعدم قدرتهم على الحرب كما سبق لهم . ثم في ١٠ في ذى القعدة الموافق إلى ٢٦ تموز حسب شرق سار الأمير بشير من بتدين طالب مدينة بيروت وصحبته أولاده ونحو ألف نفر وهم الذين من خدمه وبات تلك الليلة في الغرب . ثم سار إلى حرش صنوبر بيروت وبوصوله خرج لللتقاء متسلم المدينة . وهو خليل كاشف والشيخ عبد اللطيف مفتى افندى والشيخ أحمد الغر القاضي . وجميع اعيان البلد وترحبوا به وحيث اهالى بيروت لا يرضون تملك اهل الجبل على بلدهم وقد كانوا بغضون ذلك مختلفين الآراء . ومقتسمين فقسمة منهم كانت تميل إلى الشيخ عبد اللطيف المفتى . والبعض منهم يميلون إلى الشيخ أحمد الغر القاضي المذكور . وبعد ملتقاهم للأمير بشير في حرش صنوبر بيروت قدم الأمير إلى المتسلم حصاناً وإلى المفتى والقاضي بقج أواعى مقصب . ثم اجتمعوا جميعاً وعزموا على عدم دخول الأمير إلى المدينة وطردها اتباع الأمير ورصدوا أبوابها . وأشاروا على عصاوة عبد الله باشا ونادوا باسم درويش باشا .

«فلما نظر الأمير بشير ما أبدوه أهالى بيروت من العصاوة ارسل اعرض الى عبد الله باشا وبقي مقيماً خمسة أيام خارج البلد فحضره جواب من عبد الله باشا انه يتوجه إلى عكا . وفي ذلك النهار ذاته سار الأمير نواحى صيدا وبوصوله إلى نهر الدامور بلغه وصول البعض من عسكر درويش باشا إلى صيدا وتسلموها فنزل الأمير في قرية المعلقة في الدامور .

«وبذلك الغضون رجع رسول الأمير الذى كان ارسله إلى مصر جواب من محمد على باشا فى القبول فعند ذلك احضر المركب الفرنساوى الذى كان رابطاً تجاه بيروت . وفي ١٨ ذى القعدة الموافق الى ٢٣ تموز (٦ آب ١٨٢٢) نهار الثلاثاء نزل الأمير بشير في ذلك المركب الفرنساوى من تجاه خلده وصحبته أولاده الأمير خليل والأمير أمين وميثة انسان من خدمه وباقي

اتباعه اصرفهم إلى محلاتهم . وفي ١٩ ذى القعدة الموافق إلى ٢٤ تموز حساب
شرق سافر في الليل المركب الفرنساوى .. » (١٥) .

وكتب كذلك عبد الله باشا إلى محمد على وطلب منه حمايته والتدخل
لمصلحته لدى الباب العالي (١٦) .

وليس لدينا من الأدلة ما يثبت أن محمد على وبشير قد اتصلا ببعضهما
قبل عام ١٨٢٢ ، فلا توجد بين أوراقهما المختلفة أى أثر لاتصال مباشر
أو غير مباشر قبل هذا التاريخ . كما لا يوجد فيما نشر من تقارير قناصل
الدول ما يدل على ذلك . ولعل ميل نديم الأمير وشاعره المعلم نقولا الترك
إلى محمد على هو الذى أوجد لدى الأمير بشير الثانى ميلا لباشا مصر واستعداداً
للجوء إليه والتفاهم معه بعد ذلك (١٧) . وعندما وصل الأمير بشير الثانى
وحاشيته إلى بولاق استقبله حنا بحرى ، أحد موظفى محمد على ، باسم
كتبخدا بك (١٨) ، وفي نفس اليوم اجتمع بكتبخدا بك لمدة ثلاث ساعات
وشرح له ما وقع فى بر الشام فطمأنه وطيب قلبه . وأقام بشير فى مدينة
الفسن بمصر الوسطى لمدة سبعين يوماً حيث زاره هناك ابراهيم باشا ،
ابن محمد على . ولما وصل محمد على من الاسكندرية ، كتب الكتبخدا بك
إلى الأمير بشير يخبره بذلك ويطلب منه الحضور لمقابلته . فحضر الأمير
بشير والتقى بمحمد على فى قصره بشبرا واختلى به لمدة ساعتين حيث حدثه
فى الأسباب التى دفعته إلى اللجوء إليه . وقال بشير أنه كان ، بامكانه مقاتلة
عسكر الوزيرين مصطفى باشا ودرويش باشا معاً وأن ينتصر عليهما ،
ولكنه أبى ذلك امثالاً لأوامر الدولة العثمانية . فسر محمد على به وقال له :
« هكذا تكون أصحاب المروءة أن يخدموا ولاية امورهم حتى الدم ، وطيب
خاطره ونظر اليه بعين الرفعة وأحبه محبه عظيمه وقال له اننى بكل زمانى
ما طلبت من الحق سبحانه طلبه الا واستجاب دعوتى . وقد طلبت انى أراك
فسبحانه تعالى ما احرمنى ذلك وقد رايتك يا امير بخير فأشكر افضال البارى
على ذلك .. » (١٩) .

وتكررت اللقاءات بين محمد علي والأمير بشير الثاني ، وفي إحدى
المرات اجتمع الديوان «و حضرت جميع علما مصر والقاضي والمفتي ونقيب
الأشراف والبعض من رؤساء العساكر وأمر الوزير باحضار الأمير (بشير) الى الديوان.
وفي دخوله التقاه بكل اكرام وأمر له في الجلوس وشرب القهوة وبدأ بحادثه
ويجابه في الكلام فاستعجبوا أوليك الجلوس لانهم ما كانوا عرفوا الأمير
بعد . فقال الوزير (محمد علي) الى القاضي هل عرفت هذا الرجل فطلب
العفو وعمل تمنى . فقال الوزير هذا كبير عشائر جبل لبنان وفي هذه الأيام
قدم الينا لانه كان خادماً عبد الله باشا والى صيدا وحين حدثت المضاعفة
بين عبد الله باشا ودرويش باشا والى الشام وغضبت الدولة العثمانية على
عبد الله باشا . فطلب درويش باشا هذا الأمير لخدمته فأبى ان يخدم غير ولي
نعمته وذلك لكبر امانته وحين حاصرت الوزر عكا حضر إلى هذه الديار .
وقد كان قادراً أن يحارب أوليك الوزر المحاصرين عكا لانه يحكم على جبل
لبنان وتحت يده عشائر تجمع مئة ألف مقاتل . ولكن ما ارد تخالف الدولة
العلية . فحين سمعوا أوليك الجلوس ما تكلم به الوزير ونظروا الأمير بشير
في غاية العقل والرزانة فصار عظيماً في أعينهم ثم انصرف الجميع وأمر الوزير
الأمير أن يبقى جالساً . واجتمع معه نحو ساعتين .. » (٢٠) . وظل الأمير
بشير يتردد على محمد علي طوال اقامته في القاهرة كل يوم مرة . وما زال
في القاهرة حتى عفا الباب العالي عن عبد الله باشا وأبقاه في منصبه كما كان .
ولدى وصول العفو استدعى محمد علي الأمير بشير وقال له : لقد صرت
عندي بمعة ابني ابراهيم وأنا لم أقم بهذه المراجعات الا لأجلك أنت فقط .
ثم أمره أن يكون على أهبة السفر وأن ينقل العفو إلى عكا بنفسه . وأن يتعاون
وعبد الله باشا لإرضاء الباب العالي بدفع المال المتوجب على هذا الأخير (٢١) .
وأمر محمد علي سلحداره سليمان أغا بأن يواكب الأمير إلى عكا قائلاً « اعلم
كأنك سائر معي » . وأبحر الأمير بشير وحاشيته إلى عكا في ثلاث مراكب
مصرية ، ولدى وصول الأمير بشير الثاني وسلحدار محمد علي استقبلهما
عبد الله باشا بمزيد الاعزاز والتكريم وتلياً على من في عكا أوامر الدولة

العثمانية . وحض الأمير بشير عبد الله باشا على ارسال المبالغ المطلوبة للآستانة وأصلح ما بينه وبين أعيان جبل صنف وجبل عامل ، ثم وصل إلى بيت الدين في ربيع عام ١٨٢٣ .

ويبدو أن الأمير بشير الثاني ومحمد علي قد تفاهما تفاهماً سياسياً وعسكرياً منذ عام ١٨٢٣ . فقبل مغادرة بشير الثاني مصر وعودته إلى الشام ، كان محمد علي قد وجه اليه سؤالاً يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتمكن الأمير من جمعهم وارسالهم اليه إذا اقتضى الأمر . ولقد أجاب الأمير بشير الثاني بأنه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة آلاف رجل بقيادة ابنه الأكبر . وعندما اشترك محمد علي في حرب المورة كتب إلى عبد الله باشا يطلب منه الاتصال بالأمير بشير لتنفيذ وعده (٢٢) . فاستدعى عبد الله باشا بدوره الأمير بشير الثاني إلى عكا ليخبره بطلب محمد علي . وأصدر عبد الله باشا مرسوماً إلى «امرا ومقدمين ووجوه ومشايخ جبل الشوف وجبل كسروان» لتجهيز هذه القوة من «الرجال المشهورين المحربين بالشجاعة والقوة» . وعلى الفور أمر الأمير بشير بتجنيد عشرة آلاف لبناني لخدمة محمد علي . وفي منتصف يونيو عام ١٨٢٤ ، وجه الأمير بشير الثاني ابنه الأمير أمين إلى مصر بأربعين جواداً نخدياً وبعده ثمانية بلغ ثمن مجموعها مائة ألف قرش . ولما وصل مصر استقبل استقبالاً رسمياً فالتفته العساكر بالموسيقى ودخل القاهرة في موكب فخيم . ثم استقبله محمد علي ورحب به وسأله عن تجهيز العشرة آلاف مقاتل فأجابه أنها معدة . فقال له اكتب إلى والدك أنه لا لزوم لها «لأن الحمد لله عساكرنا المنصورة صارت فوق الكفاية» (٢٣) . وأضاف قائلاً «أنا موكد ومحقق صدق ابيك بمحبتى وخدمتى من دون شبهة» . ويعتقد البعض أن محمد علي قد تفاوض مع الأمير بشير بشأن الاستيلاء على سورية وضمها إلى ولايته ، وأن الأمير بشير ارتبط معه «بقسم انه يخدمه ويكون في طاعته إلى آخر نسمة من حياته» ، ومن بعده أولاده» (٢٤) . ويقول بولس قرأى أنه تحقق من تاريخ مخطوط للأمير عثر عليه في عام ١٩٢٦ أن مخالفة سرية قد أبرمت

بين الأمير بشير ومحمد على أثناء زيارة الأمير لمصر ، وأنه على أثرها صمم على تملك سورية ولم يكن ينتظر غير الفرصة السانحة (٢٥) .

وبعد عودة الأمير بشير الثاني إلى لبنان عمل على القضاء على من تبقى من خصومه ، وفي مقدمتهم حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط . إذ أن الشيخ بشير جنبلاط سعى أثناء غياب الأمير في مصر لمنع عودته ، متآمراً في ذلك مع عباس شهاب ، الأمير المؤقت . وكان بشير الثاني على علم تام بهذه الدسائس مما أقلق بال الشيخ بشير جنبلاط وسبب له خوفاً شديداً . وما أن وصل الأمير إلى قصره في بيت الدين عائداً من مصر ، حتى هرع إليه الشيخ بشير معلناً استمرار صداقته وخضوعه ، ولكن الأمير بشير الثاني لم يستقبله بترحاب ، بل رد على تحياته ومحاملاته بالتوبيخ والمغالاة في طلب المال . وأبى الشيخ بشير جنبلاط ذلك وفر إلى حوران ، وزحف الأمير بشير على المختارة ، معقل الأسرة الجنبلاطية ، وهدم قصر بشير جنبلاط هناك ، ثم صادر أملاكه في الشوف . ولما علم بشير جنبلاط بذلك ثارت ثائرتة وعاد إلى لبنان مصمماً على الثورة . والتف حوله عدد من المشايخ والأمراء ، وأعلن العصيان على الأمير بشير في ديسمبر عام ١٨٢٥ . ولكن ثورة بشير جنبلاط باءت بالفشل ، إذ عجز الثوار عن الصمود أمام رجال الأمير . وهرب بشير جنبلاط إلى دمشق مع من بقي معه من الأنصار . غير أنه بمجرد وصوله إلى عكا اعتقل واقتيد إلى السجن في عكا ، حيث أهر عبده الله باشا بإعدامه خنقاً ، نزولاً على رغبة الأمير بشير الثاني . وبالقضاء على هذا المنافس القوي ، الواسع الثراء ، أصبح الأمير بشير وحده السيد المطاع في لبنان . وهكذا سدد ضربة قوية إلى الزعامة الدرزية في لبنان ، ولم يغفر له الدروز ذلك ، وأحجموا عن التعاون الفعلي في شئون الامارة منتظرين فرصة سانحة للتأثر . وأثناء الخلاف بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ، أبدى محمد على استعداداً لإرسال جيش لمساعدة الأمير بشير ضد أكبر قوة اقطاعية ، ولكن الأمير أمين بن بشير طلب منه التريث والانتظار (٢٦) . ويبدو أن محمد على كان يدرك ضرورة وجود حاكم

قوى في لبنان يستطيع أن يوحد سياسة المنطقة في اتجاه واحد حتى لا تجدد القوى الخارجية موضع قدم لها في البلاد الشامية التي هي بمثابة مفتاح مصر الشامي .

وفي هذه الأثناء ، كانت حرب المورة تسترعى اهتمام العالم ، وكان السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) قد استعان بتابعه محمد علي لخوض غمارها . وفي عام ١٨٢٥ ، نزل ابراهيم باشا بقواته في المورة ، وأحرز نجاحاً عسكرياً فائقاً في الميدان الأوروبي في الوقت الذي كانت قوات السلطان قد فشلت في مهمتها في تلك المناطق . ولم ينل محمد علي من السلطان العثماني ، لقاء خدماته تلك ، إلا جزيرة كريت ، لأن بلاد المورة التي وعد السلطان باسناد ولايتها إلى ابراهيم باشا قد استقلت ولم تبقى في يد السلطنة . وأبى محمود الثاني أن يعرض لمحمد علي عنها ولاية عثمانية أخرى ، وألح محمد علي على أن يوليه السلطان بلاد الشام عوضاً عن المورة . وحين رفض السلطان طلبه هذا ، قرر والى مصر اجتياح البلاد الشامية بالقوة لأنه أضاع أسطوله وعرض جيشه وابنه للخطر في غير مقابل ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتطلع فيها محمد علي إلى بلاد الشام . فلقد شجعه انتصاره المبكر على الوهابيين على مد دائرة نفوذه إلى سورية كضرورة استراتيجية . وفي ١٩ أغسطس عام ١٨١٣ كتب إلى السلطان يقول « ان هدفي هو أولاً عرض الحالة الحقيقية . وثانياً لأقول بأنني بمطالبتي بسورية لا أريد أبداً أن استفيد من ذلك أو أن أوسع سلطتي . إني لا أرمي الا إلى هدف واحد : أن أؤدي خدمة إلى سيدي » (٢٧) . وأثناء حرب المورة حاولت بعض الدول الأوروبية منعه من التدخل في بلاد اليونان التي وعده السلطان بها ، وأغرته بمناطق أخرى من الامبراطورية العثمانية « أكثر ربحاً » مثل سورية . وكانت الدبلوماسية البريطانية تريد له سورية ، وكتب ستراتفورد كاننج (Stratford Canning) إلى سولت (Salt) ، قنصل إنجلترا في الاسكندرية ، يقول « إذا استطعنا أن نحمل محمد علي على فهم مصالحه الخاصة ، إلى حد دفعه إلى تبني وجهات

نظرنا فلاشك في أن مساهمته ستساعد على نجاح مفاوضاتنا . وسيكون من الأفضل له أن يتنازل عن جزء من الجزية التي سيدفعها اليونانيون ويحتفظ لابنه بولاية سورية من أن يستمر في تبديد موارده على إخضاع شعب مقاوم لا يستطيع احتلال بلاده قبل أن يبديده عن بكرة أبيه .. » (٢٨) . والواقع أن محمد علي نفسه كان يتطلع نحو سورية ، وقد أدركت الدبلوماسية الفرنسية ذلك عندما افترضت في عام ١٨٣٠ أن باشا مصر قد يستخدم احتلال سورية كجسر للوصول يوماً ما ، هو أو ابنه ، إلى سدة الخلافة في الآستانة (٢٩) .

وأيا كان الأمر ، فإن محمد علي تحدث سرّاً في الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ مع الجنرال الفرنسي بيار (Beillard) عن أمانيه وقال : « أنا أعرف أن السلطنة تسير يوماً فيوماً إلى الردى ، وأنه ليصعب على أن أنشأها مما هي فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائل القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدى جل الوسائل التي تساعدني على الفور . انى أستطيع أن أفتح عكا ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه في أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التي أسعى في أنشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من التمزق » (٣٠) . ويدل هذا على أن مصير سورية قد تحدد في المجالس الخاصة . ولقد صمم محمد علي على الاستيلاء على سورية بسبب الدوافع الاستراتيجية التي تتلخص في ضرورة إقامته منطقة حاجزة بين ممتلكاته في وادى النيل والمراكز القديمة للقوة العثمانية في الأناضول . ففي نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر أصبح احتلال سورية من الأمور الضرورية . فلقد استغل السلطان محمود الثانى موقف الانكشارية في حرب الموزة وقضى عليهم في عام ١٨٢٦ وبدأ ينظم جيشه على أسس أوروبية حديثة . وقد تلت كارثة اليونان حرب أخرى مع روسيا في عام ١٨٢٨ ، ولكن بتوقيع معاهدة أدريانوبل (Adrianople) في سبتمبر عام ١٨٢٩ استأنف السلطان مرة أخرى إصلاحاته العسكرية

والإدارية . وفي هذا الوقت أصبح تفوق محمد على العسكرى فى خطر ، وزادت سياسة الساطان محمود الثانى المركزية ، وعملت على الحد من استقلال محمد على الذاتى فى مصر .

ولما فشلت محاولات محمد على للاستيلاء على سورية بالوسائل السلمية ، حاول أن يجد مبرراً للتدخل ، ووجد ذلك فى سلوك عبد الله باشا ، وإلى صيدا ، الذى لم يعد يهمه استمرار الصداقة مع محمد على ، فأوى الفلاحين المصريين الذين فروا من مصر تخلصاً من الخدمة العسكرية وامتنع عن إرجاعهم . فقرر محمد على توجيه قواته للانتقام من عبد الله باشا وقهره . وعندما علم عبد الله باشا بالأمر ، بادر إلى تحصين عكا ، وأرسل وفداً إلى الآستانة يعرض الشكوى ويطلب النجدة . ولكن الآستانة قابلت استغاثة عبد الله باللامبالاة وأبطأ الوفد هناك . وبينما كان مندوبو عبد الله باشا فى طريق العودة إلى عكا ، وصلت جيوش محمد على إلى المدينة بقيادة ابراهيم باشا ، ووقع خطاب الآستانة فى يد ابراهيم باشا ، الذى تبين منه عدم اهتمام الدولة العثمانية بعبد الله باشا ، ففضى فى تنفيذ خطته (٣١) . ورغم خطورة الموقف ، لم تقم الدولة العثمانية بأكثر من لفت نظر عبد الله باشا باستعمال الكياسة وتجنب كل ما عساه أن يؤدى إلى الاشتباك فى الحرب . وعندما أحس عبد الله باشا بالخطر وإعراض الدولة العثمانية عنه أخذ يبالغ فى إظهار المودة للأمير بشير الثانى خلافاً لقلّة الاكتراث التى أبدّاها من قبل . وأرسل إليه الهدايا الفاخرة والرسائل الرقيقة ، وجاء فى إحدى الرسائل المكتوبة بخط عبد الله باشا نفسه : «ان توجهى نحوكم هو الآن أكثر من الأول لأننا اخترناكم مراراً فما وجدناكم الا كقول القائل : وانت الخالص الذهبى المصفى » وهذا تأكد عندى وتبرهن» (٣٢) .

ومما يلاحظ فى هذا المجال أن كثيراً من المؤرخين يدعون أن محمد على كان يخطط فعلاً لإنشاء امبراطورية عربية . والواقع أنه ليس فى كلمات محمد على أو فى سياسته ما يشير إلى أنه كان يسعى لإقامة هذه الامبراطورية . فمحمد على الذى تكلم عشرات المرات عن أهدافه من الحرب السورية ،

لم يذكر مسألة وحدة العرب وتحريرهم ، ونستدل على ذلك من مجموعة الرسائل التي تبادلها مع ابنه ابراهيم وقادة جيشه وأعيان البلاد ، وهي التي نشرها الدكتور أسد رستم في عدة مجلدات بعنوان «المحفوظات الملكية المصرية» . ولقد أدت قلة الحجج لدى القائلين بعروبة محمد على إلى أن ينسبوا تلك العروبة إلى ابنه ابراهيم . ولكن القول بمقاصد ابراهيم جاء الينا عن طريق بعض الأجانب ، فلقد التقى به زائر فرنسي وهو البارون بوالكونت بالقرب من طرسوس بالأناضول عام ١٨٣٣ ، وذكر عنه «ان ابراهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم» . وقال إن ابراهيم فاخر بأعجاب العرب في منشوراته التي وزعها على جنوده في الحملة السورية ، وكان يدعوهم إلى تحقيق الوحدة تحت لواء أبيه (٣٣) . ولكن يظهر أن عروبة ابراهيم هذه لم تكن أمراً جديداً ، فلو عدنا إلى رسائله التي بعث بها إلى أبيه وإلى مرعوسيه أثناء حربه في سورية ، نجد أنه أغفل ذكر الوحدة العربية في حديثه عن غايات حملته . وما نميل إلى تأكيده هنا أن محمد على كان يهدف إلى السيطرة على الخلافة الإسلامية والجلوس محل الخليفة العثماني في الآستانة . ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره هنري دودويل بأن «فكرة محمد على لم تكن متجهة إلى انشاء وحدة عربية داخل دائرة الاسلام ، بل أن يصبح زعيم الاسلام الأشهر المشار اليه بالبنان وأن ينادى به الناس كإمام لهم» (٣٤) .

والواقع أن محمد على كان مسلماً مخلصاً في دينه يقوم بأداء الفرائض بكل اخلاص ، وأنه كان يعترف بتأخر «الملة المحمدية» بتعبير ذلك العصر ، وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة وبوجوب الصمود لطمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن «الملة» (٣٥) . ففي رسالة إلى ابنه ابراهيم عندما تأزمت العلاقات بينه وبين الباب العالي وبمناسبة تدخل الدول الأوروبية ، كتب يقول «يجب أن نقبل الحرب متوكلين على الله تعالى كما تفرضه الشهامة والشرف الانساني والحمية الاسلامية ونبدل ما يسعنا

من الجهود على الرغم من تفوق قوتهم معتصمين بقوله تعالى : وما النصر الا من عند الله وقوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ونحافظ على كرامتنا وشرفنا .. ان غرض الدول ليس اعانة الدولة العلية بل مجرد ترك الطرفين في حالة ضعف وعجز حتى يتسنى لهم الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة في الوقت الذي يوافق أهواءهم وسياساتهم ، واذا كان غرضهم ما ذكر فقبول تكليفهم خيانة للعامة وتام استغلالها ، فبدلاً من ان تقبل هذه الخيانة ونذكر باللعنة إلى يوم القيامة نموت في سبيل الدين ونشيد بذلك ديانا وآخرتنا ..» (٣٦) .

وفي اكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت القوات المصرية نحو عكا ، فاحتلت العريش ويافا وحيفا ، ثم وصلت برآ وبحراً إلى عكا وبدأت حصارها . ولقد أدى زحف الجيش المصرى على عكا إلى حدوث رد فعل مباشر في لبنان بسبب علاقات الود بين الأمير بشير الثانى ومحمد على . فما أن اقتربت جيوش ابراهيم باشا من عكا حتى وقع الخصام بين المواردنة والدروز في لبنان ، ونشب القتال بين الفريقين في دير القمر والمتن والبتماق . وحاول الدروز تنظيم ثورة ضد الأمير بشير اثنائى لاجراج ابراهيم باشا في زحفه ؛ ولم يكن للدروز أى عذر لمثل هذا الموقف إلا عداوتهم للأمير بشير . أما المواردنة ، فاعتبروا ابراهيم باشا صديقاً لهم ، كما اعتبره سائر نصارى بلاد الشام . وكان ابراهيم باشا كلما احتل بلداً ألغى القيود المفروضة على النصارى واليهود ووضعهم على قدم المساواة مع المسلمين . فعندما دخل القدس ، بادر إلى الناء «الأغفار» (٣٧) التى لم تكن غايتها حفظ الأمن ولكن ابتزاز الأموال غير المشروعة من الأهالى والحجاج . وأبطل هذه «الأغفار» والضرائب غير المشروعة محرراً طرقات القدس ومنازلها منها ، وأصدر مرسوماً بذلك في ديسمبر عام ١٨٣١ إلى ملا القدس وشيخ الحرم الشريف فيها ومفتى الاسلام ورتيب الأشراف وخدام المسجد الأقصى وكافة العلماء والخطباء والأعيان جاء فيه : « نحيطكم علماً انه ليس خافكم ان القدس الشريف محتوى على معابد واديرة ترد لاجل

زيارتها جميع الملل العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فج ويقصدونها من سائر الاقطار والديار . فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعة بالطرقات . ولأجل اجراء الوفق بين الناس صدرت أوامرها الى جميع المسلمين الذين في ايلة الوية صيدا والوية القدس الشريف ونابلوس وجنين برفع هذه الاغفار من جميع الطرقات والمنازل بوجه العموم . ومن حيث ان الاديرة والكنايس الكائنة بمدينة القدس الشريف هي مقر الرهبان والقسس وبها يتلون الانجيل الشريف ويجرون طرائق اعتقادهم وطقوسهم فينبغي حمايتهم وصيانتهم من كل التكيلفات التي ترتبت عليهم بواسطة طمع السالفين . فلذلك قد صدرت ارادتنا الآن برفع التريبات التي على جميع المعابد والاديرة وجميع طوائف النصارى الكائنة بالقدس الشريف افرنج وروم وأرمن وقبط . وكذلك العوايد المرتبة على الملة الموسوية قديماً وحديثاً بتلك المراتب .. « (٣٨) . ومما لاشك فيه أن ابراهيم باشا قد هدف من ذلك استمالة وتأييد المسيحيين في الدولة العثمانية وخاصة الأمير بشير الثاني ، وكذلك استمالة وتأييد الدول الأوروبية ، وخاصة فرنسا والرأى العام المسيحي واليهودى في العالم للوقوف معه ضد الدولة العثمانية .

وفي يناير عام ١٨٣٢ بدأت الدولة العثمانية تتحرك ضد ابراهيم باشا ، فعينت والى حلب حاكماً عسكرياً على «عربستان» وسواحل بر الشام لمقاومة الحملة المصرية . وفي فبراير من نفس العام وجه والى حلب تحذيراً إلى أهالى جبل لبنان ينهاهم فيه عن الانقياد إلى الدسائس ضد الدولة العثمانية ويحضهم على دوام الطاعة لها . ووجه عثمان باشا ، والى طرابلس ، تحذيراً مماثلاً للأمير بشير الثاني وأهالى الجبل يحذرهم فيه من الانضمام لحمد على ويحثهم على التمسك بالولاء للسلطان العثمانى (٣٩) . ونتيجة لهذه الانذارات والتحذيرات ، تهيئ الدروز الموقف «وصار اضطراب عظيم عند أكثر دروز الجبل وجعلوا يرسلوا بعضهم سرّاً ان لا بد ان تقوى الدولة وتنتصر . وانقاد معظم الدروز إلى الأتراك واتخذوا موقفاً سرياً بهذا الشأن مخالفاً لميل الأمير بشير

الذى كان يود فى الباطن الغلبة لابراهيم باشا ويستعد خفية لتأييده ، وإن كان لم يجاهر بعد علناً بموقفه ملازماً خطة التروى والثأنى ريثما تنجلي الأمور بعض الشيء ويتشاور مع اهالى البلاد » (٤٠) . ومن ناحية أخرى ، وجه محمد على رسالة إلى الأمير بشير يحثه فيها على نصرة ابراهيم باشا ، وتوعده بأنه إذا أحجم عن الانضمام إلى ابراهيم باشا فانه سيجرد عليه خمس آلايات أوست لك دياره وقطع دابر الدروز (٤١) . وكان بشير آنذاك فى عكا إلى جانب ابراهيم باشا ولكن بدون عسكر ، إذ لم يكن قد حدد موقفه بعد انتظاراً لانجلاء الموقف ، كما أشرنا ، ولمزيد من التشاور مع الأهالى . وكان وقوف ابراهيم باشا بجيشه مدة ليست بالقصيرة أمام عكا هى أحد الأسباب الجوهرية التى أدت إلى انقسام شيوخ وأمراء الجبل على أنفسهم : فقسم أعلن ولاءه للعثمانيين ، وقسم آخر من الأسرة الشهابية وجد أن الفرصة مواتية لاغتصاب الحكم من بشير الثانى ، فانضم إلى العثمانيين وجهاز قوات للعمل بها فى لبنان (٤٢) .

وأمام الخاح محمد على ، اتخذ بشير الثانى فى أوائل عام ١٨٣٢ موقفاً مناصراً لابراهيم باشا على الصعيد العسكرى . نأوعز إلى ابنه الأمير أمين ، نائبه فى بيت الدين ، بجمع مناصب البلاد واستشارتهم والاطلاع على همهم وعزمهم . فاستدعى الأمير أمين المناصب واستحث همهم ، فاجتمعوا ووحدوا الكلمة وكتبوا إلى الأمير بشير أنهم جميعاً مقيمون على طاعته (٤٣) . وعندئذ ، أصدر الأمير بشير الثانى مرسوماً دعا فيه الأهالى إلى توجيه ألف مقاتل إلى الشويفات بقيادة ولده خليل . وساعد الأمير خليل ابراهيم باشا فى حربه ضد العثمانيين بالقرب من طرابلس . والواقع أن بشير الثانى كان حليفاً أميناً طائعاً لمحمد على وابنه ابراهيم باشا (٤٤) . أما الموارنة ، فقد اندفعوا فى هذه المرحلة إلى جانب ابراهيم باشا . وكان البطريك المارونى يوسف حبش على اتفاق تام مع الأمير بشير الثانى ومناصراً له وللجيش المصرى . وفى أول يونيو عام ١٨٣٢ ، كتب البطريك حبش إلى حنا بحرى ، من كبار رجال الإدارة المصرية فى بلاد الشام ، يقول : « وفد الينا

تحرير جنابكم المرقوم في ٢٣ ايار (مايو) المفسح عن هذا الانتصار (فتح عكا) الفريد فحمدناه تعالى .. ثم وكامل مانوهموه لجهة صدور الاوامر الشريفة بطلب رجال ليتوجهوا بخدمة سعادته الشريفة (الأمير بشير) للشام واننا ننبه على جميع أولادنا ابناء رعيتنا بانهم حالاً يسارعوا باجمعهم من كل من فيه الكفاية لهذه الخدمة الشريفة من دون تأخير ولا توقف فجميع ذلك بقى معلوماً لدينا . وحالا بادرننا من دون تأخير برقم كتابات عمومية للجميع حسب المطلوب . والذي نعلمه بان الجميع مستعدون لهذه الخدمة الشريفة ..» (٤٥) . ولم تقتصر مساعدة الأمير بشير والموارنة للحملة المصرية على مدها بالجنود في المعارك ، ولكن الموارنة كانوا أيضاً خير عون للمصريين في الإشراف على الإدارة في البلاد ، وتنظيم التوطين ، وحفظ الأمن . وعندما قرر ابراهيم باشا الزحف على الشام ، اتفق على ذلك مع الأمير بشير الثاني وأصدرا أمراً باستنفار «جميع رجال الجبل قاطبة من كل من يحمل سلاحاً» وبتسييرهم بقيادة الأمير خليل إلى قطنا . ووجه ابراهيم باشا إلى أمراء ومقدمي ومشايخ ورعايا الجبل كتاباً يخبرهم فيه على جمع كل الرجال حاملي السلاح للسير صحبة الأمير خليل . وأمر ابراهيم باشا والأمير بشير الثاني أيضاً بجمع جميع البغال والجمال والدواب من بلاد جبيل إلى بلاد صفد وجميع ما بينها من البلدان لنقل الذخيرة من صيدا إلى زحلة . كما أرسل الأمير بشير كتابات من عكا إلى جميع أكابر البلاد ليجمعوا الرجال المسلمين من الشوف والمتن وكسروان وبلاد جبيل .

وأثناء حصار عكا ، زود ابراهيم باشا الأمير بشير الثاني وأولاده بجنود مصريين لاحتلال المدن الأخرى على الساحل الشامي . فاحتل الأمير بشير ، بسهولة ، صور وصيدا وبيروت . وكانت القوات المصرية قد احتلت بيت الدين ودير القمر ، لحفظ الأمن في بلاد الشوف . وعندما سقطت عكا في ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ واستسلم عبد الله باشا ، زحف ابراهيم باشا ، يرافقه الأمير بشير الثاني ، على دمشق لاحتلال بقية البلاد الشامية . وهرب الوالي العثماني من دمشق ، إلا أن القوات المصرية واللبنانية لحقت

به إلى حمص ، حيث هزمته في يوليو عام ١٨٣٢ . وقبل أن يتحرك ابراهيم باشا نحو الشمال ترك في حمص الأمير بشير الثاني ليتولى ضبط الغنائم من مدافع وذخيرة . وبعد استيلائه على حلب ، قرر ابراهيم باشا استغلال الفوضى الشاملة لتعزيز انتصاراته ، فاجتاز جبال طوروس وهزم من جديد القوات العثمانية في موقعه بيلان في ٢٩ يوليو من نفس العام . وهكذا فتح أمامه طريق الأناضول والآستانة (٤٦) . وفي مايو عام ١٨٣٣ وقع صلح كوتاهية (٤٧) الذي توج انتصارات الجيش المصري ، وبذلك انتقل حكم بلاد الشام من يد الدولة العثمانية إلى يد محمد علي وابنه ابراهيم باشا . وأصبحت مصر المرجع الأعلى لحكومة الشام ، وصار ابراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية .

أخذ ابراهيم باشا في تنظيم سورية وتدبير أمورها الإدارية والسياسية والحربية، فغنى بإقرار الأمن والنظام في ربوعها ، وأمن الطرق ومنع اعتداء البدو على غلات الأهالي وأملأهم وأرواحهم . ومن الناحية العسكرية ، عنى ابراهيم بتوطيد مركز مصر في سورية ، فأمن حدودها الشمالية وحصن مضائق جبال طوروس لصد هجوم العثمانيين إذا حدثتهم أنفسهم بالزحف على الشام ، ورمم حصون عكا وأسوارها ، وشيد الثكنات والمستشفيات ، وخطط الطرق الحربية ، واستقرت الحاميات المصرية في أهم المدن السورية . وبلغ عدد الجيش المرابط في سورية نحو سبعين ألف مقاتل ، رابط معظمه في الجهات الشمالية القريبة من الحدود العثمانية (٤٨) . وقد ألغى ابراهيم باشا التقسيمات الإدارية التي سادت بلاد الشام في العصر العثماني الأول ، فعين في ديسمبر عام ١٨٣١ متسلمين على المدن الساحلية مثل صور وصيدا وبيروت وطرابلس وربطهم به مباشرة ، ثم عدل عن ذلك بعد سنة واحدة وفوض الأمير بشير الثاني في أكتوبر عام ١٨٣٢ في إدارة شئون هذه المدن ، فولى الأخير متسلمين عليها من أقاربه . وفي خريف عام ١٨٣٢ عين محمد علي شريف باشا حاكماً عاماً (٤٩) على جميع إيالات برالشام ، باستثناء جبل لبنان حيث بقيت إدارته تحت إشراف الأمير بشير الثاني . وإذا كان الحكم

المصرى قد استطاع - فى بادىء الأمر - القضاء على التقسيمات الإدارية التقليدية فى بلاد الشام وإقامة وحدة إدارية فيها ، إلا أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً ، واضطر الحكم المصرى تحت تأثير الثورات المستمرة أن يعيد التشكيلات الإدارية السابقة ، فأعيد تشكيل إيالة صيدا من جديد بعد أن سلخت عنها عكا وعين سليمان باشا الفيرنساوى واليا عليها فاتخذ مدينة صيدا مقراً له . كما فصلت حلب عن إيالة الشام وعين اسماعيل بك والياً عليها فى عام ١٨٣٤ (٥٠) .

وعلى أية حال ، فقد أصبحت بلاد الشام فى أواخر الحكم المصرى (١٨٣٩) مقسمة إلى عدد من الوحدات الإدارية (مديريات) وهى الشام وحلب وصيدا وطرابلس ويافا وأدنة . وقد تولى إدارة كل منها مدير كان يساعده متسلم (فى كل مدينة) هو عون له فى تدبير الأمور . وهذا بدوره كان عنده مباشر يعمل بمثابة مديراً للمال . وكان المباشرى عادة من المسيحيين لأنهم كانوا أكثر من سواهم خبرة بالأعمال الحسابية (٥١) . وألف ابراهيم باشا فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نسمة مجلساً يسمى «ديوان المشورة» يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ و ٢١ عضواً ينتخبون من بين أعيان البلد وتجارها ، وتنظر هذه المجالس فى مصالح كل بلدة ومطلوبات الميرى وإليها ترفع بعض الدعاوى للفصل فيها . وتكون ديوان بيروت من اثنى عشر عضواً منهم ستة من المسلمين وستة من المسيحيين . وجاء فى وصف هذا الديوان أنه :

«فى ١٤ رمضان (١٢٤٩ هـ) أمر ابراهيم باشا بصير ديوان مشورة فى بيروت وجعل اثنى عشر رجلاً من أكابر بيروت أصحاب فطنة والمتسلم لا يبدى بشىء إلا بما يبرز به الحكم من ديوان المشورة بموجب كتاب منه الى ارباب الديوان المذكور وهم ستة اسلام : عبد الفتاح حماده ناظر المجلس وعمر بيه (بيهم) أحمد العريسى حسن البرير امين رمضان احمد جلول وستة نصارى وهم جبرائيل حمصى بشارة نصر الله الياس منسا ناصيف مطر

يوسف عيروت موسى بسطرس وترتيب المذكور (١) تعيين وقت معلوم كل يوم إلى حضور أرباب المجلس وعند حضورهم يحرق الكاتب اسماءهم بقائمة يرتبة حضورهم لا برتبة مقامهم (٢) الكاتب يحرق كل يوم الأشغال الموجودة عنده . وحين يحضروا أرباب المجلس يعرضها عليهم حتى يعملوها ولا تبقى من يوم إلى يوم (٣) إذا كانت هذه الأشغال لا تنتهى فى ذلك اليوم فيصير الاجتماع ثانى يوم قبل الوقت المعين بزمان كاف لنها (٤) الاشغال المذكورة المتبقية من اليوم السابق لا تنقيد فى أعماله بل فى اليوم الذى تنتهى فيه (٥) حين يقرأ الكاتب الدعوى يطلب الجواب ممن هو خير بها من أرباب الديوان قبل الجميع وبعده يأخذ رأى الباقي بحيث لا يبقى احد بدون تكلم وإذا وجد واحد من أرباب المجلس تكلم مع آخر فى حديث خارج عن الدعوى ينبه عليه الكاتب أولاً وثانياً فان ما افاد فيحرق فى مضبطة المجلس ان فلان مشغول بشغل أحاديث خارجة عن المصلحة والكاتب لازم يحرق كلما يتقرر بالمجلس ولا يترك منه شىء وكلما يتقرر يكون مكتوباً ولا يتحرر الا الذى موافق الحق (٦) بعد نهاية المجلس وتمام (روية) المصالح التى نظر فيها واستقر الحكم عليها باستحسان الجميع يحرقها الكاتب بمسودة . وثانى يوم يبيضاها ويوجهها لمحللاتها وبعده ذلك تنقيد فى سجل المجلس وهذه الخلاصات بعد تحريرها يأخذها الكاتب كل يوم للمجلس لكى بعد نهايته يقرأها بأعلا (صوته) بحضور الجميع فان استحسنوا رأياً اوفق من الذى تقدم فيغيروا الخلاصة وتتقدم الخلاصات لناظر المجلس فيختمها بختم مجلس المشورة وبعد القيد تصل الى صاحب الأمر لكى يشرح عليها الى اصحابها أمراً باجراء ما يتضمن من الحكم وإذا (ما) كان سعادة الحاكم دار موجوداً فيشرح من طرف متسلم آغا (٧) الكاتب يمسك دفترين الواحد الى صورة المجلس المتضمنة التقرير والآخر الى الخلاصات من بعد ختمهم ويلزم حفظ المسودات اليومية ضمن كيس أيضاً» (٥٢) .

ومنذ أن دخل ابراهيم باشا بلاد الشام ، استدعى الأمير بشير الثانى للتداول فى تدبير الأمور ، ونتج عن هذا التداول أن أقصى ابراهيم عدداً

لا يستهان به من ولاية الأمور في البلاد ، وأحل محلهم من وجد فيه الكفاءة .
وأوصى «بوجوب المحافظة على راحة الأهالي ، وتأمين العباد ، وزجر
المعتدين ، وتحاشي أسباب الجور والاعتساف» (٥٣) . ويمكن أن نوجز
الاصلاحات التي قام بها الحكيم المصري في لبنان على النحو التالي :

(أولاً) ألغى الحكيم المصري جباية «الخوة» التي فرضتها زعامات
عشائرية معينة عند معابر البلاد ومسالكتها ، وكانت السلطات العثمانية
قد غضت النظر عن جبايتها أجيالاً طويلة ، فزالت هيبتها وقل نفوذها .
وأصبح جباة هذه «الخوة» أسياداً في مناطقهم يفعلون ما يشاؤون . ومن
هؤلاء آل أبي غوش في الطريق المؤدى من يافا إلى القدس ، وآل رستم
في جسر شغور عبر العاصي بين اللاذقية وحلب ، وعشيرة الدنادشة في تل
كلخ بين طرابلس وحمص (٥٤) . وقد نهى ابراهيم باشا عن «الخوة» وهدد
بالعقاب الصارم فامتنع جباة عنها وامثلوا للأمر وأصبحت معابر البلاد
ومسالكتها آمنة يسلكها التجار وأبناء السبيل آمنين فرحين .

(ثانياً) فرق الحكيم المصري في سياسته الداخلية بين وطني آمن
وبين أجنبي طامع ، فشمّل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر . فوافقت
الإدارة المصرية مثلاً على السماح لتابع قنصل إنجلترا في رودس باستخراج
الاسفنج من مياه الشام ، ولكنها رأت أن يمنع عن ذلك إذا كانت هذه
المصلحة بيد رجل وطني (٥٥) . وهكذا ألغى الحكيم المصري الأوضاع
التي كانت تعطي للتاجر الأجنبي بمقتضى معاهدات الامتيازات
(Capitulations) تفوقاً على المواطن ، وامكانيات على تصدير واستيراد وبيع
البضائع بقيمة أقل من تلك التي يبيع بها المواطن . ولقد كانت الإدارة
والأمراء يفرضون الضرائب العديدة على المواطن ، وبلغت أكثر من ١١٪
بينما بلغت على الأجنبي ٣٪ فقط . وبذلك ساوى الحكيم المصري بين الوطنيين
وبين الأجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام (٥٦) .

(ثالثاً) عمل الحكيم المصري على توطيد دعائم المساواة السياسية بين

النصارى والمسلمين : وفى أوائل عهد الحكم المصرى فى بر الشام ، كتب
إبراهيم باشا إلى متسلم اللاذقية يقول : « والتعرض الى الرعايا وعدم مؤاساتهم
هذا مخالف لرضانا لان الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب
ما له مدخل بحكم السياسة فيلزم أن يكون كل بحاله المؤمن يجرى اسلامه
والعيسوى كذلك ولا أحد يتسلط على أحد » (٥٧) . واحترم الحكم المصرى
زعامة الدروز والنصارى فى لبنان احترامه عامة اخوانهم المسلمين ، ولم يتأخر
عن ترقية الدروز والنصارى عند ثبوت الاستحقاق . فرق إلى رتبة البكوية
حنا بحرى وهو نصرانى ونعمان جنبلاط وخطار العماد وعبد السلام العماد
ونصيف أبو نكد وهم دروز (٥٨) . كما أباح الحكم المصرى للمسيحيين
ما هو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية .
وعاقب محمود نائى بك : محافظ بيروت ، بعض مسلمى بيروت لأنهم
تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى (٥٩) . كما رأى محمد على
أن يجند النصارى ليبعد الدروز الأوروبية عنهم وعن إثارة الفتن بواسطتهم
وليزيل عداوة المسلمين ويوطد صداقتهم .

على أن المحاسن التى جاء بها الحكم المصرى لم تلبث أن اختلطت بمساوئ
جعلت الحكم المصرى حكماً ممقوتاً . لقد وعد إبراهيم باشا أهل الشام بأن
يعفيهم من التجنيد ويخفض الضرائب ولا يكلفهم إلا دفع الأموال الأميرية .
وقد بر بوعده فى السنوات الأولى من حكمه ، فخفف عنهم بعض الأعباء
المالية ، وأخذ فى تنشيط الزراعة والتجارة (٦٠) . فشعروا بالاطمئنان
إلى الحكم المصرى وركنوا إليه . ولكن هذه الحالة ما لبثت أن تبدلت لما
أصدره محمد على إلى ابنه إبراهيم باشا فى أواخر عام ١٨٣٣ وأوائل عام
١٨٣٤ من الأوامر التى أثقلت كاهل الأهلى بأعباء فادحة وهى :

- ١ - احتكار الحرير فى البلاد السورية ، واجبار الأهالى على بيع
محصول أرضهم إلى الحكومة بالثمن الذى يقدره عمال الحكومة نفسها (٦١) .
- ٢ - أخذ ضريبة الرؤوس (الفردة) (٦٢) من الرجال كافة على
اختلاف مذاهبهم .

٣ - التجنيد الاجبارى لتكوين جيش ضخم لمجابهة المقاومة المحتملة من قبل الدولة العثمانية والدول الأوروبية .

٤ - نزع السلاح من أبلى أهالى البلاد . وقد تحقق هذا بسهولة فى سورية والسهول والسواحل عامة . أما فى جبل لبنان ، فقد اصطدمت هذه السياسة بصعوبات هائلة نفسية وعملية . وكتب أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا فى عكا ، يقول : «أنا لا أعتقد أن ابراهيم باشا ناجح فى تجريد كل الأمة من السلاح وخاصة سكان جبل لبنان وتابلس والقدس . وليس من يجهل أنه لأهون على هؤلاء تسليم نسايم من تسليم سلاحهم » (٦٣) .

٥ - ادخاله السخرة فى البلاد ، وكانت تشمل الناس وحيوانات النقل لأشغال الحكومة . ويقول أحد المعاصرين أنه لم يقدر « احدمن اية رتبة كانت من الأهالى فى المدن فضلا عن القرى ان يحمى دابته ويحافظ عليها ولو جعل معلفها داخل داره فان الضابط المسمى بالتفكجى له سلطان ان يخلع الأبواب ويكسر الاقفال ويفوت هاجما إلى الدار ويجرها قهراً جبراً ويركبها لاي عسكري او ضابط اراده ويكون صاحبها مجبوراً بان يستأجر لها رجلاً يرسله معها لاجل عليقتها وليحضرها له عند انتهاء عملها والا لادعوى له اذا ضاعت عليه . وفى أكثر أيام السنة كانت تمتنع الفلاحون عن النزول الى المدينة لانه لا يمكن أن ينزل اليها فلاح الاوي تسخره وودابته او هو وحده وودابته وحدها فيجره الضابط الى حيث أراد وإذا تعمد معه أصابه من الضرب الأليم والعذاب المفرط ما يجعله أن يخضع لارادته رغماً عن انفه » (٦٤) .

وقد تبرم الأهالى من هذه المحدثات وتذمروا منها ، لأن احتكار الحكومة ، مثلاً ، للحريز كان من شأنه إلحاق الضرر بمتجيه ومنع تنافس التجار على شرائه وحرمان المنتجين من مكاسبهم منه . وقد نفروا كذلك من ضريبة الرعوس وخاصة المسلمين لأنهم ما كانوا ملزمين بها من قبل ، وزاد من تدميرهم تسخير الحكومة للأهالى فى الأعمال العامة . وكان التجنيد ونزع السلاح أهم الأسباب المباشرة التى أفضت إلى الثورة ، فقد نفذ

التجنيد بطريقة قاسية تثير حفيظة الناس . وقد كره اللبنانيون التجنيد الإجبارى كرهاً شديداً ، فقد كان الدروز والموارنة جنوداً أشداء ، يهبون للقتال في سبيل أمرائهم إذا أهاب بهم إلا أنهم كرهوا الخدمة العسكرية النظامية ، خصوصاً في جيش من غير بلادهم . وكان الموارنة كتنصاري يعتبرون أنفسهم معفيين من الخدمة في جيوش دولة إسلامية ، سواء كانت هذه الدولة عثمانية أو مصرية . أما عقال الدروز ، فأبوا أن يخدم فتيانهم جنباً إلى جنب مع جنود مسلمين في جيش واحد ، خوفاً على درزياتهم من الإفساد . أضف إلى ذلك أن الخدمة العسكرية هددت بالقضاء على طبقة الفلاحين اللبنانيين ، إذ كان من شأنها إبعاد أفضل عناصرها من المزارع والحقول ، للقتال في حروب لا مصلحة لهم فيها .

وفي عام ١٨٣٤ ، قامت أولى حركات التمرد ضد الحكم المصري في بلاد الشام . فابتدأت الثورة على شواطئ نهر الأردن بالقرب من بيت المقدس ، وسار ابراهيم بجيشه من يافا إلى بيت المقدس . وهناك جمع أكابر القوم واستوضحهم مقصدهم ، فأجابوه بأنهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحريز ، لكنهم يعارضون أشد المعارضة في نزع السلاح وفي تجنيد الشبان في الجيش ، وتعهدوا لقاء اعفائهم من هذا دفع ضعفى الضريبة وتقديم بعض أولاد المشايخ رهينة لضمان طاعتهم واخلاصهم . غير أن ابراهيم باشا أبى أن يتهاون في تنفيذ أوامر أبيه . وأخذت الثورة تستفحل ، وخاصة عندما ذاع بين الأهالي أن الدولة العثمانية تتأهب بجيش جديد لاسترجاع بلاد الشام من محمد على ، وامتدت الثورة إلى نابلس . فجمع ابراهيم باشا جيشاً من ستة آلاف جندي وزحف على معقل العصاة في قرية العنبر ، وحاصرها لمدة ثلاثة أيام ، وكان سقوطها سبباً في تشتت العصاة . وحضر محمد على إلى فلسطين ليطمئن بنفسه على الموقف وليشرف على القتال . وكان ابراهيم باشا وقتئذ في القدس ، فذهب لاستقباله في يافا . وكان العصيان قد امتد إلى صفد ، فقطع أهلها الطرق ونهبوا اليهود ، فعهد محمد على إلى الأمير بشير الثاني أن يخذل هذا العصيان «واعداً إياه أن يعفى

بصورة دائمة سكان لبنان من دروز ومسيحيين من الفردة والتجنيد» (٦٥) ..
وهنا برز دور الأمير بشير الثاني واللبنانيين في التغلب على الثورة الفلسطينية.
واخادها ، إذ كتب قنصل النمسا يقول :

«مر المير بشير ازاء صيدا ومعه سبعة آلاف رجل من الجبل . وقد
قابلته .. وعرضت عليه ان ارافقه إلى صفد فتعجل بمشقة السفر وأشار على
أن أنتظر علماً منه بعد وصوله الى هناك . وفي الواقع لما علمت بخضوع
سكان هذه المدينة أسرع في ارسال ابني اسكندر إلى هناك. وقد كتب
لي لدى وصوله بما ينعش الآمال بتحسين الحال . . فقد آل حضور
الأمير بشير إلى خضوع العصاة في صفد وضواحيها .. » (٦٦) ..
وأظهر ابراهيم باشا امتنانه من الأمير بشير الثاني واللبنانيين على أثر
هذه المعارك التي انتصروا فيها ، فأباح لهم أن يحتفظوا بأسلحتهم . ومثلما
تمكن ابراهيم باشا بمساعدة الأمير بشير الثاني واللبنانيين من إخماد الثورة
النمسطينية ، فإنه تمكن ، كذلك ، بمساعدة الأمير خليل ، ابن الأمير بشير ،
من قمع ثورة طرابلس واللاذقية وفرض الهيبة في سورية .

وما أن استتب الأمر لابراهيم باشا بعد إخماد الثورات ، حتى شرع
في اتخاذ التدابير لتجنيد اللبنانيين ونزع سلاحهم . وكان لسياسته هذه أسوأ
النتائج وأوخم العواقب على حكمه في هذه البلاد ، لأن اللبنانيين لم يحاربوا
عساكر الدولة العثمانية إلا سعيًا وراء الحرية المطلقة . وقد بدأ ابراهيم باشا
في تفريق كلمة اللبنانيين قبل أن يباشر مهمة نزع سلاحهم وتجنيدهم ،
فأوهم المسيحيين أنهم سيعفون من تسليم السلاح . وفي أوائل عام ١٨٣٥ ،
اتصل ابراهيم باشا بالأمير بشير الثاني ومشايخ الدروز طالباً منهم مجتدين ، فأجابه
بأنهم لا يستطيعون إكراه أحد على التجنيد . عندئذ عمد ابراهيم باشا إلى استعمال
الشدة ، فأرسل مرسوماً في ٢٧ سبتمبر عام ١٨٣٥ إلى الأمير بشير يخبره
فيه أنه حضر إلى زحله ومنها سيحضر إلى بيت الدين ، ويأمره بأن يعلن
ضرورة جمع السلاح من الدروز وأن يحذرهم من عواقب مخالفة هذا الأمر ..

ببواضطر الأمير بشير الثاني ، أمام هذا الضغط ، أن يفرق أولاده وحفدته في المقاطعات لجمع السلاح . وفي نفس اليوم احتل ابراهيم باشا دير القمر . وبيت الدين وبدأ في نزع السلاح من الدروز تمهيداً لتجنيدهم . ويصف كتافكو ، قنصل النمسا ، هذا الهجوم فيقول : «وقد استولوا (الجنود المصريون) من ليلة ٢٧ إلى ٢٨ أيلول على دير القمر وبيت الدين دون أن يلاقوا مقاومة أو يطلقوا طلقاً واحداً . وهذا يحمل على الاعتقاد ان الأمير بشير على اتفاق تام مع ابراهيم في هذا الصدد . وهم ينزعون الآن سلاح الدروز وبعض المسلمين الموجودين في دير القمر وجوارها . بقي علينا أن نعرف هل يعنى مسيحيو الجبل من هذا التدبير وهل يتم نزع السلاح في كل مكان بهذه السهولة» (٦٧) .

وقد تم ما تساءل عنه القنصل كتافكو، وجمع السلاح من المسيحيين . فقلقد كتب في ١٢ اكتوبر عام ١٨٣٥ يقول : «اتشرف بأن افيدكم أن جبل لبنان قد وقع تحت سلطة الحكومة المصرية وقد احتله الجنود المصريون في ٢٨ أيلول الماضي من غير أن يلقوا أدنى مقاومة . وهذا يدل على أن هذا الأمر تم برضى الأمير بشير واتفاقه مع ابراهيم باشا . وهذا موجود الآن في دير القمر حيث يراقب نزع السلاح من كل اللبنانيين من دروز ومسلمين ومسيحيين حتى اذا انتهى من هذه المهمة اهتم بالتجنيد الذى لا بد ان يتم بدون صعوبة» (٦٨) . وبعد نزع السلاح فعلاً بدأ التجنيد في عام ١٨٣٧ . ويلاحظ أن ابراهيم باشا اتبع خطة تكتيكية تدريجية في جمع السلاح ، إذ بدأ جمعه من المسلمين والدروز في سورية ولبنان أولاً مستعيناً بالأمير بشير الثاني والموارنة في ذلك . وعندما انتهى من جمعه من المسلمين والدروز جمعه من الموارنة . واتبع الخطة نفسها في التجنيد فإنه ابتداءً باجراء التجنيد في سورية وحوارن مستعيناً بالموارنة . وبعد أن أنجز المهمة هناك ارتد إلى لبنان . وقد رافق تنفيذ سياسة التجنيد الاجبارى قيام اثورة من قبل الدروز في حوران . في عام ١٨٣٧ ، وشاركهم فيها دروز فلسطين ووادي التيم وجبل لبنان . وكان ابراهيم باشا قد أعنى دروز حوران من التجنيد ثم تراءى أنه أن يطبق

عليهم نظام التجنيد ، و كانت حاجته أنه في حاجة إلى زيادة عدد الجيش . استعداداً لصد هجوم العثمانيين الذي جاءت الأخبار بقرب وقوعه .

أنفذ ابراهيم باشا ثلاث حملات لإخماد ثورة دروز حوران ، ولكن الثوار استدرجوا الحملة الأولى إلى الجهات الجبلية الوعرة في بلاد اللجاء ، وانقض عليها الدروز ، ودارت بين الفريقين معركة بطش فيها الدروز بالحملة المصرية ، فقتل قائدها وأبيدت الحملة قتلاً وأسرّاً وتشريداً . وأرسل ابراهيم باشا إلى أبيه يطلب منه ارسال وزير الحربية المصري لقيادة الحملة الثانية ، ولكن الثوار استدرجوها كما استدرجوا الحملة الأولى ، وتم هزيمتها . وتصعدت هيبة الجيش المصري بانتصارات الدروز ، واستشرت الثورة من حوران إلى وادي التيم فثار الدروز فيها بقيادة شبلي العريان وقطعوا مواصلات الجيش . وجهز ابراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل . أطبق بها على ثوار حوران ووداي التيم . ونشبت الحرب وكانت سجالاً ، إلى أن انتهت بتسليم دروز وادي التيم ، ثم تسليم شبلي العريان ، وانحصار الثورة في اللجاء التي تم إخمادها في أغسطس عام ١٨٣٨ (٦٩) . وبذلك انتهت ثورة الدروز بعد أن استمرت تسعة أشهر وامتصت طاقات مصر العسكرية وسببت خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وتدهورت نسبة السيادة المصرية في صفوف الأهالي المقيهورين والمستائين من نظام التجنيد . وقد كافأ محمد علي الأمير بشير الثاني والموارنة على دورهم في قمع ثورة حوران بأن أرسل اليهم أربعة وعشرين ألف بارودة « للموارنة واولادهم واولاد اولادهم » ، وجدد لهم وعود ابنه ابراهيم باشا بتخفيف الضرائب عنهم وبإعفائهم من السخرة (٧٠) .

ولا يغيب عن الذهن ما كان للدسائس العثمانية والإنجليزية من أثر كبير في تحريك تلك الثورات ، لاسيما وأن الاحتلال المصري لبلاد الشام قد أحدث تغييراً خطيراً في الوضع الدولي . ولذلك قررت إنجلترا العمل على الحد من مطامع محمد علي ، وبدأت تمارس نشاطاً سياسياً في بلاد الشام منذ

أوائل عام ١٨٣٥ حينما وصل ريتشارد وود (Richard Wood) إلى بيروت ، وكان يعمل في السفارة البريطانية في الآستانة . وفي هذا الصدد كتب أحد المعاصرين لتلك الأحداث يقول :

«دخلت سنة ١٨٣٩ والأمور في سورية على مارويناه لك ، وبما أن دوام الحال من المحال شاء ربك تغييراً في البلاد ، فجاءها جاسوس من قبل الدولة السكسونية (الانجليزية) ونزل في كسروان وانتحل من المعاذير أنه قدم ليتعلم لغة البلاد ، دخل الرجل الذي سميناه جاسوساً ، واتمه الحقيقي وود وكان ترجحاً لقنصل دولته بالآستانة ، وأظهر في بادئ الأمر ميلاً غريباً إلى تعلم اللغة العربية ، وتغلب على امياله لدرس أحوال البلاد ونقد الحكومة الحاضرة ، ولكن تظاهره لم يسدل على عيون النقاد وشاحاً أعماها عن معرفة غرضه الرئيسي ، ولا مشاحة ان دولة الانجليز أكثر الدول استعماراً ، وكأتمها أوجست خيفة من الدولة المصرية التي مع حداثة نشأتها أصبحت في مصاف الدول المرتقبة ، وكأتمها لحظت ان محمد علي باشا يطمع بعد ضم البلاد في احياء الدولة العربية القديمة وارجاع دولة اسلامية عربية هذا شأنها في تنظم أحوال الرعية قامت على أساس العدل وجارت به الدول المتقدمة ولم تغفل بطلها ابراهيم باشا - نابوليون مصر - بل ذكرته وذكرت كل حسنات دولة مصر الفتاة ، فخافت منها أن تكون مزاحمتها في الاستعمار ، فرامت مقاومتها ولذلك ارسلت رجلها الذي ذكرناه فأخذ يلقي بنبرو الشقاق في قلوب الأهالي ويوغر صدورهم على الحكومة الحالية وجعل مركزه كسروان» (٧١) .

وكان هدف وود الأساسي أن يبعد الأمير بشير الثاني عن محمد علي ، لاسيما أن وقوف بشير إلى جانب محمد علي في عام ١٨٣١ ، هو الذي سهّل اخضاع بلاد الشام للسيطرة المصرية . ولهذا عمل وود على الوقعة بين الحليين وأخذ يحث الأمير بشير الثاني على الثورة . وتلقى الأمير بشير مقترحات وود بتردد ، وأجاب بلباقة : لا يسع اللبنانيون النهوض بثورة ما لم تصبح السهول الساحلية والداخلية بيد العثمانيين أو حلفائهم إذ لا ينتج الجبل من

الخطة ما يكفي أبناءه إلا ثلاثة أشهر . فإذا قاموا بثورة وظل المصريون
أسياد الساحل والسهل يتمكن هؤلاء من القضاء على اللبنانيين جوعاً بإقامة
حصار حولهم ، ويجب على الأقل أخذ بيروت وطرابلس من القوات
المصرية (٧٢) . وقد قضى وود فترة في لبنان لتحريض الدروز ضد الأمير
بشير الثاني وحليفه ابراهيم باشا ، كما بذل محاولات عديدة لابعاد الموارنة
عن فرنسا . ومما لاجدال فيه أن سياسة وود كان لها تأثير كبير في تشجيع
الدروز على مقاومة الحكم المصري وإثارة القلاقل في وجهه .

ومن ناحية أخرى ، شجعت حركة التمرد الدرزية ضد الحكم المصري
السلطان محمود الثاني على الإسراع بوضع خطة للتأثر من محمد علي واسترجاع
سورية . ففي ابريل عام ١٨٣٩ عبرت القوات العثمانية الفرات وزحف
على سورية ، ولكن ابراهيم باشا انتصر انتصاراً ساحقاً على قوات السلطان
في موقعة نريب شمال شرقي حلب في ٢٤ يونيو من نفس العام . وبوقوع
هذه الهزيمة العسكرية . اضمحلت جميع آمال العثمانيين في استرجاع سورية
واخضاع الوالي للسلطان . وبعد خمسة أيام فقط من الكارثة قضى السلطان
محمود الثاني نجه ، وحمل معه إلى مثواه الأخير أشلاء كل أحلامه المتعلقة
بتجديد الامبراطورية العثمانية وبعثها . واحتلت المسألة السورية مركز الصدارة
في قضايا الساعة . فقد أكد انتصار نريب احتلال هذا الاقليم الذي استولى
عليه محمد علي في عام ١٨٣٣ ، بينما كان هدف الهجوم العثماني تقويض
الوضع القائم المفروض في تلك الأثناء ، ورد الجيش المصري إلى ما وراء
حدود ولاية عكا الطبيعية . ولما أصبحت الآستانة والسلطنة العثمانية مهددة
بالتمرد أمام قوات ابراهيم باشا ، تأهبت روسيا لارسال جيش للدفاع
عن الامبراطورية العثمانية بموجب معاهدة أونكيان اسكلسي الموقعة بينهما
في عام ١٨٣٣ (٧٣) . ولكن في ٢٧ يوليو عام ١٨٣٩ قدم سفراء الدول
الخمس الكبرى (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا) مذكرة مشتركة
إلى الباب العالي ، يطلبون فيها منه ألا يعقد أى اتفاق مع محمد علي دون
موافقة الدول الأوروبية . وكان اشتراك فرنسا في المذكرة من الأمور

الغريبة -، إلا أنها أرادت باشتراكها هذا أن تحول دون انفراد روسيا بحماية الدولة العثمانية . كما كان انضمام روسيا المفاجيء إلى جانب الدول بمثابة ضربة موجهة للسياسة الفرنسية جعلتها تضطرب وتحار في تلك السياسية . ولما لم تستطع إنجلترا أن تقنع فرنسا بما اعتزمت منحه لمحمد على من ولاية مصر وولاية عكا ، لجأت روسيا إلى إنجلترا وأظهرت استعدادها للموافقة على هذا الحل . وأرادت روسيا بذلك أن تعزل فرنسا وأن تشترك الدول الأربع الأخرى في تقرير مصير هذا النزاع بعقد مؤتمر لتلك الدول الأربع في لندن . ولكن محمد على قرر خوض المعركة حتى النهاية ، مهما كانت الظروف والاحتمالات ولو اضطُر إلى محاربة الحلفاء الخمسة . عندئذ فكر في التعبئة العامة في لبنان وفي تعميم التجنيد الاجبارى على الموارد الذين كانوا معفيين منه وبلغ عددهم مائتين وخمسين ألفاً (٧٤) .

وفي مطلع عام ١٨٤٠ شاع خبر عزم الحكومة المصرية على تجنيد النصارى في لبنان . واستغل جواسيس وعملاء إنجلترا هذه الأخبار لإثارة هواجس الموارد ومخاوفهم مغتربين كل القرص والمظاهر لإشاعة القلق . ومن الحوادث التى استغلها خصوم محمد على إلى أقصى حد إشاعة اعتقاله في مصر للتلاميذ اللبنانيين النصارى في مدرسة الطب وتجنيدهم في العسكر النظامى . ولما ذاع هذا الخبر في لبنان ثبت الموارد في اعتقادهم أن الحكم المصرى عازم على تجنيد شبابهم . واتفق أن وصل إلى بيروت في تلك الأثناء مركب مشحون بملايس عسكرية ، فأشيع أنها معدة لشبان النصارى اللبنانيين فاشتدت مخاوفهم من التجنيد (٧٥) . وفي أوائل مارس عام ١٨٤٠ اتفق نصارى دير القمر سرّاً مع دروز الشوف والمناصف على مقاومة التجنيد ونيزد الحكم المصرى فيما لو أعلن هذا التجنيد . وعندما علم الأمير بشير الثانى بذلك حذر الناس وكتب إلى أهالى بسكتتا يقول : «بعد الشوق بلغنا ان جهال دير القمر قد ارسلوا لكم مكاتيب لاجل يغشوكم كما غشوا ذواتهم لكى يرموكم تحت اغبار الخاطر وانكم ما قبلتم ذلك ولا جاوبتوهم ولكن رافة بكم وخشية لثلا يغشوكم بكثرة المراسلات اقتضى اصدار

هذا الامر اليكم نَحْذِرْكُمْ وننصحكم من الوقوع بهذا الغلط الذي يوجب خراب الديار وقلع الاثار واذا كان عندكم مراسيل من الدير حالا اطردهم او ارموا عليهم القبض وارسلوهم بطرفنا يكون معلومكم» (٧٦) . ولما علم ابراهيم باشا باتحاد النصارى والدروز ، أصدر في ٦ مايو عام ١٨٤٠ أمراً بجمع السلاح الذى كان قد وزعه على النصارى كهبة لهم ولذريتهم . وعلى اثر ذلك دارت مفاوضات بين نصارى دير القمر وسائر المقاطعات ، وقرر الجميع مقاومة نزع السلاح ، وانطلق مائة رجل من دير القمر وطردهوا قائد الحملة الذى أرسله الأمير بشير الثانى بناء على أوامر ابراهيم باشا لجمع السلاح من نصارى المناصف والشحار (٧٧) .

تحرك أهالى دير القمر نصارى ودروزاً وبعثوا برسائل وكتابات إلى النصارى والدروز والمسلمين والشيعة في كل الجبال ينددون فيها بتدابير محمد على ويحرضونهم على مناهضة الحكيم المصرى . وانحدر أهالى دير القمر إلى ساحل صيدا وقطعوا الطرقات لمنع تحرك قوات ابراهيم باشا وحاصروها في صيدا . وبادر الأمير بشير الثانى إلى معالجة الأمر وتطويق الفتنة ، فتمكن بالحملة والإقناع من إعادة أهالى دير القمر من سواحل صيدا إلى بلدتهم . ثم عمل على الفصل بين النصارى ودروز الشوف والعقوب والغرب الفوقانى والجرد مستخدماً الإغراء بالمال والوعود ، فاستمال الدروز واتخذهم أخصاء له ومدّهم بالسلاح (٧٨) . ونتيجة لذلك ، خمدت الحركة في دير القمر والمناطق المذكورة وساحل صيدا ولكنها هبت في المتن والشحار والغرب التحتانى وكسروان وقاطع بيت شباب وبكفيا ، ونهض أهالى هذه المناطق ونزلوا إلى سواحل بيروت وحاصروا القوات المصرية فيها . فأرسل الأمير بشير الثانى إليهم ابنه الأمير أمين ليفاوضهم ويقنعهم بالكف عن الثورة فأوضحوا له مطالبهم وشروطهم وسجلوها في صك خطى . وكانت أهم مطالبهم : منع دخول جيش غريب إلى لبنان ، ورفع الظلم عنهم ، وإطلاق حريتهم في نقل السلاح ، وألا يؤخذ منهم نظام (أى لا يجندوا) ، وأن لا يكرهوا على العمل في المعادن وعلى السخرة ، وألا يدفعوا إلا

ملا واحداً ، وأن يتخذ الأمير بشير له مستشارين في ديوانه من كل طائفة اثنين (٧٩) . وطلب الثوار توقيع هذا الصك من محمد علي كتعهد منه بقبول الشروط ؛ كما طلبوا كذلك أن يضمن قناصل الدول الأوروبية في بيروت وصيدا هذه الشروط والحيلولة دون اخلال محمد علي بوعوده . وأجابهم الأمير أمين بأنه يمكنهم الاحتفاظ بالسلاح . وأن نظام التجنيد الإجباري في عسكر مصر النظامي لا يسرى عليهم . أما بقية الشروط . فتعهد أن ينظر فيها الأمير بشير الثاني ومحمد علي . ولكن الأمير بشير رفض تلك المطالب مما دفع المجتمعين في البوشرية والشيح على المضى في ثورتهم . وحاول سليمان باشا الفرنساوي ، قائد القوات المصرية في بيروت . اقناع الثوار باذلا لهم الوعود ، لكنهم أجابوه بأنهم لا يصدقون وعود محمد علي وابنه «وأنهم يفضلون الموت على الظلم» (٨٠) . وعلى أية حال ، كانت النقمة عامة على الحكم المصري ، فوصفها بوريه (Bourée) . قنصل فرنسا في بيروت ، في تقريره المؤرخ ١٤ يونيو عام ١٨٤٠ بقوله : «لا يوجد في لبنان رجل ولا أمير ، ما خلا الأمير بشير ، غير مستعد لدى أول تحريض لأن يسد بوجه ابراهيم باشا وكل جيوشه المصرية مداخل الجبل» (٨١).

وفي ٧ يونيو عام ١٨٤٠ ، اجتمع اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم ونحلهم في كنيسة مار إلياس أنطلياس ، ووقعوا اتفاقية جاء فيها : «انه يوم تاريخه قد حضرنا إلى مارى الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا بوجه العموم من دروز ونصارى ومناولة واسلام المعروفين بجبل لبنان من كافة القمري وقسمنا ممين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرر احد منا أبدا بل يكون القول واحد والرأى واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدث منا وبان ادنى خلل نكون باريين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والخطوط الخمسة وتكون نساؤنا طالقة من السبعة مذاهب ومحرمة علينا من كافة الوجوه وايضا يشهد علينا القديس مار الياس ويكون خصمنا وقد اقمنا علينا شيخا جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذى نخون منا يكون

مار الياس خصمه ولا يكون له موة على دين المسيح » (٨٢) . واندلعت الثورة وامت زحلة وبعلبك وانضم إليها أهل شمالى لبنان وبعض الكسروانيين . وحاول الثوار اللجوء إلى فرنسا للحصول على تأييدها ولكن فرنسا اتخذت موقف الوسيط بين الطرفين فأرسلت عدة بعثات إلى كل من محمد على والوارنة . وبينما كانت فرنسا تحت محمد على على الحلم والتساهل والوفاق مع اللبنانيين ، فإنها كانت تحض الوارنة على الهدوء والتأني والحكمة وتحذره من مغبة الثورة على محمد على (٨٣) . أما الدول الأوروبية الأخرى ولا سيما إنجلترا ، فقد أمدت الثوار بالمال والسلاح . ولم يقتصر هذا الأمر على ممثلى إنجلترا السياسيين ، بل قام أفراد بريطانيون كاللورد إدجرتون (Edgerton) واللورد ألفتنى (Alveney) بانزال ثمانمائة بندقية وكمية ضخمة من الذخيرة والعتاد للثوار فى ميناء جونيه . كما أنفقت بعثة وود فى لبنان فى عام ١٨٤٠ مالا يقل عن تسعمائة ألف فرنك (٨٤) . وقرر محمد على ارسال عباس باشا إلى لبنان ومعه قوة تبلغ اثنى عشر ألف مقاتل ، فرصل بيروت فى ٢٧ يونيو عام ١٨٤٠ . وطوقت القوات المصرية جبل لبنان براً وبحراً من كل الجهات وزحفت عليه . فانسحب الدروز من المعركة التى انتهت بانتصار القوات المصرية . وفى منتصف يوليو هاجمت القوات المصرية القرى الواقعة بجوار بيروت وهى المكلس والمنصورية وبيت مرى وبطنية ووادى شحرور فنهبوا وأعملوا فيها السيف والنار فتبدد شمل الثوار وانقطعت عن القتال . وقام الأمير بشير الثانى بجمع السلاح ومطاردة الزعماء والقبض عليهم وارسالهم إلى الاسكندرية (٨٥) .

ولقد حسمت أخبار الثورة الواردة من لبنان المفاوضات الدائرة بين إنجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا فى لندن ، وعجلت بتوقيع معاهدة لندن فى ١٥ يوليو عام ١٨٤٠ . وهكذا أعطت الأموال التى انفقت فى لبنان ثمارها . ولم يعد وضع محمد على بعيد المنال . وتعهدت الدول الأوروبية بمقتضى هذه المعاهدة بمساعدة السلطان فعلاً فى اخضاع محمد على ، وتضمن

الملحق المرفق بالمعاهدة المسائل التي تعهد السلطان بعرضها على محمد علي وهي أن يخول محمد علي حكومة مصر وراثية وولاية عكا طوال حياته ، وأن يكون لمصر حق الاستقلال الداخلي بقيود متينة تربطها بالدولة مثل الجزية وعدم تمثيل مصر في الخارج وتحديد الجيش والأسطول وسلطة منح الألقاب وضرب النقود . فإذا لم يقبل هذه الشروط في عشرة أيام تنقص من حقوقه حكومة عكا ، فإذا تأخر عشرة أيام أخرى ولم يقبل كان للسلطان الحق في اتخاذ أى طريق تشير به عليه مصالحه الخاصة ونصائح حلفائه . وهكذا لم تعد انتضية مسألة انتصار الباب العالي على وال متهم بل مسألة وصاية صارمة فرضتها أوروبا المتحالفة على الامبراطورية العثمانية كلها ، بما فيها مصر وسورية وفلسطين . وفي الواقع عقدت الدول الأوروبية ائتلافاً عزمها على القيام بعمل عسكري سريع في سورية لإضعاف قوة محمد علي . وقد ناقش ثيير (Thiers) ، وزير خارجية فرنسا ، هذه الناحية في مذكرة وجهها إلى بامستون وأبدى فيها استغرابه لادعاء إنجلترا بأنها تريد إحلال السلام في الشرق بينما تثير القلاقل في المنطقة عن طريق امداد أهالي لبنان بالمال والسلاح للتمرد على الحكومة المصرية (٨٦) . ولكي تتدارك فرنسا تدخلا من قبل الحلفاء في سورية ، أرسلت بتعليمات دقيقة إلى قنصلها في الاسكندرية لحث محمد علي على بذل كل جهد من أجل ضمان ملكية سورية مهما بلغ الثمن حتى يبطل مفعول معاهدة لندن . وجاء في تلك التعليمات أنه «إذا تمكن الوالي من إحلال السلام في لبنان ، وجعل الاسكندرية وعكا في مأمن من كل هجوم ، وحشد جيوشه في سورية ينسك بزماتها وفي سفوح جبال طوروس ليكون مستعداً لصد أعدائه والتهديد بالانقضاء عليهم ، حتى لا يصبح عندئذ في وضع ينال منه أحد ، ولا مجال إلى إضعافه أو إرغامه على أى شيء ، ولستقطت مشاريع البلاطات الأربعة ، ذلك أن هذه الدول لا تملك أية وسيلة ضغط مباشرة لارغامه على أى تنازل . وعندئذ تتحقق أهدافه وأهدافنا . ولكن الأمر لن يكون كذلك إذا اتبع محمد علي عواطفه العدائية وسعى إلى أكثر من ذلك ، بدل أن ينتهج هذه السياسة الرزينة ..» (٨٧) .

على أية حال ، اكتملت هزيمة مصر الدبلوماسية في لندن بالرغم من تشدد فرنسا . وتتابعت الأحداث بسرعة هائلة ، وعين السلطان العثماني عزت باشا قائداً أعلى لقوات البر والبحر مكلفاً بإياه طرد محمد علي من سورية ولبنان . وسار الأسطول العثماني وعلى ظهره ستة آلاف رجل من البوسفور إلى قبرص حيث اجتمع بأسطول الحلفاء (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا) . وفي أوائل أغسطس عام ١٨٤٠ ، ظهرت أمام بيروت أربع سفن من الأسطول البريطاني يقودها الكومودور شارل نابيير (Napier) الذي أعلن أنه جاء لإنقاذ الأهالي من النير المصري ، ودعاهم إلى الثورة على هذا الحكم الذي أفقرهم . وجاء في بيان نابيير ما يلي :

«أيها السوريون : ان بريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا بالاتفاق مع عظمة السلطان قد اتفقت جميعاً على إنهاء حكم محمد علي في سورية . وقد أرسلت على رأس قوة بحرية متقدمة لمساعد في إزالة نير الحكم الذي بسطه باشا مصر على هذه البلاد .

انكم تعلمون أنه قد صدر عن عظمة السلطان « خط شريف » يضمن سلامة رعاياه وضمان ممتلكاتهم ، وينطبق مفعول هذا « الخط الشريف » على جميع أجزاء الامبراطورية العثمانية بما في ذلك هذه البلاد بالذات . كما أن الدول الحليفة قد رفعت توصية إلى عظمة السلطان من شأنها أن توفر لكم الخير والراحة .

يأهالي لبنان الذين تسنى لي أن أراكم من على ظهر برجتي ، أدعوكم إلى الثورة وإلى خلع نير الظلم الذي تنتون تحت ثقله . واند نتوقع بين ساعة وأخرى وصول الجنود والسلاح والذخيرة من استانبول : سنحمي شاطئكم من هجمات الجيش المصري إذا ما حاول ازعاجكم .

ياجنود السلطان ، انتم يامن أخرجتم من بيوتكم ودياركم بالمكر والخديعة وقدنفوا بكم لتحاربوا في رمال مصر الحارقة . ومن ثم نقلوكم إلى سورية ،

اننى أدعوكم باسم الدول الحليفة العظمى إلى أن تعودوا إلى ولائكم القديم ،
إلى احضان السلطان . هذا واننا سنتفاوضى عن الأحداث التى وقعت ،
وسوف نتناساها . كما أنه ستدفع لكم مرتباتكم المتأخرة التى لم تدفع .. » (٨٨)

ومن ناحية أخرى . أخذ نابيير يعمل مع وود ومور . تنصل إنجلترا
فى بيروت على إثارة اللبنانيين . واتصل الثلاثة بالأمر بشير الثانى وحضوه
على الانفصال عن محمد على مقدمين باسم الحكومة البريطانية ضمانات
تتعلق باستقلال لبنان وحرىات الموارثة والدروز (٨٩) . وكتب ريتشارد
وود إلى الأمير بشير الثانى ليضمن انضمامه إلى جانب الدول الكبرى خلال
عمليات اخراج المصريين من الشام بالقوة محذراً من الاعتماد على قوة مصر
أو تأييد فرنسا لحاضد رغبة الدول الأوروبية الكبرى . وجاء فى تلك الرسالة

«والأمر حاضرة لهما من الاستانة العالية فر كاتا (٩٠) انكليز دغرى ،
وبرفتها حضر لسعادتكم فرمان شريف خاقانى عليلد (٩١) سعادة آلى (٩٢)
دولة الانكليز اللى منطوقه السامى تبثيت سعادتكم متوليا من قبل دولته
على المقاطعة جميعاً الذين تحت حوذة سعادتكم الآن . كما انه ممنوح به
أيضا صفو الخاطر (الملوكى) لنحز سعادتكم .

« وكامل ما هو محتويه هذا فرمان الشريف فهو مثبت اجراه حيث
إنه كاين بواسطة (الشى) دولتنا (المحترمة) . (وسعادة) اجناب كافلا
بموجب وظيفته من قبل الدولة الانكليزية المعظمة لأجل كلما محتويه هذا
الفرمان المشار اليه بما يختص بصالح سعادتكم . ولم ارتضينا نوجهه الان
خشيتنا من انه ينحاش (٩٣) من احد او يفقد ، بل قصدنا نعرض عنه
لسعادتكم لاجل ان (تبعثوا) معتمد معلوم لنسلمه اياه .

«والاوفق أن يكون مصحوب بمشرفة أيضاً لأن الان صار مقتضى
ان سعادتكم (ترموا) ميلكم فى جهة الدولة انطية بكل حرية حيث ان هذه
الدولة العثمانية الآن مشهور خاطرها لنحو سعادتكم ، ومخاضة بالاسعاف
من الأربعة دول (التوين) (٩٤) باروبا لتأييد مرغوباتها .

« فاذا لم يبق ادنا شبها انتى توجب الخوف من أن محمد على باشا يفوز
بمرغوبه ضد كل هذه (القوة) الملوكية فلا بد لكل ذكى الذى اخصهم
سعادتكهم ، يلاحظ قوة هذا الظرف ، وانه لا بد عن نفوذ ما قد حتموا
برأيهم به ذوى القوة الملوكية المتحدة .

«ونظن ان يوافق سعادتكهم أكثر الحصول على الحرية وأن تكون الاحكام
منزها عن كل يد بل متصلة من الباب الملوكى ومثبتة تحت مناظرة أربعة ملوك
الاقوياء باروبيا ، ولا تكون تابعة الى باشا الذى حاصل الحظر المبين الى
التأخير وعدم النفوذ لاله ولا إلى المتولين من قبله . وهذا الشرف مختص
كما اعرضنا من البداية بذات سعادتكهم حسب الميل والحب ، وليس الى
البلاد لانها صارة بحساب الميل والحب ، وليس إلى البلاد لانها صارة بحساب
تحت طاعة وأحكام الدولة (العثمانية) من حينما بقى رأى رأى الملوك (على)
ذلك...» (٩٥)

وتوالت عروض الانجليز والعثمانيين على الأمير بشير الذى للانفصال
عن ابراهيم باشا وأبيه ، وتعهدوا له بأنه إذا لبى مطالبهم يبقونه والياً كما كان
وتكون الولاية على الجبل له ولذريته من بعده . ولكن بشير لم يتأثر بهذه
العروض وأجاب «معتذراً بوجود أولاده وأحفاده بين عساكر ابراهيم باشا
ومغترأ بأخبار الفرنساوية أن مراكبهم قادمة لاسعاف العزيز» (٩٦). ووجه
الأمير بشير الثانى فى ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ تحذيراً وتهديداً لكل من يتصل
بالانجليز وحلفائهم أو يتعامل معهم بأى شكل من الأشكال .

ورغم موقف الأمير بشير الثانى ، فقد بذلت الجهود لإثارة جبل لبنان
لضرب معنويات المسؤولين المصريين واجبارهم على الاستسلام . وتقرر
مصر سوربة فى شهر سبتمبر إثر قصف بيروت وإنزال القوات الخليفة
فيها وثورة الموارنة التى أعقبت ذلك . ولكن ما كانت المحاربة المسلحة لتنجح
لو لم يمهّد العملاء لذلك بنجاح فى أوساط أهالى الجبل . فجرى توزيع
المال والسلاح على أهالى جبل لبنان على يد عملاء أخصائيين ومبشرين

بروتستانت وكاثوليك . فوضع الأب اليسوعي ريلو (Rylo) نفسه في خدمة قضية النسا والحلفاء لدى الموارنة . وكانت علاقاته مع الضباط الإنجليز والعملاء العثمانيين حديث الجميع ، بالرغم من أن رئيسه العام الأب روثنكان (Roothcan) نصحه في ١٢ سبتمبر بالتزام الحذر الشديد . واعتقد انه يخدم في نفس الوقت قضية رهبانيته وقضية الحلفاء فأخذ يوزع السلاح على الموارنة متوخياً من ذلك أن يحصل من الباب العالي على تصريح ببناء دير في بيروت . وعلم المصريون بنشاطاته السياسية والعسكرية فأعلنوا عن جائزة لمن يأتي به حياً أو ميتاً . ونتيجة لتأثير دعاية هذا الأب اليسوعي ، اعتقد الجبليون اللبنانيون بأنهم يتطوعون في حرب مقدسة ضد إدارة ابراهيم باشا . ولكن فرنسا لم تغفر له هذه الخيانة ، فجندت اللعازارين من باريس لصالح محمد علي . فأرسل الأب إتيان ، المسئول العام عن المرسلين اللعازارين ، إلى لبنان ليحارب نفوذ اليسوعي ريلو (٩٧) . إلا أن تدخل الدبلوماسية الفرنسية المتأخرة لم يوقف ثورة الموارنة التي اتسع نطاقها في أواخر سبتمبر عام ١٨٤٠ .

وبينما كانت حكومات أوروبا تناقش مصير محمد علي ، تسارعت الأحداث في لبنان . فقد نزلت قوات الحلفاء إلى البر وأقامت معسكراً حصيناً بين بيروت وجونية على مصب نهر الكلب . ومن هناك وزع في غضون بضعة أيام ١٢,٠٠٠ بندقية مما أدى إلى تمرد حوالى ١٤,٠٠٠ من سكان الجبل (٩٨) . وفقد الأمير بشير الثاني كل أمل بعد سقوط بيروت ، فلما رأى رجحان كفة الحلفاء واتفاق كلمة أهل البلاد على مقاومة ابراهيم باشا قال لحناء بحرى الذى كان حينئذ في بيت الدين «قوم روح لعند باشتك وقل له لم عاد فائدة البلاد صارت جميعها صوت واحد» (٩٩) . وفي ١١ أكتوبر عام ١٨٤٠ غادر الأمير بشير الثاني بيت الدين ، كرسي ولايته ، مستصحباً أولاده الثلاثة وزوجته إلى صيدا ، ولكن الكومودور نابيير لم يرض بهذا الاستسلام وطلب ارساله إلى بيروت فسيروه بحراً إليها . ولما واجه السر عسكر عزت باشا خيره أن يختار محلاً لإقامته ما عدا

فرنسا وسورية ومصر ، فاختار جزيرة مالطة ، فأذن له وسافر من صيدا إليها بصحبة أولاده وأحفاده وزوجته ومدبره بطرس كرامة ونحو سبعين رجلاً من أمنائه وخدمه واستبقت له الحكومة أملاكه في لبنان وحمل معه أمواله . وكان السلطان عبد المجيد قد أصدر في ٣ سبتمبر عام ١٨٤٠ فرماناً بتعيين الأمير بشير قاسم (بشير الثالث) خلفاً للأمير بشير الثاني في حكم الجبل بسبب تأييده ومناصرته لمحمد علي . وبعد أحد عشر شهراً انتقل الأمير بشير الثاني من مالطة إلى الآستانة حيث توفي بها في عام ١٨٥٠ .

وفي العاشر من أكتوبر من الجيش المصري هزيمة فادحة في قلعة ميدان . فترجع إلى لبنان ثم إلى دمشق حيث تأهب إبراهيم باشا لتنظيم المقاومة . لكن الحلفاء قصفوا عكا فسقطت فوراً في ٤ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وكان للخيانة دور في هذا الانتصار الصاعق وخاصة خيانة المهندس الإيطالي ديلكازينو المسئول عن تحصينات المدينة الذي انضم إلى الأعداء وزودهم بالخطط الدفاعية . وبسقوط عكا انتهى وجود مصر في سورية وسلمت يافا ونابلس . وبعد أن تم للحلفاء احتلال الثغور السورية أرسل الأميرال ستوبفورد (Stopford) ، القائد العام لقوات الحلفاء ، بعض السفن الحربية الإنجليزية بقيادة نابيير إلى الاسكندرية لتهديد محمد علي وارعاهه على قبول مطالب الدول . ولكن لما تبين نابيير أنه لا سبيل إلى إخضاع محمد علي بالقوة ، فضل الاتصال به . ولم يجد محمد علي بداً من التسليم وخاصة بعد أن تخلت فرنسا عنه وانهارت قوته المعنوية بعد سقوط عكا . فاتفق نابيير مع الحكومة المصرية على تسليم الأسطول العثماني وإخلاء سورية ، مقابل أن تضمن الدول لمحمد علي حكومة مصر وراثية وألتمس سواحل مصر بسوء ؛ وتم توقيع هذا الاتفاق في ٢٧ نوفمبر عام ١٨٤٠ . وقد رفض السلطان العثماني الاعتراف بنص هذا الاتفاق ، ولم يقره بونسيني ، سفير إنجلترا في استانبول ، ولكن بامستون وافق عليه . وفي هذا الوقت بدأ إبراهيم باشا بناء على أوامر محمد علي في الجلاء عن سورية ، ونتيجة لتدخل الدول أرسل السلطان إلى محمد علي فرمان يونيو عام ١٨٤١ انذى تقرر فيه إعطاء

محمد على وأسرته حكومة مصر وراثية . وبذلك كانت خاتمة الأمير بشير الثاني ، أمير لبنان ، مرتبطة بخاتمة حليفه ، وبقي جبل لبنان بعد انسحاب الجيوش المصرية مسرحاً للمكائد والدسائس الدولية .

• وهكذا طويت صحيفة الحكم المصرى فى الشام بجلاء القوات المصرية عنه ، وصار ماله وما عليه ملكاً للتاريخ . وقد تحدث مؤرخو سورية عن الحكم المصرى بمناسبة انقضاء عهده ، وأخذوا على السوريين واللبنانيين الاستجابة لدسائس الانجليز والعثمانيين وقيامهم فى وجه الإدارة المصرية . فكتب محمد كرد على يقول : « كانت حسنات حكومة محمد على فى الشام أكثر من سيئاتها ، لأنها وضعت أصول الإدارة والحماية ورفعت أيدى أبواب الاقطاعات وأعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الأمير بشير الثانى والى لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد على فى مصر وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والأمراء المستبدين .. » (١٠٠) . وقال ميخائيل مشاقة : « كانت الدولة التركية خيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصرية ، فبعثت تدس الدسائس إلى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة ، وتبعهم الدروز فى حوران ووادي التيم ، فقضى المصريون معظم أيام دولتهم فى الشام فى الحروب والقتال » . لقد أصلح الحكم المصرى الأمور المختلة ، وقضى على الفوضى والقتال التى كانت سائدة فى بلاد الشام ، وقد أدى ذلك إلى امتعاض « أصحاب المقامات العالية والأفندية والأغوات (رؤساء الجند) .. لأنهم كانوا يثرون من ابتزاز أصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العامة ، وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصتهم من الظلم الذى أنوا تحت عبئه طويلا ، واغبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذى أوصلهم إلى درجة من الذل لا تطاق ، ولم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لأنه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة

فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شئ دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين ؛ وهكذا الأمر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأعفوا من الخدمة العسكرية ، والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة استلفوا مالا لأصلاح بيوتهم وتموينها ، وأعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .. » .

حواشى البحث

١ - أسرة اسلامية سنية تنتمى إلى قبيلة قريش ، وقدموا مع الجيوش الإسلامية واستقروا فى حوران . ولقد وقفوا بجانب صلاح الدين الأيوبي فى حروبه ضد الصليبيين ، وتمكنوا من الاستيلاء على منطقة وادى التيم من الصليبيين . وفى عهد الملك الصالح أيوب تغلبوا على الصليبيين فأقطعهم عدة أقطاعات فى سهل البقاع . وتحالفوا مع المعنيين ضد الأفرنج ، ووقفوا إلى جانبهم ضد العنمية لأنهم كانوا من القيسية . وبما تسلموا زمام الأمر فى لبنان تقربوا إلى نصارى بلادهم ، وخاصة الموارنة ، واستعانوا بهم كمديرين وكتابة ومدبري أحكام . ولكثرة اختلاطهم بهم وقفوا على مبادئ الدين المسيحي وتعاليمه ودانوا به الواحد تلو الآخر .

٢ - بعد موقعة عين داره عام ١٧١١ ، انقسم القيسيون فيما بينهم إلى حزبين : جنبلاطية ويزبكية . ونتيجة لذلك حدث انقسام بين الدروز والمسيحيين والمسلمين ، ولكن هذا الانقسام لم يؤد إلى تحيز أى حزب إلى الشهابيين أو ضدهم على الرغم من أن هذه الأحزاب قد تتورط فى تأييد فرد من الأسرة ضد فرد آخر . وينتسب آل يزبك إلى زعيم من آل عماد وهم أسرة درزية جاءت أصلاً من منطقة الموصل . ومنشأ الانقسام أن الشيخ على جنبلاط كان قد بلغ من النفوذ حداً أزعج أمير الجبل يوسف شهاب ، فأوقع الأمير بينه وبين الشيخ عبد السلام العماد ، وهو زعيم أسرة إقطاعية أخرى كبيرة ، وتحزب الناس بينهما ، فدعى أتباع جنبلاط : جنبلاطية ودعى أتباع العماد يزبكية نسبة إلى الجلد الأعلى للشيخ العماد وهو يزبك . (انظر : أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية فى العهد

العثماني ، حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو ١٩٥١ ، ص ١٧٣ .

٣ - عن هذه التطورات انظر : أحمد طربين ، أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (١٨٤٢ - ١٨٦١) ، دمشق ، ١٩٦٦ .

٤ - فيليب حتى ، لبنان في التاريخ (ترجمة أنيس فريجة ونقولا زيادة) بيروت ، ١٩٥٩ ، ص ٥٠٢ .

٥ - كانت تعاليم محمد بن عبد الوهاب تدور حول مسائل رئيسية هي : التأكيد بأن المعتقدات الإسلامية تقوم على ما جاء في القرآن ، ونبذ كافة المعتقدات التي أدخلت على السنة ، ورفض السيطرة الروحية التي تدعيها الخلافة العثمانية أو أية خلافة أخرى ، والامتناع عن توقيع أشراف مكة أو الأسياد (سلالة النبي) أو أولياء الله أو الدراويش ، وإعادة النظام في مسألة العبادة والصوم والحج ، وتحريم قاطع للخمر والدخان واليهو والسحر وليس الحرير أو تزيين الملابس بالذهب ، أو إقامة القباب فوق الأضرحة .

٦ - بدأ محمد بن عبد الوهاب دعوته بجدال أبيه وقومه ، وكان موضع الجدل «الوحدانية» رسالة الاسلام وفكرته الأساسية . ولهذا السبب أطلق ابن عبد الوهاب على نفسه وعلى أتباعه اسم «الموحدين»^١ . أما اسم «الوهابية» فقد أطلقه عليهم خصومهم واستعمله الأوروبيون ثم جرى على الألسن .

٧ - وثائق عابدين : محفظة بجرأ برأ وثيقة (٨) نقلا عن : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الدولة السعودية الأولى ، معهد البحوث والدراسات بجامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٤٣ .

٨ - حيدر الشهابي ، لبنان في عهد الشهابيين ، نشر أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ص ٥٥٦ - ٥٥٧ .

٩ - انظر نص القائمة المحررة لرجاء توجيه إيالة الشام لعهددة يوسف كنج في : عبد العزيز نوار ، وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث (١٥١٧ - ١٩٢٠) ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٤ .

١٠ - انظر نص القائمة المحررة إلى الباب العالى في : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٩ - ٣٧٣ .

١١ - انظر : عبد العزيز نوار ، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٧ - ١٩١ .

١٢ - يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام ، بيروت (بدون تاريخ) ، ج ١/٤٥٥ - ٤٥٨ .

١٣ - المرجع السابق ، ج ١/٤٦٠ .

١٤ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ، القسم الثالث : لبنان في عهد الأمير بشير الثاني ، منشورات الجامعة اللبنانية رقم ١٧ ، نشر وتحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٧٢٠ .

١٥ - المصدر السابق ، ص ٧٢٤ - ٧٢٥ .

١٦ - حيدر أحمد الشهابي ، تاريخ أحمد باشا الجزائر ، نشره أنطونيوس شبلي وأغناطيوس خليفة ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٩٩ - ٣١٦ .

١٧ - عن صلة المعلم نقولا الترك الواشجة : مصر انظر : عمر عبد العزيز عمر ، عبد الرحمن الجبرتي ونقولا الترك - دراسة مقارنة ، منشورات جامعة بيروت العربية (تحت الطبع) .

١٨ - نائب الوالى وكان يحكم مصر أثناء غيابه .

- ١٩ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين :
ج ٧٣٤/٣ .
- ٢٠ - المصدر السابق ، ص ٧٣٥ - ٧٣٦ .
- ٢١ - المصدر السابق ، ص ٧٣٧ - ٧٣٩ .
- ٢٢ - محمد علي إلى عبد الله باشا ، ٩ رجب ١٢٣٩ هـ في أسد رستم :
المحفوظات الملكية المصرية ، بيروت ، ١٩٤٠ ، ج ١/٥٩ - ٦٠ .
- ٢٣ - حيدر الشهابي . المصدر السابق ، ص ٧٥٤ - ٧٥٦ .
- ٢٤ - رستم باز ، مذكرات رستم باز ، تحقيق فؤاد أفرام البستاني ،
بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣ .
- ٢٥ - بولس قرأى ، المحلة السورية ، مايو ١٩٢٧ . ص ٢٦٨ .
- ٢٦ - حيدر الشهابي : المصدر السابق ، ص ٧٦٤ - ٧٦٥ .
- ٢٧ - M. Sabry, *L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et La Question d'Orient*, Paris, 1930, pp. 44 — 46.
- ٢٨ - Sabry, *op. cit.*, pp. 112—113.
- ٢٩ - Sabry, *op. cit.*, p. 180.
- ٣٠ - *Correspondance des Genreaux Beillard et Boyer*, p. 50.
- نقلا عن كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا : الجمعية الملكية
للدراستات التاريخية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٩٣ .
- ٣١ - حيدر أحمد الشهابي ، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ،
ص ٨١٨ - ٨١٩ .
- ٣٢ - المصدر السابق ، ص ٨١٩ .
- ٣٣ - G. Douin, *La Mission du Baron de Boislecomte*, Cairo, 1927, pp. 249— 50.
- ٣٤ - H. Dodwell, *The Founder of Modern Egypt*, Cambridge, 1967, p. 127.

- ٣٥ - أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ - ١٨٤١ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٥٠ .
- ٣٦ - أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، وثيقة رقم ٦١٦٦ ، ج ٤ / ٢٨٥ - ٢٨٦ .
- ٣٧ - مراكز الدرك .
- ٣٨ - حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٢٥ - ٨٢٦ .
- ٣٩ - المصدر السابق ، ص ٨٢٨ - ٨٣١ .
- ٤٠ - المصدر السابق ، ص ٨٣١ .
- ٤١ - أسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية ، ج ١ / ١٣٥ .
- ٤٢ - انظر : حيدر أحمد الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٨٣٢ .
- ٤٣ - المصدر السابق ، ص ٨٤٦ .
- ٤٤ - عن ولاء الأمير بشير لمحمد علي وإبراهيم انظر : أسد رستم ، المصدر السابق ، ج ١ / ٢١٦ - ٢١٨ .
- ٤٥ - نشر هذه الكتابات السرية في خزانة بكركي بولس قرألى في : الحلة السورية ، السنة ٣ (١٩٢٨) ، ج ٩ (ديسمبر) ، ص ٥٩٧ .
- ٤٦ - Sabry, *op. cit.*, p. 201.
- ٤٧ - راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٨ - ٧٥ .
- ٤٨ - انظر : سليمان أبو عز الدين ، إبراهيم باشا في سورية ، بيروت ، ١٩٢٩ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- ٤٩ - أطلق عليه لقب «حكمदार عربستان» لأنه أثناء السنوات الأولى كان يتولى إدارة الولايات السورية جميعها (انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٢) .

٥٠. F. Perrier, *La Syrie sous le Gouvernement de Mehmet Ali*, —

Paris, 1840, p. 53.

Perrier, *op. cit.*, p. 57.

—٥١

٥٢ — كتاب «حروب إبراهيم باشا المصرى فى سوريا والأناضول»،
ج ١/٣٧ — ٣٨ نقلاً عن سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ —
١٣٧

٥٣ — أسد رستم . الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على
باشا ، ج ١/٧٦ .

٥٤ — المرجع السابق ، ج ١/٨٧ — ٨٨ .

٥٥ — أسد رستم . بشير بين السلطان والعزير ، ص ١٠٠ — ١٠١ .

٥٦ — المرجع السابق : ص ١٠١ .

٥٧ — أسد رستم . المخطوطات الملكية ، ج ٢/١١٧ .

٥٨ — المصدر السابق ، ج ٤/٤٧٢ — ٤٧٣ .

٥٩ — المصدر السابق ، ج ٤/٤١٥ — ٤١٦ .

٦٠ — انظر : المصدر السابق ، ج ٢/٣٨٦ — ٣٨٧ .

٦١ — سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

٦٢ — «الفردة» أو «الفرضة» هو ما فرضته الإدارة المصرية على الذكور
من مختلف المذاهب البالغين من العمر من خمس عشرة سنة إلى ستين سنة ،
وكانت قيمتها ١٢٪ من دخل المكلفين ، ولهذا كان يختلف مقدارها بحسب
اختلاف درجات دخل المكلفين . وكان لها حدان أعلى وأدنى ، فلا تزيد
عن خمسمائة قرش على المكلف الثرى ولا تنقص عن خمسة عشر قرشاً على
المكلف الفقير . وقد كانت الفردة من أهم مصادر الدخل لخزينة محمد على
فى سورية ، وكان يقوم بتقديرها وتوزيعها على طبقات المكلفين ديوان
المشورة ، لكن الشكوى كانت كثيرة من المحاباة فى التوزيع . وتضاعفت
الشكوى إذ أخذ عدد المكلفين بالتناقص بسبب الوفيات والتجنيد والهجرة

لأن الرجال الباقين في البلدة أو المقاطعة كانت الحكومة تكلفهم دفع ما كان مفروضاً على المتوفين والغائبين . (انظر :

A. Laurent, *Relation Historique des Affaires de Syrie de 1840 à 1842*, Paris, 1846, T. I, p. 15.

أما إذا زاد عدد المكلفين في بلدة ما فكانت تزداد الضريبة بنسبة زيادة العدد . وكان يعفى من دفع الفردة رجال الدين والموظفون المدنيون والعسكريون ؛ كما أن الجنود لم يكونوا مطالبين بدفع الفردة في أثناء تجنيدهم ، غير أن أهلهم أو مواطنهم كانوا يكلفون بدفعها عنهم .

٦٣ - تقرير من أنطون كتافاكو ، قنصل النمسا في عكا ، إلى قنصل النمسا في الاسكندرية بتاريخ ١٤ ديسمبر عام ١٨٣٣ . انظر : المجلة البطريركية ، ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٤ .

٦٤ - نوفل نوفل ، كشف اللثام ، مخطوط بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ٤٨ نقلا عن : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

٦٥ - من كتافاكو ، فنصل النمسا في صيدا ، إلى قنصل النمسا في حلب في ٧ يوليو عام ١٨٣٤ : المجلة البطريركية : ابريل (نيسان) ١٩٣٠ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٦٦ - المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .

٦٧ - تقرير القنصل كتافاكو في الأول من أكتوبر عام ١٨٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

٦٨ - تقرير القنصل كتافاكو في ١٢ أكتوبر عام ١٩٣٥ : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

٦٩ - عن معركة اللجاء انظر : سليمان أبو عز الدين ، المرجع السابق ص ١٩٤ - ٢٢٠ .

P. Dib. *Histoire de l'Eglise Maronite*, Beyrouth, 1962, T. II, - ٧٠.
pp. 261-264.

- ٧١ - ميخائيل مشاقة . مشهد العيان بخوادث سوريا ولبنان ، مخطوط
بالجامعة الأمريكية ببيروت ، ص ١٢٦ .
- ٧٢ - M. Jouplain, *La Question du Liban*, Paris, 1908, p. 197.
- ٧٣ - راجع : جوزف حجار ، أوروبا ومصير الشرق العربي ،
ص ٦٨ - ٧٤ .
- ٧٤ - M. Jouplain, *op. cit.*, p. 201.
- ٧٥ - يوسف مزهر . تاريخ لبنان العام ، ج ١/٤٩٥ .
- ٧٦ - المرجع السابق . ج ١/٤٩٦ .
- ٧٧ - بولس مسعود . جلاء المصريين عن لبنان وسوريا ، المحلة
البتريكية . فبراير (شباط) ١٩٣٠ . ص ٧٦ - ٧٧ .
- ٧٨ - المرجع السابق . ص ٧٨ .
- ٧٩ - المرجع السابق . ص ٧٩ .
- ٨٠ - P. Dib., *op. cit.*, p. 270.
- ٨١ - P. Dib., *op. Cit.*, p. 268.
- ٨٢ - ابراهيم أبو سمرا غانم . أبو سمرا غانم ، بيروت ، ١٩٥٨ ،
ص ٤٨ .
- ٨٣ - Adel Ismail, *Histoire du Liban du XVIII. à nos jours*,
Beyrouth, 1958, T. IV, pp. 78—88.
- ٨٤ - A. Ismail, *Op. Cit.*, pp. 73—78.
- ٨٥ - يوسف مزهر ، المرجع السابق ، ج ١/٥٠٣ - ٥٠٤ .
- ٨٦ - F. Guizot, *Memoires pour servir à l'histoire de mon temps*,
Paris, 1861—1864, p. 235.
- ٨٧ - Sabry, *op. cit.*, p. 501.
- ٨٨ - نقلا عن : زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق
الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ،
حاشية رقم ٧ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

- ٩٠ - فرقاطة .
- ٩١ - على يد .
- ٩٢ - أليشى أو إلجى بمعنى سفير .
- ٩٣ - يمنع أى يحول دون وصوله .
- ٩٤ - يقصد الدول الكبرى .
- ٩٥ - انظر : أوراق لبنانية : ج ١ ، ١٩٥٥ ، ص ٣٧ - ٣٩ .
- ٩٦ - طنوس الشدياق : أخبار الأعيان . نشر فؤاد أفرايم البستاني ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٤٦٨ .
- ٩٧ - Sabry, *op. cit.*, p. 519.
- ٩٨ - R. Cattau, *Le règne de Mohamed Ali d'après les archives russes en Egypte*, Vol. II, la mission du Colonel Duhamel, 1834— 1837, Société royale de géographie d'Egypte, publication spéciales, Pt. 2, Rome, 1935, pp. 496—498.
- ٩٩ - يوسف مزهر ، المرجع السابق . ج ١ / ٥١٥ .
- ١٠٠ - محمد كرد على ، خطط الشام : ج ٣ / ٦٦ .

دراسة مقارنة للفروق بين الجنسين من الموهوبين في بعض سمات الشخصية

دكتور خليل ميخائيل معوض

قسم علم النفس

بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية

هدف البحث

لهذا البحث أكثر من هدف فهو يرمى إلى دراسة الآتى :

- ١ - تحديد مجموعات الموهوبين من الجنسين بتطبيق اختبار الذكاء واختبارات قدرات التفكير الابتكارى .
- ٢ - دراسة مجموعات الموهوبين (الناغبين - الاذكياء - المبتكرين) من الجنسين من حيث علاقاتهم بظروف البيئة احيطة وتوافقهم معها :
علاقاتهم المنزلية (ع . م) وعلاقاتهم الاجتماعية (ع . أ)
- ٣ - دراسة بعض سمات الشخصية لمجموعات الموهوبين من الجنسين وهذه السمات هى : الثبات الانفعالى (ث . أ) ، والشعور بالمسئولية (م) والواقعية (و) والحالة المزاجية (ح . م) ، والقيادة (ق) . ومعرفة الفروق بين مجموعات الذكور ومجموعات الإناث فى هذه السمات .

التعريفات الاجرائية لأهم مفاهيم البحث

اختلف مفهوم «موهوب» من باحث لآخر ، فقد استخدم فى بحوث تيرمان «Terman» و ماسون وآدمز وبلود «Mason, Adams & Blood»

١٩٦٦ ، ١٩٦٧ وكوكس Cox (١٩٢٦) وغيرهم على الأفراد ذوى الذكاء الرفيع ، واستخدمه «سكايفر» Schaefer (١٩٦٩) ، وسكايفر وانستازى Schaefer & Anasiasj (١٩٦٨) ، وكلاارك وفيلدمان وسورب Clarke, Veldman & Thrope (١٩٦٥) وغيرهم .. على أنه التفوق فى القدرات الابتكارية ، واستخدمه آخرون من الباحثين على أنه التفوق فى قدرات أخرى مثل القدرة الموسيقية أو الرياضية أو الفنية .

وموهوب من وجهة نظرنا اصطلاح أشبل وأوسع ، فالموهوب هو كل ذى موهبة سواء أكانت ذكاءاً ممتازاً أو قدرات ابتكارية عالية ، أو أى استعداد أو قدرات خاصة متميزة . أى الفرق فى أى قدرة من هذه القدرات أو الجتمع بين هذه القدرات أو بعضها .

التعريف الاجرائى للذكاء :

الذكاء فى هذا البحث هو ما يقيسه اختبار الذكاء العالى : والتفوق فى الذكاء هو الحصول على أعلى الدرجات فى هذا الاختبار بعد أدنى قدره ٢٥ درجة خام وترتيب مئى ٧٤ .

التعريف الاجرائى للتفكير الابتكارى :

التفكير الابتكارى هو ما يقيسه اختبارات التفكير الابتكارى وهذه لأختبارات هى :

(أ) اختبارات الطلاقة اللفظية (١) ، (٢) : القدرة على استرجاع أكبر عدد ممكن من الكلمات تتوافر فيها شروط معينة .

(ب) الطلاقة الفكرية : القدرة على سرعة انتاج أكبر عدد ممكن من الأفكار التى تنتمى إلى نوع معين من الأفكار التى تحدد بنودها الاختبار

(ج) المرونة الثنائية : القدرة على سرعة انتاج أكبر عدد ممكن من أنواع مختلفة من الأفكار التى ترتبط بموقف معين يحدده الاختبار .

(د) الأصالة : القدرة على سرعة انتاج أكبر عدد ممكن من الاستجابات ذات الارتباطات غير المباشرة بالموقف المثير .

والتفوق في التفكير الابتكاري . حدد على أساس الحصول على أعلى الدرجات في اختبارات القدرة على التفكير الابتكاري بواقع ٢٥٪ من مجموع أفراد العينة الأكثر ابتكاراً .

وعلى أساس هذه المعايير الاجرائية من الذكاء والتفكير الابتكاري حدد الباحث مجموعاته من الذكور والإناث في هذا البحث وهي كالآتي :

١ - مجموعة النابضين : Highly Creative-Highly Intelligent Group .
وحددت هذه المجموعة على الأسس التالية :

(أ) الحصول على أعلى الدرجات في اختبار الذكاء العالي بحد أدنى قدره ٢٥ درجة خام وترتيب مئوي ٧٤ .

(ب) الحصول على أعلى الدرجات في اختبارات القدرة على التفكير الابتكاري من بين الـ ٢٥٪ من مجموع أفراد العينة الأكثر ابتكاراً .

٢ - مجموعة الأذكاء : Highly Intelligent Group .

حددت هذه المجموعة على أساس الحصول على أعلى الدرجات في اختبار الذكاء العالي بحد أدنى قدره ٢٥ درجة وترتيب مئوي ٧٤ .

٣ - مجموعة المبتكرين : Highly Creative Group .

حددت هذه المجموعة على أساس الحصول على أعلى الدرجات في اختبارات القدرة على التفكير الابتكاري من بين الـ ٢٥٪ من مجموع أفراد العينة الأكثر ابتكاراً .

فروض البحث

حددت فروض البحث وتم صياغتها على أساس ملاحظات الباحث واطلاعه على البحوث السابقة الأجنبية والعربية التي تتصل بهذا الموضوع وفيما يلي فروض البحث :

١ - العلاقة المنزلية (ع . م) :

مجموعات الموهوبين الأنثى أكثر توافقاً في العلاقات المنزلية من مجموعات الموهوبين الذكور بفروق جوهرية ذات دلالة احصائية .

٢ - العلاقات الاجتماعية (ع . أ) :

مجموعات الموهوبين الذكور أكثر ميلاً للاجتماع ، وعقد علاقات اجتماعية ناجحة عن مجموعات الموهوبين الأنثى بفروق جوهرية ذات دلالة احصائية

٣ - الثبات الانفعالى (ث . أ) :

ليس هناك فروق جوهرية ذات دلالة احصائية فى الثبات الانفعالى بين مجموعات الموهوبين الذكور والأنثى .

٤ - الشعور بالمسئولية (م) :

مجموعات الموهوبين الذكور أكثر توافقاً فى المواقف التى تحتاج إلى تحمل المسئولية من مجموعات الموهوبين الأنثى بفروق جوهرية ذات دلالة احصائية .

٥ - الواقعية (و) :

مجموعات الموهوبين الذكور أكثر واقعية من مجموعات الموهوبين الأنثى بفروق جوهرية ذات دلالة احصائية .

٦ - الحالة المزاجية (ح . م) :

ليس هناك فروق جوهرية في الحالة المزاجية أو الانفعالية بين مجموعات الموهوبين الذكور والاناث .

٧ - القيادة (ق) :

مجموعات الموهوبين الذكور أكثر تفوقاً في المهارات القيادية من مجموعات الموهوبين الاناث بفروق جوهرية دالة احصائياً .

ادوات القياس

تُمكن تصنيف الاختبارات التي قمنا بتطبيقها إلى نوعين :

النوع الأول : بغرض التصميم التجريبي لتحديد مجموعات الموهوبين وقد استخدم لهذا الغرض ما يأتي :

(أ) اختبار الذكاء العالي للدكتور السيد محمد خيرى لقياس الذكاء العام : وهذا الاختبار يتكون من ٤٢ سؤالاً تتدرج في الصعوبة، وتتضمن عينات مختلفة للوظائف الذهنية : القدرة على تركيب الانتباه - القدرة على ادراك العلاقات بين الأشكال - الاستدلال اللفظي - الاستدلال العددي الاستعداد اللفظي .

وقد قنن هذا الاختبار على أساس وضع رتب مثبينة مقابلة للدرجات الخام . والوقت المحدد لاجراء الاختبار ٣٠ دقيقة . ومعامل ثبات الاختبار يتراوح بين ٨٨١ - ٨٤٥ . ومعامل صدق الاختبار يتراوح بين ٥٢٢ - ٦٩٤ .

(ب) اختبار القدرة على التفكير الابتكارى : صممت اختبارات على النسق الذى انتهجه « ثيرستون » Thurstone لقياس « السلاقة اللفظية » « وجيلفورد » Guilford لقياس العوامل الأخرى .، وقام بإعداد وتطبيق الاختبارات على البيئة المصرية الدكتور عبد السلام عبد الغفار .

وفيما يلي الاختبارات التي طبقت ومعامل الثبات لكل منها :

اختبار الطلاقة اللفظية (١)	معامل الثبات	٠,٦٢
اختبار الطلاقة اللفظية (٢)	معامل الثبات	٠,٦٦
اختبار الطلاقة الفكرية	معامل الثبات	٠,٧٥
اختبار الاستعمالات	معامل الثبات	٠,٦٩
اختبار المترتبات	معامل الثبات	٠,٨٠

وقد اعتمد في قياس معامل الصدق على الصدق المنطقي الذي يتضح عند تحليل العامل المقاس وتحليل محتويات الاختبار المصمم لقياس هذا العامل.

النوع الثاني : مقياس الإرشاد النفسي وهو منتهس من اختبار

Minnesota Counseling Inventory, by Ralph, F, Berdi
and Wilbur, L.

وعبارات الاختبار مستخلصة أصلاً من مقياس الشخصية المتعدد الأوجه

M.M.P.I

وقد أعد هذا الاختبار باللغة العربية دكتور محمد عماد الدين اجتماعيل ،
وسيد عبد الحميد مرسى . وهذا الاختبار وسيلة لقياس بعض سمات الشخصية
عند المراهقين خاصة للتعرف على المشكلات المتعلقة بشخصياتهم وتوافقهم ،
ويتكون المقياس من ٣٥٥ سؤالاً وزمنه غير محدد ، ولكن في العادة لا يتجاوز
ساعة ويتكون الاختبار من المقاييس الآتية :

- مقياس العلاقات المرئية (ع . م) 'مقياس العلاقات الاجتماعية (ع : أ)
مقياس الثبات الانفعالي (ث . أ) مقياس الشعور بالانتماء (م)
مقياس الواقعية (و) مقياس الحالة المزاجية (ح . م)
مقياس القيادة (ق)

وقد استخرجت معاملات الثبات والصدق عند الذكور والإناث في
جميع مقاييس الاختبار، وكانت المعاملات مناسبة وكافية تتراوح بين ٠,٧٣ -
٠,٩١ في معاملات الثبات ، ٠,٤٧ - ٠,٦٢ في معاملات الصدق .

العينة

هذا البحث قد تطلّب عينة مقيدة ومحددة بأوصاف معينة حتى يتاح ظهور عدد مناسب من الأفراد المرهوبين ، وبذلك تم اختيار المدارس التي بها فصول للمتفوقين اختياراً متعمداً ، وعينة تحمل هذه المواصفات يمكن أن نعتبرها «عينة مقيدة» Controlled Sample .

وقد كان عدد العينة الشاملة والتي طبق عليها الاختبارات ٥٧٤ من بينهم ٣١٠ من الذكور ، ٢٦٤ من الإناث من تلاميذ وتلميذات المدارس الثانوية العامة تتراوح أعمارهم بين ١٤ - ١٧ سنة .

تحديد المجموعات :

يعتبر المتغير التجريبي (المتغير المستقل) هو الجنس (ذكور - إناث)، وقد ثبتت العوامل الأخرى في المجموعات كالذكاء، وقدرات التفكير الابتكاري، والسن والمستوى التعليمي بالنسبة للطلاب ، كذلك تم تثبيت المستوى الاقتصادي، والاجتماعي والتعلمي بالنسبة لآباء هؤلاء الطلاب ، وعلى هذا الأساس لم يكن في استطاعتنا أخذ جميع أفراد العينة في كل مجموعة، بل كان من الضروري تحديد أفراد كل مجموعة من مجموعات المرهوبين وفق الشروط السابقة بحيث لا تختلف أي مجموعة من مجموعات المرهوبين المقابلة عن الأخرى إلا في المتغير التجريبي وهو الجنس .

وفيما يلي جدول يبين المجموعات التي سينصب عليها البحث من حيث العدد والتوزيع على المدارس التي أخذت منها :

جدول (١)

يبين عدد مجموعات الموهوبين من الذكور
والإناث والمدارس التي أخذت منها

اسم المدرسة	نابعين ذكاء عال + ابتكار عال	اذكاء ذكاء عال	مبتكرين ابتكار عال
مصطفى كامل الثانوية بالاسكندرية	١٩	١٢	١٢
الناصرية الثانوية	١٢	١٠	٤
الرميل الثانوية	٢	١٥	١
المتفوقين بعين شمس	١٧	١٣	٨
المجموع	٥٠	٥٠	٢٥
هدى شعراوي الثانوية	٦	١٨	٧
نبوية موسى	٩	٢٢	١٢
بولكى الثانوية	٧	١٤	٦
المجموع	٢٢	٥٤	٢٥

الاساليب الاحصائي

اتبعت الخطوات الآتية في تحليل نتائج البحث :

- ١ - استخراج المتوسطات الحسابية للدرجات التي حصل عليها أفراد كل مجموعة في كل اختبار ثم استخراج الانحرافات المعيارية .
- ٢ - دراسة الفروق بين المجموعات باستخدام اختبار (ت)

نتائج البحث

جدول (٢)

يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للعلاقات المنزلية» (ع . م)
بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية الموهوبين

مقياس	مجموعتا النابغين	مجموعتا الأذكاء	مجموعتا المبتكرين
العلاقة	(ذكاء عال + ابتكار عال)	(ذكاء عال)	(ابتكار عال)
المنزلية	ذكور	أناث	ذكور
المتوسط	٩,٣٢	١٠,١٨	٩,٤٠
الانحراف المعياري	٤,٣١	٣,٨٦	٤,٤٢
	٢,٧٥	٥,٣٩	٦,٨٣

قيم «ت» بين مجموعات الذكور والأناث الموهوبين في مقياس العلاقات المنزلية (ع . م) :

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والأناث = ٨٢, وهو فرق غير معنوي

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكاء من الذكور والأناث = ١٠٦, وهو فرق غير معنوي

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والأناث = ١,٨٦, وهو فرق غير معنوي .

جدول (٣)

يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للعلاقات الاجتماعية (ع . أ) بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية الموهوبين

مقياس	مجموعتا النابغين	مجموعتا الأذكياء	مجموعتا المبتكرين
العلاقات الاجتماعية	(ذكاء عال + ابتكار عال)	(ذكاء عال)	(ابتكار عال)
المتوسط	١٦,٦٦	٢٥,٩٠	١٧,٩٦
الانحراف المعياري	١١,١٥	١٢,٤٢	١١,٩٥
الانحراف المعياري	١٠,٧٣	١٠,٠٠	١٠,٠٠

قيمة «ت» بين مجموعات الموهوبين من الذكور والإناث في «مقياس العلاقات الاجتماعية (ع . أ) :

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والإناث = ٣,٢١ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكياء من الذكور والإناث = ٣,٥٤ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والإناث = ٢,٨٨ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

جدول (٤)

يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للثبات الانفعالي» (ث . أ) بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية الموهوبين

مقياس	مجموعتا النابغين	مجموعتا الأذكياء	مجموعتا المبتكرين
الثبات الانفعالي	(ذكاء عال + ابتكار عال)	(ذكاء عال)	(ابتكار عال)
المتوسط	١٥,٠٨	١٦,٠٠	١٣,٨٠
الانحراف المعياري	٦,٩٦	٥,٧٢	٦,٠٩
الانحراف المعياري	٣,٤٧	٥,٠٤	٣,٥٧

قيم «ت» بين مجموعات الموهوبين من الذكور والإناث في مقياس الثبات الانفعالي (ت . أ) .

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي التابغين من الذكور والإناث = ٠,٥٦ وهو فرق غير معنوي .

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكاء من الذكور والإناث = ٢,٠٢ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,١ .

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والإناث = ١,٨٢ وهو فرق غير معنوي

جدول (٥)

يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للشعور بالمسؤولية» (م) بين طلاب وطالبات المدارس الثانوية الموهوبين

مجموعتي النابغين		مجموعتي الأذكاء		مجموعتي المبتكرين		مقياس الشعور بالمسؤولية
(ذكاء عال) +						
(ابتكار عال)		(ذكاء عال)		(ابتكار عال)		
ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
١٢,٣٢	١٤,٩٠	١٢,٦٤	١٤,٤٤	١١,٧٦	١٤,٦٨	المتوسط
٣,٧٤	٤,٥٣	٢,٩٣	٤,٢٨	٣,٥٦	٤,٢٥	الانحراف المعياري

جدول (۶)

يوضح المتوسط الحسائي والانحراف المعياري «للواقعية» (و)

بين طلاب وظائف المدارس الثانوية الموهوبين

مجموعتا النابغين		مجموعتا الأذكىاء		مجموعتا المبتكرين		مقياس الواقعية
(ذكاء عال) +		(ذكاء عال)		(ابتكار عال)		
ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
١٤,٢٦	٢٣,١٨	١٤,٦٤	٢٢,٠٧	١٢,٨٠	٢٢,٧٦	المتوسط
٧,١٠	٥,٤٢	٦,٥٣	٦,٤٠	٦,٧٤	٩,١٨	الانحراف المعياري

قيم «ت» بين مجموعات الذكور والإناث الموهوبين في مقياس
«الواقعة» (و) .

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المتابعين من الذكور والإناث - ٥,٤٢ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,١.

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكىاء من الذكور والإناث = ٦,٥٧ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠.١.

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والإناث = ٤,٢٩ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١.

جدول (۷)

بوضوح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للحالة المزاجية» (ح . م)

لطلاب وطائبات المدارس الثانوية الموهوبين

مجموعتا المتكررين		مجموعتا الأذكىاء		مجموعتا التابغيين		الحالة المزاجية (ذكاء عال + ابتكار عال)
(ابتكار عال)		(ذكاء عال)				
ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	
16,63	18,00	19,11	17,42	16,04	15,92	المتوسط
3,92	3,94	4,12	3,79	3,15	4,53	الانحراف المعياري

قيم «ت» بين مجموعات الذكور والإناث الموهوبين في مقياس الحالة
المزاجية (ح. م)

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والإناث =
٥٨, وهو فرق معنوي .

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكاء من الذكور والإناث =
٣,٨٩ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,١

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والإناث =
١,٢١ وهو فرق غير معنوي .

جدول (٨)

يوضح المتوسط الحسابي والانحراف المعياري «للقيادة» (ق)
لطلاب وطالبات المدارس الثانوية الموهوبين

مجموعتا النابغين		مجموعتا الأذكاء		مجموعتا المبتكرين			
مقياس القيادة (ذكاء عال + ابتكار عال)		(ذكاء عال)		(ابتكار عال)			
ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث		
١٣,٣٨	١٦,١٣	١٣,٥٦	١٦,٤٤	١٣,٢٠	١٧,٦٤	المتوسط	
٣,٦٥	٤,٠٢	٣,٣٦	٣,٦٧	٢,٩١	٣,٩١	الانحراف المعياري	

قيم «ت» بين مجموعات الذكور والإناث الموهوبين في مقياس «القيادة»

(أولاً) قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والإناث =
٣,٤٩ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

(ثانياً) قيمة «ت» بين مجموعتي الأذكاء من الذكور والإناث =
٤,٧٢ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

(ثالثاً) قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والإناث =
٤,٤٥ وهو فرق معنوي عند مستوى ٠,٠١

مناقشة نتائج البحث

تناول الفرض الأول في هذا البحث «العلاقات المنزلية» (ع . م) ، فقد افترضنا أن مجتمعات الموهوبين الإناث أكثر توافقاً مع أفراد أسرهم من مجموعات الموهوبين الذكور، باعتبار أن الإناث في المجتمع المصري أكثر ارتباطاً بأسرهم ، وأقل ثورة وتمرداً على السلطة الأسرية ، وأقل تحرراً وانطلاقاً ، وأكثر تبعية لأسرهم .

ولكن نتائج البحث لم تؤيد صحة الفرض ، فن النتائج وجد أن قيم «ت» بين مجموعات الذكور والإناث قيم صغيرة والفروق بين مجموعات الذكور والإناث فروق غير معنوية . فكانت قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والإناث $= 0.82$. وبين مجموعتي الأذكاء $= 0.6$ ، وبين مجموعتي المبتكرين $= 1.86$ ، وهى فروق غير معنوية فى الحالات الثلاث .

ويمكن أن نفسر عدم وجود فروق فى العلاقات المنزلية بين الموهوبين من الذكور والإناث باحتمال وجود تقبل متبادل بين الأبناء الموهوبين وأفراد أسرهم ، بغض النظر عن اختلاف الجنس . فالآباء غالباً ما يتقبلون أبنائهم المتفوقين فى الذكاء أو القدرات الأخرى أكثر من تقبلهم لابنائهم العاديين . (خليل معوض - بحث غير منشور ١٩٧٣) .

أما الفرض الثانى : العلاقات الاجتماعية (ع . أ) فقد افترضنا أن مجموعات الموهوبين من الذكور أكثر ميلاً للاجتماع ، وأكثر نجاحاً فى عقد العلاقات الاجتماعية من مجموعات الموهوبين الإناث ، وذلك لأن الذكور أكثر قدرة على عقد العلاقات الاجتماعية، فهم يشعرون بالسعادة والراحة فى وجودهم مع الشلل والرفاق ، فى حين أن الإناث يحتمل ألا يكونوا على نفس الدرجة من هذه الصفات ، فهم أقل نضجاً ومقدرة فى عقد العلاقات الاجتماعية بصورة متسعة .

وقد تحقق هذا الفرض فى جميع المجموعات ، فكانت قيمة «ت» بين

مجموعتي النابغين من الذكور والأناث = ٣,٢١ وقيمة «ت» بين مجموعتي الأذكىاء = ٣,٥٤٥ وقيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين = ٢,٨٨ ، والقيم الثلاث تدل على أن الفروق معنوية عند مستوى ٠,٠١

وفي الفرض الثالث : الثبات الانفعالي «ث . أ» ، فقد افترضنا انه ليس هناك فروق جوهرية ذات دلالة احصائية بين مجموعات الموهوبين من الذكور والأناث . إذ أن مجموعات الموهوبين من الذكور والأناث يتميزون بالثقة بالنفس ، وقلة القلق ، والميل للهدوء والاسترخاء، والقدرة على اتخاذ القرارات بأنفسهم ، وعدم الخوف من مجابهة المواقف الجديدة، والتصرف بكفاءة في المواقف الغريبة .

وقد تحقق صحة هذا الفرض في مجموعتين ولم يتحقق في المجموعة الثالثة . فقد تحقق الفرض في مجموعتي النابغين من الذكور والأناث إذ كانت قيمة ت = ٠,٥٦ وهو فرق غير معنوى . وبين مجموعتي المبتكرين من الذكور والأناث إذ كانت قيمة ت = ١,٨٢ وهو فرق غير معنوى أيضاً . في حين لم يتحقق الفرض في مجموعتي الأذكىاء من الذكور والأنث ، فوجد أن الأذكىاء الذكور أكثر ثباتاً انفعالياً من الأذكىاء الأناث بفرق معنوى عند مستوى ٠,٥ ، فقط إذا كانت قيمة ت = ٢,٠٢ .

وفي الفرض الرابع : الشعور بالمسئولية «م» فقد افترضنا أن مجموعات الموهوبين الذكور أكثر شعوراً بالمسئولية، ويمكن أن يعتمد عليهم عن مجموعات الموهوبين الأناث وقد أبدت نتائج البحث هذا الفرض في المجموعات الثلاثة جميعها ، فكانت قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والأناث = ٢,٦٠ وهو فرق معنوى عند مستوى ٠,٥ ، وقيمة «ت» بين مجموعتي الأذكىاء من الذكور والأناث = ٢,٨١ وهو فرق معنوى عند مستوى ٠,١ ، وأن قيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين = ٢,٥٨ وهو فرق معنوى عند مستوى ٠,٠٥

وفي الفرض الخامس : الواقعية «و» فقد افترضنا ان مجموعات الموهوبين الذكور أكثر تميزاً بمواجهة المواقف مواجهة واقعية ، فهم قادرون على تكوين علاقات طيبة مع الجماعة ، ولا يخافون الدخول في علاقات عاطفية ، وأكثر قدرة على الدخول في مواقف المنافسة ، في حين ان الاناث الموهوبين أقل مستوى في نمط الواقعية من الذكور الموهوبين .

وقد تحقق صحة هذا الفرض في المجموعات الثلاثة جميعها ، فكانت قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والاناث = ٥,٤٢ ، وبين مجموعتي الأذكىاء من الذكور والاناث = ٦,٥٧ ، وبين مجموعتي المبتكرين من الذكور والاناث = ٤,٢٩ وهو فرق معنوى عند مستوى ٠,٠١ في المجموعات الثلاثة .

وفي الفرض السادس : الحالة المزاجية أو الانفعالية «ح . م» ، فقد افترضنا أن مجموعات الذكور الموهوبين لا يختلفون عن مجموعات الاناث الموهوبين في الحالة المزاجية ، وقد تحقق الفرض في مجموعتين فقط ولم يتحقق في المجموعة الثالثة . فتمد تحقق في مجموعتي النابغين من الذكور والاناث إذ كانت قيمة «ت» = ٠,٥٨ وهو فرق غير معنوى ، وتحقق أيضاً بين مجموعتي المبتكرين إذ كانت قيمة «ت» = ١,٢١ وهو فرق غير معنوى أيضاً ؛ في حين لم يتحقق الفرض في مجموعتي الأذكىاء من الذكور والاناث قيمة «ت» = ٣,٨٩ ، وقد تحتاج هذه السمة لإعادة البحث فيها لاسيما بالنسبة لمجموعتي الأذكىاء لزيادة التأكد من نتائجها .

وفي الفرض السابع : القيادة «ق» افترضنا أن مجموعات الموهوبين الذكور أكثر تفوقاً في المهارات القيادية من مجموعات الاناث الموهوبين ، إذ غالباً ما يكون الذكور أكثر استعداداً لتحمل مسئوليات الجماعة التي ينتمون اليها على عاتقهم ، وهم أكثر مبادأة في التفكير وتنفيذ الأفكار المختلفة ، وهم في الغالب يعرفون كيف يعملون بنجاح مع الآخرين .

وقد تحقق صحة هذا الفرض في المجموعات الثلاثة جميعها ، فكانت قيمة «ت» بين مجموعتي النابغين من الذكور والأناث = ٣,٤٩ . وقيمة «ت» بين مجموعتي الأذكاء = ٤,٧٢ ، وقيمة «ت» بين مجموعتي المبتكرين من الذكور والأناث = ٤,٤٥ . وجميع هذه القيم تدل على أن هناك فرق فرق معنوى عند مستوى ٠,٠١ .

خلاصة البحث

- ١ - لا توجد فروق جوهرية بين مجموعات الموهوبين الذكور والأناث في العلاقات المترلية .
- ٢ - مجموعات الموهوبين الذكور أكثر نجاحاً في العلاقات الاجتماعية من مجموعات الموهوبين الأناث .
- ٣ - لا توجد فروق جوهرية بين مجموعتي النابغين ومجموعتي المبتكرين من الذكور والأناث في الثبات الانفعالي ، في حين كانت مجموعة الأذكاء الذكور أكثر تميزاً بالثبات الانفعالي من مجموعة الأذكاء الأناث .
- ٤ - مجموعات الموهوبين الذكور أكثر شعوراً بالمسؤولية من مجموعات الموهوبين الأناث .
- ٥ - مجموعات الموهوبين الذكور أكثر واقعية من مجموعات الموهوبين الأناث .
- ٦ - لا توجد فروق جوهرية بين مجموعتي النابغين المبتكرين من الذكور والأناث في الحالة المزاجية أو الانفعالية . في حين كانت مجموعة الأذكاء الذكور أفضل وأكثر تميزاً في الحالة المزاجية من مجموعة الأذكاء الأناث .
- ٧ - مجموعات الموهوبين الذكور أكثر تفوقاً في المهارات القيادية من مجموعات الموهوبين الأناث .

مراجع البحث

- ١ - دكتور السيد محمد خيرى - الاحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية - دار التأليف بمصر - ١٩٦٠ - ط ٣ .
- ٢ - انا ستازى ، وجون فولى - سيكولوجية الفروق بين الأفراد والجماعات (مترجم) ترجمة دكتور السيد محمد خيرى ، والدكتور مصطفى سويف - الشركة العربية للطباعة والنشر ابريل ١٩٥٩ ط ١ .
- ٣ - دكتور سيد محمد غنيم - سيكولوجية الشخصية - دار النهضة العربية ١٩٧٥ .
- ٤ - دكتور عبد الحليم محمود السيد - الإبداع والشخصية - دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
- ٥ - دكتور مصطفى سويف - الأسس النفسية للإبداع الفنى - دار المعارف ١٩٥٠ .
- ٦ - دكتور مصطفى فهمى - الصحة النفسية فى الأسرة والمدرسة واجتماع - دار الثقافة - ١٩٦٣ .
7. Clarke, C.M., Veldman, D.C. & Throope J.S., Convergent and Divergent thinking abilities of talented Adolescents, Journal of Educ. Psychol., 1965, Vol. 66, No. 3 P.P 127—163.
8. Furcon, J.E., Baehier, M.E., & Zolike E.S., Creative Personality : A factor Analytic Study. Paper presented at the Meeting of the Midwestern Psychological Association, Chicage, Illinois, May 1960.
9. Getzels, J.W. & Jackson, P.W., The Hightly . Intelligent and the Highly Creative Adolescent, a summary of some research findings, in C.W. Taylor-(ed) Utah Press, 1958, P.P. 46—57.

10. Mackinon, D.W., *The Creative Person*, Berkely, Calif. University of California General Extension, 1961.
11. Maslow, A.H., *Self-Actualizing People : A Study of Psychological Health*, in C.W. Moustakes (Ed). *The Self*, New York. Harper and Row, 1966, P.P. 160—194.
12. Mason, E.P., Admas, H.L. & Blood, D.F., *Personality Characteristic of Gifed College freshmen*, Washington, D.C. : AFA, 1965.
13. Mason, E.P., & Blood, D.E., "Cross Validation Study of Personality Characteristics of Gifted College Freshmen, *Amer. Psychol. Assoc.*, Vol. 74, 1966.
14. Mason, E.P., Adams, H.I. & Blood, D.F., *Personality Characteristics of Gifted College freshmen*, *Psychology in Schools*, 1966, 4, P.P. 360—365.
15. Mason, E.P., Admas, H.L. & Blood, D.F., *Further Study of Personality Characteristics of Bright college Frshmen*. *Psychological Reports*, 1968, 23, P.P. 395—400.
16. Schaefer, C.E., "The self-Concept of Creative Adolescents, *Journal of Psychology*, 1969, 72, +.P. 233—242.
17. Seutz, Th. L., *The Re'ationship Between Creativity and Intelligence, Personality and Values*, University Microfilms, Inc Ann Arbor, Michigan, 1969.
18. Torrance, E.P., *Mental Health and Creative Functioning summer*. 1967.
19. Torrance, E.P., *The Creative Personality and 'Ideal Puplis''*, *Teacher College Columbia University*, Vol. 65, No. 3, December 1963 P.P. 220—226.
20. Trezise, R.I. "A descriptive study of the Life styles of a Group of Creative Adolescetns, *Diss-abs.* 1967, 21, (9—A).
21. Witty, P., "Identifying and Educating Gifted and Talented puplis". In *Creativity of Gifted and Talented Chlidren* New York, Teacher Coll. Columbia Univ. Bureau Publ. 1969. P.P. 1—15.
22. Yamamoto K. "Role of Creative Thinking and Intelligence in High school achievement", *Psychological Reports*, Vol. 14, 1964.



"Samuel Beckett est aussi un poète", in *Le Figaro Littéraire*, 3 février 1960.

MAYOUX (Jean Jacques) : "Samuel Beckett et l'univers parodique", in *Les Lettres Nouvelles*, août 1960.

MICHA (René) : "Une nouvelle littérature allégorique", in *N.R.F.*, III, avril 1954.

NADEAU (Maurice) : "Samuel Beckett ou le droit au silence", in *Les Temps Modernes*, Janvier 1952.

"Beckett : la tragédie transposée en farce", in *L'Avant-Scène*, n° 156, 1957.

NORES (Dominique) : "La condition humaine selon Beckett", in *Théâtre d'Aujourd'hui*, n° 3, sept-oct 1957.

PORTAL (Georges) : "Pour l'amour de Dieu", in *Ecrits de Paris*, Juillet-août 1961.

OATES (J.C) : "Paradise of indignity", in *Times Literary Supplement*, March 1958.

PORTAL (Georges) : "Pour l'amour de Dieu", in *Ecrits de Paris*, juillet-août 1961.

ROBBE-GRILLET (Alain) : "Samuel Beckett auteur dramatique" in *Critique*, IX, février 1953.

SAUREL (Renée) : "En attendant un nouveau théâtre", in *Les Temps modernes*, juillet 1961.

SELZ (Jean) : "L'homme finissant de Samuel Beckett", in *Les Lettres Nouvelles*, juillet-août 1957.

THUBAUDEAU (Jean) : "Un théâtre de romanciers", in *Critique*, n° 159—160, Août -Sept., 1960.

TOUCHARD (Pierre-Aimé) : "Le théâtre de Samuel Beckett", in *La Revue de Paris*, février 1961.

III. NUMEROS SPECIAUX DE REVUES :

Configuration Critique, n° 8, 1964.

Esprit, Juillet-Août 1958.

Perspective, Automne 1959.

SEEVER(R.W.) *Le Monologue Interieur dans le Roman moderne*, Thèse d'Université, Paris, 1954, (dactylographiée)

SIMON (Pierre-Henri) : *Histoire de la littérature française contemporaine*, 1900-1950, 2 vol., Armand Colin, Paris, 1957.

TRAHARD (Pierre) : *La Vie Interieure*, Boivin, Paris, 1947.

WILLIAMS (Raymond) : *Modern British Dramatists*, Prentice-Hall Inc., New Jersey, 1968.

II. ARTICLES ET PERIODIQUES :

ABIRACHED "La Voix tragique de Beckett", in *Etudes*, janvier 1964.

ALTER (André) : "En attendant Godot n'était pas une impasse; Beckett le prouve dans sa seconde pièce," in *Le Figaro Littéraire*, 12 Janvier 1957.

AUBAREDE (Gabriel d') : "En attendant Beckett", in *Les Nouvelles littéraires*, 16 février 1961.

BARBOUR (Thomas) : "Beckett and Ionesco", in *Hudson Review*, XI, Summer 1958.

BATAILLE (George) : "Le Silence de Molloy", in *Critique*, XLVII, 15 mai 1951

COE (Richard N.) : "Le dieu de Samuel Beckett", in *Cahiers de la Compagnie Renaud-Barrault*, n° 44, octobre 1963.

DREYFUS (Dina) : "Vraies et fausses énigmes", in *Mercure de France*, Octobre 1957.

FEDERMAN (Raymond): "Samuel Beckett, ou le Bonheur en enfer", in *Symposium*, XXI, été 1967.

FOWLIE (Wallace) : "The new french theatre : Artaud and Beckett, Genet and Ionesco", in *Seance Review*, LXVII, Autumn 1959.

HAEFER (Jacqueline) : "Influence du positivisme logique de Wittgenstein dans *Watt*", in *Perspective*, automne 1959.

IONESCO (Eugene) : "J'avoue", in *Le Figaro Littéraire*, n° 1102, 29 mai 1967.

"Au-delà des institutions, le véritable adversaire des révoltés c'est l'homme", in *Le Figaro Littéraire*, n° 1211, 10 août 1969.

MARCEL (Gabriel) : "Atomisation du théâtre", in *Les Nouvelles littéraires*, 20 juin 1957.

MAULNIER (Thierry) : "De Beckett à Bernanos", in *Revue de Paris*, juin 1957.

MAURIAC (Claude) : "Samuel Beckett", in *Preuves*, n° 61, mars 1956, et *Le Figaro Littéraire*, 11 août 1956.

- GINESTIER (Paul) :** *Le Théâtre contemporain dans le monde*, P.U.F., Paris, 1961.
- GOODHEART (Eugene) :** *The Cult of the Ego*, University of Chicago Press, USA, 1968.
- HOFFMAN (Frederik) :** *Samuel Beckett, The language of Self*, Southern Illinois University Press, USA, 1962.
- IONESCO (Eugene) :** *Notes et Contre Notes*, Gallimard, Paris, 1962.
- JANVIER (Ludovic) :** *Pour Samuel Beckett*, éd. de Minuit, Paris 1966.
- ... *Beckett par lui même*, éd. du Seuil, Paris, 1969.
- KENNEDY (Hugh) :** *Samuel Beckett, A critical Study*, Calder and Boyars, London 1962.
- LAING (R.D.) :** *The Divided Self*, Pelican Book, London, 1965.
- MARISSEL (André) :** *Samuel Beckett*, éditions universitaires, Paris, 1963.
- MAIRIAC (Claude) :** *L'élitisme contemporain*, Albin Michel, Paris, 1958.
- MAYOUX (J.J.) :** *Vivants Piliers*, Julliard, Paris, 1960.
- MELESE (Pierre) :** *Beckett*, collection "Théâtre de tous les temps". Seghers, Paris, 1966.
- MOURGUE (Gérard) :** *Dieu dans la littérature d'aujourd'hui*, France-Empire, Paris, 1961.
- ONIMUS (Jean) :** *Beckett*, collection "Les Ecrivains devant Dieu", Desclée de Brouwer, Paris, 1968.
- PEARCE (Richard) :** *Stages of the Clown, Perspectives on Modern Fiction from Dostoevski to Beckett*, Southern Illinois University Press, USA, 1961.
- PERCHE (Louis) :** *Beckett, L'enfer à notre portée*, Le Centurion, Paris, 1969.
- PINGAUD (Bernard) :** *Ecrivains d'Aujourd'hui, 1940—1960*, Dictionnaire anthologique et critique, établi sous la direction de Bernard Pingaud, Grasset, Paris, 1960.
- ROBE-GRILLET (Alain) :** *Pour un nouveau roman*, éd. de Minuit, Paris, 1963.
- ROUSSEAU (André) :** *Littérature du XX^e siècle*, 7 volumes, Albin Michel, Paris 1948.
- ROUSSET :** *Forme et Signification*, José Corti, Paris, 1962.
- SANDIER (Gilles) :** *Théâtres et Combats*, Regard sur le théâtre actuel, tock, Paris, 1970.
- SARTRE (Jean-Paul) :** *Situations : Qu'est-ce que la littérature*, Gallimard, Paris, 1948.
- SCOTT (Nathan A.) :** *Samuel Beckett*, Bowes and Bowes, London, 1965.

BIBLIOGRAPHIE

I. ETUDES.

ALBERES (René-Marill). *Bilan du XX^e siècle*, Aubier, Paris, 1956.

Histoire du roman moderne, Albin Michel, Paris, 1962.

BARNARD (G.C.) : *Samuel Beckett, A new approach*, J. M. Dent and sons, London, 1970.

BARRAULT (Jean-Louis) : *Nouvelles Reflexions sur le théâtre*, Flammarion, Paris, 1958.

BERGE (André) : *L'Esprit de la littérature contemporaine*, Plon, Paris, 1929.

BILLY (André) : *L'Epoque contemporaine*, Tallandier, Paris 1956.

BLANCHOT (Maurice) : *Le Livre à venir*, Gallimard, Paris, 1959.

BOIDIEFFRE (Pierre de) : *Une Histoire vivante de la littérature d'aujourd'hui*,
Le Livre Contemporain, Paris, 1959.

BUTOR (Michel) : *Essai sur les Modernes*, éd. de Minuit, Paris, 1964.

CLANCIER (G.E.) : *Panorama critique de Rimbaud aux Surrealistes*, Seghers, Paris, 1953.

COHV (Ruby) : *Samuel Beckett. The comic genius*, U.P.N.J., New Brunswick Rutgers, 1962.

CROUSSY (Guy) : *Beckett*, Hachette, Paris, 1971.

DAVID (R.J.) FRIEDMAN (M.J.), et BRYER (J.R.) : *Samuel Beckett, Catalogue de bibliographie des oeuvres de Samuel Beckett et Critiques franco-anglaises et autres alngues*, 1 vol., Les Lettres Modernes, Paris, 1963.

DAVY (M.M.) *La Connaissance de Soi*, P.U.F., Paris, 1971.

DEYLE (Huguette) : *Samuel Beckett ou la Philosophie de l'absurde* (Publication des Annales de la Faculté des Lettres d'Aix-en-Provence, Travaux et Mémoires, 16), La Pensée Universelle, Aix-en-Provence, 1960.

DOMENACH (Jean-Marie) : *Le Retour du tragique*, éd. du seuil, Paris, 1967.

BUROZOI (Grérard) : *Beckett, Presence littéraire*, Bordas, Paris, 1972.

ESSLIN (Martin) : *Le Théâtre de l'absurde*, Buchet-Chastel, Paris, 1963.

FEDERMAN (Raymond) : *Journey to Chaos*, University of California Press, USA, 1965.

FRASER (G.S.) *The Modern Writer and his World*, Pelican book, London. 1970

Peut-on "sans *écriture*, amener la littérature à ce point d'absence où elle disparaît ? "(1).

On est en droit de se le demander si l'on admet avec Danièle Sallenave que "la littérature n'est à la lettre, RIEN sans le discours qui l'escorte."

Or, quand le discours n'exprime RIEN à son tour, que reste-t-il ?

(1) Maurice Blanchot, *Le Livre à venir*, Gallimard, Paris, 1959, p. 252. C'est l'auteur qui souligne.

2. Or la syntaxe est l'élément logique du discours;
3. Il faut donc supprimer la syntaxe (autant que faire se peut).

Beckett exprime ainsi ce que Bergson appelle les "états confus, infiniment mobiles et inexprimables" de la conscience; autrement dit, il cherche à démontrer jusqu'où peut aller l'incapacité du langage à rendre de tels états (1).

En un sens, on peut penser avec Butor que les héros de Beckett traduisent quelque chose "qui est au dessous du niveau du langage". L'auteur les place dans une "zone inférieure", une sorte d'infra-conscience" que Butor rattache au subconscient : (2) il en résulte un sous-dialogue, une sous-conversation en quelque sorte, et tout se situe en-deçà du normal.

Les articulations, les bégaiements, traduisent l'incohérence des états d'une conscience qui s'enlise dans les confins du langage; en effet, "c'est à partir de lui-même que le texte prolifère : il écrit (*sic*) en imitant ce qu'il lit" (3).

Les nombreux points de suspension expriment ce que Bachelard considère comme un remplacement ou une interruption d'une partie de l'énoncé, ils ont effectivement pour rôle de tenir "en suspens ce qui ne doit pas être dit explicitement".

Les personnages prononcent souvent des termes exclus ou refoulés qui dans leur structure illogique, renforce la sensation de rupture que suggère le texte.

Est-ce de la littérature ?

(1) Dans "Le monologue intérieur de la princesse de Clèves", Marie-Jeanne Durry va jusqu'à évoquer la "bouillie intérieure" que "dégorgent" et "ruminent" les personnages de Beckett.

(2) Contrairement à Freud qui marque une réticence à l'égard de ce mot; pour lui, le subconscient est "quelque chose qui se trouve dans l'âme *au-dessous* de la conscience, ou au sens qualitatif: une autre conscience, souterraine pour ainsi dire." *Le Problème de l'analyse par des non-médecins*, 1926. C'est nous qui soulignons.

(3) Jean Ricardou, *Poétique*, 4, à propos des romans de Robbe-Grillet et de Pinget.

parler à ce propos d'un cas de hallucination fugitive que l'écrivain cherche à fixer par la plume et dont il mesure, avec le lecteur, toute l'ampleur ?

Certes, Beckett se veut partisan de la RUPTURE :

— RUPTURE avec les conceptions passées, sous une apparence cartésienne qui prêche son contraire;

— RUPTURE aussi avec les êtres, puisqu'il prêche l'incommunicabilité des consciences. Non seulement aucun dialogue n'est possible, mais nul n'est autorisé à amorcer ce dialogue; l'arrivée d'un serviteur chasse automatiquement l'ancien sans que le maître n'ait à intervenir; nos actes deviennent une loi de *ce monde*, le monde précis de Monsieur Knott, dont le château devient en quelque sorte l'asile psychiatrique;

— RUPTURE enfin avec Dieu, Godot, ce pantin trompeur qui promet et ne tient jamais sa promesse (1); car pour Beckett, la religion n'a "pas plus de profonde signification qu'un vieil indigne universitaire".(2)

Il ne s'agit pas d'une entreprise d'exploration de la conscience mais d'une dénonciation du flottement de la pensée ainsi que de la formation discursive de la parole. L'auteur, loin d'ajuster le désordre et la dégradation de la réflexion, renforce plutôt son caractère insolite et sa déchéance par des trucages d'ordre stylistique et syntaxique. Pour définir un tel procédé reprenons à notre compte le syllogisme proposé par Danièle Sallenave(3) :

1. Il existe des états de conscience faiblement articulés, "prélogiques".

(1) Aussi indifférent à la politique qu'à la religion, Beckett va jusqu'à les confondre et réduire leurs adeptes au néant. C'est ainsi qu'ayant aperçu un jour un attroupement, il s'en approcha et vit un homme perché sur le toit d'une voiture, qui haranguait les passants; retenant les mots "union", "frères", "Marx", "capital", "bifteck" et "amour", il déclare: "Cela devai têtre un fanatique religieux (...). Il s'était peut-être échappé du Cabanon." *Nouvelles et Textes pour rien*. C'est nous qui soulignons.

(2) Cité par Pierre Mélése, *Beckett*, collection "Théâtre de tous les emps" Seghers, Paris. 1966.

(3) "A propos du "monologue intérieur": lecture d'une théorie", in *Littérature*, n° 5, Février 1972, p. 79.

MOTS = SILENCES

et

SILENCES = MOTS.

On croit noter chez Beckett, sous le masque de l'indifférence un souci constant de produire un certain effet sur le lecteur; (1) c'est bien plutôt une intrusion de l'auteur dans le sillage de ses personnages dans le but de créer une illusion de néant : en suggérant autour d'eux une atmosphère de *farniente* qui donne toutefois l'impression de s'agiter, Beckett creuse autour de ses créatures une sorte d'abîme où nous ne les voyons même pas sombrer; nous croyons plutôt qu'il s'y sont trouvés de toute éternité. A titre d'illustration, Watt se trouve à plusieurs reprises dans un fossé. Cette technique montre dans quelle mesure Beckett cherche à dénoncer le vrai, la logique, l'être, bref l'homme tel que conçu depuis la nuit des temps. Voilà remises en question toutes les valeurs humaines : physiques, physiologiques et psychologiques.

Une telle créature n'en est plus une; elle devient le simple résultat de l'écriture, comme un reflet de la fiction qui implique le récit. De ce fait, le personnage ne se trouve, en aucune façon, subordonné au dénouement de la narration. Même si le "je" n'apparaît jamais, il assume le récit. Il peut donc s'agir d'une tentative de conquête du moi, à moins de tomber dans le piège du faux-semblant.

Style mou, usé, élagué, dépouillé, autant dire un parfait écho du personnage qui en devient même le pâle reflet. Dans *Watt*, la théorie de la SUBSTITUTION nous frappe, ô combien significative, comme dans les contes de Maupassant (2), où quelqu'un prend toujours la place de l'autre. Beckett, lui s'interroge sur les rapports de l'écrivain et du "je" : celui-là se substitue en effet, à la créature, et, auteur et narrateur finissent par se confondre quel que soit le sujet de la narration. Peut-on

On pense à Edgar Poe qui écrivait au sujet du conte dans *Genèse d'un poème* (traduction de Baudelaire) : "Pour moi, la première de toutes les considérations c'est celle d'un effet à produire."

(2) En effet, il est toujours question chez Maupassant soit d'une maîtresse qui se trouve remplacée par une épouse ou son sosie, soit d'une marquise qui prend la place d'une prostituée, soit encore d'un amant qui prend la place d'un mari, bref nombreux sont les exemples qui illustrent ce procédé.

- les mêmes mots se trouvent aux mêmes places; il s'agit donc d'une répétition textuelle;
- l'ordre des mots se trouve interverti; et là on discerne toutes sortes de combinaisons possibles, à l'intérieur desquelles on reconnaît la technique du premier aspect (1).

Ainsi, Beckett choisit un nombre défini de mots ou de verbes, et opère ses différentes permutations, indépendamment de toute logique de langage; ce procédé crée une véritable symphonie rythmée qui, récitée, traduit un lyrisme, très sensible, relevant du domaine de la poésie pure. Les mots en eux-mêmes n'ont pas de sens mais leur assemblage, leur structure, leur architecture et leur répétition donne cette impression de musique bien rythmée à l'exemple des marches funèbres. C'est là une technique toute nouvelle de la transformation du langage en musique.

“Lorsque la parole est usée, fait remarquer Ionesco, c'est que l'esprit est usé” (2)

Sans aucun doute, Beckett cherche à se libérer du langage rituel, conventionnel. L'articulation des mots traduit leur non-sens : mots dépourvus de sens, ensemble dépourvu de sens. Il en résulte une coupure totale avec le monde; et le décalage entre l'exprimé et l'exprimable introduit le personnage dans un univers schizophrénique.

On ne peut appeler le discours des récitants de Beckett un monologue c'est bien plutôt une juxtaposition de mots; la détresse est alors exprimée par des silences et des attitudes. Pour comprendre un texte de Beckett il devient impératif d'intervertir les éléments du langage alors s'établit peut-être la communication, puisque :

(1) Dans un passage de 15 lignes où Beckett utilise les deux mots : “père” et “mère”, on retrouve 34 fois chaque mot; de même un passage de 24 lignes où Beckett utilise les quatre mots : “porte”, “fenêtre”, “feu” et “lit”, on retrouve exactement 36 fois chaque mot, dans des combinaisons savamment architecturées. Nombreux sont les exemples que l'on peut relever du même genre. Il est alors curieux de constater que cette disposition des mots et des phrases n'est pas conçue au hasard, mais un véritable équilibre numérique attribue au texte une précision mathématique.

(2) Eugène Ionesco, *Notes et Contre Notes*, Gallimard, 1962, pp. 141—142.

du champ traditionnel en tant qu'expression du moi intime. Etrangère à toute logique, cette expression se trouve réduite à un minimum syntaxique qui prolifère : ainsi le minimum de mots se trouvent disposés différemment, comme un dessin géométrique. On peut constater, en effet, que la structure de *Watt* est circulaire, enroulée pour ainsi dire à l'image du fœtus. Quand le roman se termine, "la boucle est bouclée", grâce à l'illusion créée par la technique des similitudes structurales : ainsi, Watt descend d'un tram puis se trouve par terre dès son apparition au début du roman, comme il se trouve par terre avant de reprendre le train à la fin du roman; on lui lance des pierres au début, on lui lance de baquets d'eau à la fin; un groupe de passants l'observe au début comme à la fin en multipliant les points d'interrogation à son sujet; l'auteur précise au début comme à la fin le montant de la somme d'argent dérisoire dont il dispose; enfin Watt croise une bicyclette au début et à la fin du roman. La répétition du mot, du geste, crée le mouvement circulaire qui guide le point mobile de la circonférence jusqu'au point initial c'est-à-dire la rencontre de la mort et de la vie. L'agitation même des personnages donne l'impression de tourner en rond : il suffit d'observer le rituel des domestiques de Monsieur Knott ainsi que leur départ et leur arrivée : on discerne toujours la même mimique; quand Arsène arrive, Vincent doit partir; quand Watt arrive, Arsène doit partir, tout comme Watt partira dès l'arrivée de Micks. Cette série alterne avec autre série de domestiques qui, du rez-de-chaussée sont promus au premier étage dès l'arrivée du remplaçant du premier étage : ainsi, quand Erskine arrive; Walter doit partir, et Erskine part dès qu'Arthur arrive. Cette fourmilière savamment organisée crée une impression de tourbillon. La circonférence ? Elle réside dans la chance que l'auteur offre à Watt : une situation matérielle; et une vie affective; il lui donne en quelque sorte une occasion de se renouveler. Pourtant, nous le voyons se traîner avec passivité, comme s'il ne pouvait vivre qu'une vie déjà tracée à l'avance; c'est là où le décalage entre le vécu et le fictif, semble atteindre son paroxysme.

Tout comme le blanc résulte de la combinaison de plusieurs couleurs, le néant résulte ici de l'expression savamment combinée de plusieurs non-moi. Les mots ayant perdu leur sens traditionnel, n'expriment plus rien, et l'absurdité et le non-sens sont traduits par la répétition infinie des mêmes mots et de la même phrase dont la construction structurale présente un double aspect :

Le monologue intérieur de Watt n'est donc pas un "discours sans auditeurs" conformément à la définition d'Edouard Dujardin. En réalité, pour Samuel Beckett, l'essence de la pensée même de l'homme frôle le néant; aussi drape-t-il cette pensée dans le revêtement de l'absurde qui renforce la conception du néant, tel l'exemple bien connu des grenouilles. Watt demeure donc dans un champ très spécifique, à la fois champ de vision de d'audition, qui lui confère une dimension bien plus théorique qu'idéologique. Les réflexions de ce personnage bizarre effectuent un perpétuel va-et-vient entre l'extérieur et l'intérieur; les mots s'entrechoquent pour créer la cacophonie : le choc résulte précisément du heurt avec la frontière des deux mondes, ce qui nous amène à penser qu'en fin de compte, jamais ce va-et-vient ne se trouve hors-champ; en d'autres termes, tout est disposé, orchestré par Beckett selon une orientation bien définie qui nous permet de croire à l'éventualité d'une recherche de l'effet sur le lecteur(1).

Ainsi s'opère un décalage nettement formulé entre le monde extérieur, celui des humains, et le monde intérieur, non point celui de la pensée, mais bien celui de la conscience obscure, celui de Watt, c'est-à-dire celui de l'absurde et du néant. Toute fois, de graves difficultés subsistent à ce niveau: elles résident dans la valeur réelle ou illusoire de ce processus, à savoir la validité d'un tel décalage entre deux univers dont l'analogie semble volontairement créée sous forme d'articulations cacophoniques entre les mots.

Certes, Beckett se situe dans un monde qui se veut neutre et objectif, qui en se dressant contre l'idéologie dominante cherche à définir sa propre mutation. C'est donc le souci de prouver la méconnaissance profonde de soi qui entraîne l'acharnement que montre l'écrivain à entreprendre la destruction de toutes les valeurs idéologiques jusque là indiscutables. Une telle dépréciation souligne une certaine dégradation frôlant la médiocrité, que Beckett cherche par la suite à revaloriser grâce à une approche purement stylistique.

Le but avoué n'est sans doute pas le but implicite; cependant, il se situe dans un champ précis, délimité par l'auteur, et se différencie

(1) Claude Mauriac soutient que Samuel Beckett est simplement "entraîné par la logique du langage, et de ses articulations". Pour lui, "l'écrivain affronté à l'indicible doit(...) ruser pour ne pas dire ce que les mots lui font dire malgré lui, mais pour exprimer au contraire ce que leur raison d'être est précisément de taire : l'incertain, le contradictoire, l'impensable, l'innommable. "Claude Mauriac, *L'Alittérature contemporaine*, Albin Michel, Paris, 1958, p. 83.

frappant avec Jean Cocteau, face à son point d'interrogation sur l'au-delà. Toutefois, l'au-delà de Beckett diffère totalement de celui de Cocteau qui y trouve une sorte d'absolution(1).

Dans *Watt*, Samuel Beckett essaie de définir sa pensée en usant de la technique du monologue intérieur(2), où le texte, dépourvu de son vers, conduit vers le néant. Le monologue intérieur de Watt, en dépit de sa construction insolite, constitue un véritable enchaînement de pensées qui extériorisent une suite d'états de sa conscience lucide, à supposer que son créateur l'ait doté d'une conscience. Le lecteur croit y découvrir les limites de son propre processus de pensée :

“Nous assistons, fait remarquer Antonin Artaud, à une alchimie mentale qui d'un état d'esprit fait un geste, et le geste sec, dépouillé, linéaire, que tous nos actes pourraient avoir, s'ils tendaient vers l'absolu... Et au bout d'un instant, l'identification magique est faite : “Nous savons que c'est nous qui parlons.”(3)

Pourtant on s'aperçoit bien vite que le monologue intérieur de Watt n'est autre que le prétexte d'une réalisation psychologique et littéraire. C'est pourquoi il semble atteindre le seuil d'un fonctionnement traditionnel sans toutefois dépasser cette limite; en fait, il atteint à peine le point d'émergence; il devient une simple conséquence d'une étude ambivalente, à la fois psychologique et stylistique, dont s'autorise Beckett pour dénoncer comment :

- on peut dialoguer avec soi-même;
- on peut exprimer l'énoncé de ce dialogue.

(1) Voir à ce sujet l'opéra-comique *Paul et Virginie*, rédigé en collaboration avec Raymond Radiguet, où l'on voit les personnages de Bernardin de Saint-Pierre se retrouver, après la mort, dans un au-delà fait de joies, de chantes, et de danses.

(2) On discerne dans l'oeuvre de Samuel Beckett une influence manifeste de James Joyce qu'il a connu personnellement. Mais il ne faut pas croire pour autant que Beckett et Joyce aient travaillé en commun, comme le prétendent certains critiques. Beckett, dans une mise au point, précise qu'en raison de problèmes de vue dont souffrait Joyce, il lui faisait quelques lectures. Par ailleurs, il a collaboré avec Alfred Peresson, Ivan Goll, Eugène Jolas, Paul-Léon, Adrienne Monnier et Philippe Soupault à la traduction de *Anna Livia Plurabelle*, de James Joyce.

(3) Antonin Artaud, *Le Théâtre et son double*, Gallimard, Paris, 1964, p. 91.

tous ses aspects : physique, moral, religieux, affectif, dans le passé, le présent et l'avenir.

Tous les héros de Beckett sont dépourvus de dignité, ils ont parfois en état de colère ou de révolte, s'ils ne sont pas eux-mêmes colère et révolte; en quête d'une cohérence de l'humanité, l'auteur exprime-t-il à sa manière une forme de résistance à l'instinct de conservation ? On est en droit de se le demander.

Inutile de s'obstiner à rechercher un bonheur quasiment inaccessible; nous nous enlisons dans la mort si nous ne sommes pas morts et en état de décomposition. Donc la dégradation de l'être va au-delà de la mort et se poursuivra jusqu'à son anéantissement total. Beckett insiste à travers Watt sur la grossièreté de tout ce qui est concret et perceptible. Les misères humaines, démence, infirmité, débilité et autres, créent l'illusion de cette lente dégradation et accentuent la dépersonnalisation de l'homme. Le monologue, de Lucky souligne la déchéance avec un choix de mots bien précis :

"L'homme (...) est *en train de maigrir* (...) de *rapetisser* (...) de *maigrir-retrecir* (...) bref la perte sèche par tête de pipe depuis la mort de Voltaire étant de l'ordre de deux doigts cent grammes par tête de pipe environ en moyenne à peu près (...)”(1)

Il y a une liberté que l'être humain acquiert en abandonnant toute logique, et même en usant du non-sens. Dire avec Rousseau que "l'homme est libre et pourtant on le voit partout dans les fers", implique d'emblée le carcan où se trouve enfermé l'individu. Il est normal qu'il cherche à s'évader de ce carcan, ce qui motive ses brefs soubresauts. Précisément le style de Beckett dessine en les exprimant ces tentatives de libération du moi, ces sursauts en quête du moi, de la liberté en quelque sorte.

Samuel Beckett dénonce aussi la solitude et les dangers qui guettent l'homme : maladies, sénilité, infantilisme ou autres tares. On dirait que cherchant à comprendre l'avenir qui l'attend, il le peint pour mieux le saisir et le cerner; cette technique n'est pas nouvelle, elle est perceptible chez bon nombre d'écrivains; nous en avons un exemple

(1) Samuel Beckett, *En attendant Godot*, éditions de Minuit, Paris 1952, pp. 37 et suivantes. C'est nous qui soulignons.

C'est là un procédé cher à Beckett qui consiste à émettre une hypothèse, puis à l'annihiler progressivement jusqu'à un point de non-retour. C'est alors qu'il propose une nouvelle ou en suggère du moins la possibilité. Quand Watt annihilé quitte le château, on suppose qu'il va retrouver un nouveau Monsieur Knott pour l'engager. Et puisque Beckett précise que son personnage aura peut-être plus tard d'autres amours, il ne reste plus à Watt qu'à recommencer, éternel Sysiphe, et devenir ainsi l'instrument dont se sert l'auteur pour une nouvelle "preuve par l'absurde de l'absurdité de l'absurde (1).

* * *

Watt est en quelque sorte à lui seul un "spectacle total", pour reprendre l'expression d'Antonin Artaud(2); il est pour nous une analyse du monde tragique quand il apparaît dans toute son absurdité; il incarne à la fois le corps et l'esprit, le conscient et l'inconscient, le tangible et l'insaisissable, bref à la fois les sens et l'intelligence.

"Avec Beckett, écrit un critique, on ne s'évade jamais de la plus inexorable confusion, de la fange, de la terreur, du doute, de la mort-dans-la-vie" (3)

Car la vie et la mort se confondent et, de surcroît, s'annihilent; pourtant leur présence s'impose comme pour aider l'homme à poser le point d'interrogation : WHAT ? L'auteur, lui-même, l'avoue lors d'une interview quand il déclare :

"Si la vie et la mort ne se présentaient pas toutes les deux à nous, il n'y aurait pas inscrutabilité. S'il n'y avait que l'obscurité, tout serait clair. C'est parce qu'il y a, non seulement l'obscurité, mais aussi la clarté, que notre situation devient inexplicable "(4).

L'image de Watt semble universaliser le mystère de la condition humaine; c'est là une insurrection sans merci qui vise l'homme sous

(1) Pierre-Henri Simon dans *Théâtre et Destin* utilise cette formule au sujet de Sartre et de Camus.

(2) Antonin Artaud, *Le Théâtre et son double*, Gallimard, Paris, 1964, p. 131.

(3) André Marissel, *Samuel Beckett*, éditions universitaires, Paris 1963, p. 16.

(4) Pierre Mélése, *Beckett*, collection "Théâtre de tous les temps", Seghers, Paris, 1966, p. 139.

Watt + Knott = Néant. (1)

Il ne d'est donc rien passé : Watt a-t-il vraiment travaillé chez Knott ? Knott existe-t-il ? On le voit très peu et il est indescriptible. De plus, il change continuellement d'apparence : parfois grand, maigre et blond, parfois petit, gros et brun en un mot il échappe à l'analyse. On peut alors considérer le temps comme aboli, ce temps passé au service de Knott, encadré par les deux voyages dans le train que prend Watt, comme s'il avait effectué un aller-retour : le seul point d'arrêt au terminus serait son amour avec la poissonnière : curieusement si la grande parenthèse marque un point c'est la prenthèse dans la parenthèse qui prend un sens positif même en dehors du temps et de l'espace. En réalité, le temps annihile l'espace et Beckett les réduit au néant par la technique du silence, même si seul ce silence est capable d'exprimer quelque chose(2) car tout est inexprimable : "innommable", et les preuves sont là qui le démontrent.

Pour les situer sur le même degré de l'équation, Beckett instaure entre Knott et Watt des points de similitude. En effet, comme Knott, Watt porte une seule chaussure; comme Knott, Watt est atteint de schizophrénie, et leur isolation mentale est similaire; comme Knott, Watt se sait en sécurité car il éprouve la satisfaction de sentir qu'il souhaite exister et que son existence est souhaitée. Beckett va jusqu'à prêter à Sam, le narrateur, un langage constitué de lapsus, où parlant de Watt, il prononce le nom de Knott, s'excuse, puis rétablit la vérité visée. En fin de compte, Watt-le-pantın confirme l'existence de Knott; c'est son *alter-ego*, à une nuance près : Watt traduit l'inconscient, la zone ombrageuse de l'homme, pendant que Knott représente le centre de l'univers de son moi (3); le premier incarne l'être, le second le non-être. Une fois de plus, Beckett illustre cette technique par le truchement du langage : pour introduire Knott dans le récit, il use continuellement de la négation.

(1) On peut remarquer combien Beckett souligne une telle équation en accordant une importance capitale à la négative : ainsi, il décrit avec précision tout ce que Watt ne doit pas faire chez Knott ; de même, il attribue à Watt une tâche qui consiste à ôter le reste du repas du maître au chien lequel n'existe pas dans la maison.

(2) Voir *infra*, p. 21.

(3) Certains critiques avancent une hypothèse qui consiste à considérer Hackett, Sam, Watt et Knott comme une seule et même personne: Hackett représentant l'aspect social de l'homme; Sam l'aspect créateur; Watt et Knott incarnant à eux deux le moi inconscient.

Mes parents ont tout fait de ce qui peut rendre un enfant heureux. Mais je me sentais souvent bien seul.”(1)

Seul, en effet, de cette solitude qui sera le lot de tous ses personnages autour de qui plane un mystère, celui même que les biographes de Beckett et ses collaborateurs au théâtre ont souligné :

“Beckett, écrit Madeleine Renaud, est un homme d'un charme infini très silencieux, très secret; il est difficile de pénétrer son intimité”(2).

Heureux mais solitaire. C'est aussi le cas de Watt. Dans son optique il n'existe pas d'inattendu. Tout peut arriver, ce tout a sans doute ses raisons d'être, donc tout peut s'expliquer; si l'homme ne peut saisir l'essence des choses, c'est qu'il ne détient pas les données réelles du problème, et de ce fait ne détient pas toute la vérité. Précisément l'épisode des amours de Watt avec la poissonnière présente ce visage du mystère. Watt ne cherche pas à comprendre : il y a eu d'autres femmes dans sa vie, il y en aura peut-être d'autres, mais ce ne sont là que simples incidents de parcours, qui ne rompent pas pour autant la monotonie de l'existence; si la monotonie caractérise cet épisode, paradoxalement, la monotonie accidentelle anéantit la monotonie générale et l'annihile.

Dans ce sens, on peut penser que ce n'est pas par hasard que cette aventure amoureuse se passe dans le château de Monsieur Knott; car pour traduire l'absurde Beckett cherche à l'autolocaliser. “L'absurde c'est en quelque chose à l'intérieur de l'existence qu'on le place”(3) écrit à ce sujet Ionesco. Telle semble aussi la conception de Beckett. Voilà pourquoi le lieu privilégié pour les amours de Watt se situe dans le château de Knott. Knott! Entendons par là le *not* qui annihile *what*, comme une équation mathématique amorcée par un dialogue :

— What ?

— Not.

(1) Lawrence Harvey, “Art and The Existential in *En attendant Godot*”, in *Publications of the Modern Language Association of America*, LXXV, March 1960, p. 154.

(2) Cité par Pierre Mélése, *Beckett*, collection “Théâtre de tous les temps”, Seghers Paris, 1966 p. 152.

(3) Eugène Ionesco, *Notes et Contre Notes*, Gallimard, 1962, p. 101.

rieur; de même Watt, Worm, Winnie, Willie, Wylie; cette fréquence du M, sous ses deux aspects, peut être considérée comme le premier bruit de la naissance, la première syllabe que prononce l'enfant.(1)

Pour certains critiques la lettre M représente l'Homme, *the Man*, pour d'autres la Mort, ou même le Moi par rapport au *We* anglais de la lettre M tronquée(2). Toujours est-il qu'il s'agit dans l'esprit de Beckett de rendre compte de l'homme après sa mort par le biais de la recherche de la conscience obscure. Cette recherche étant vaine, le moi irrécupérable, l'homme se heurte au néant, et la rupture avec le monde extérieur est consommée. C'est pourquoi Murphy achève sa vie à la M.M.M.M., ce qui représente les initiales de : Maison Madeleine de Miséricorde Mentale.

Watt sollicite donc en amour une femme/mère et l'on peut s'interroger sur le choix, ô combien, significatif, d'une poissonnière pour objet de ses amours. Considérons par analogie la métaphore du poisson dans l'eau comme le fœtus dans le placenta. C'est Beckett lui-même qui suggère cette image lorsque racontant la naissance de Larry, Tetty souligne les douleurs qui l'accablaient avant l'accouchement puis déclare : "et Larry de bondir comme une carpe"; (3) et plus loin l'auteur précise que ce qu'aimait Watt en Mme Gormann c'était l'odeur du poisson. En choisissant la poissonnière qui lui plaît particulièrement par rapport à ses amours antérieures, Watt-Beckett nous invite à deviner combien sa mère l'a marqué. Car malgré le choc de sa naissance, Beckett a été un enfant heureux, c'est lui-même qui l'avoue quand il déclare lors d'une interview :

"On pourrait dire que j'ai passé une enfance
heureuse... bien que je n'étais pas doué pour le bonheur.

(1) Ludovic Janvier tente une étude onomastique et fait constater, à l'appui de cette thèse, le murmure maternel dans *Molloy* où le personnage, appelle souvent sa mère Mag. en précisant que la lettre *g* abolit la syllabe *Ma* et traduit de ce fait cette ambivalence de sentiments qui consiste à la fois en un besoin d'appeler sa mère et celui de l'abolir. Voir à ce sujet *Configuration Critique*, n° 8, éd. des Lettres Modernes, Paris, 1964.

(2) Pour quelques-uns la Lettre M représente la treizième lettre de l'alphabet et par conséquent traduit chez Beckett un aveu de superstition.

(3) *Wait*, p. 13.

paisiblement dans un fossé (entendons par là la tombe). Notons que l'idée de l'après-mort est souvent suggérée par l'image de Watt dans ce fossé. En outre, Watt a des souvenirs d'amours antérieures à celles qu'il entretient avec Madame Gormann la poissonnière. Il évoque avec nostalgie un ancien amour parmi d'autres probables puisque Beckett situe la poissonnière parmi "toutes les femmes qui lui avaient plu jusqu'alors." (1) Il s'agit en l'occurrence d'une vieille dame (notons l'âge recherché d'une mère) "d'excellente famille et fort bien de sa personne" (2) amputée d'une jambe (une fois de plus recherche de la similitude dans l'infirmité) "qu'à trois reprises au moins il avait poursuivies assiduités" en fin de compte, il "dévissa sa jambe de bois et écarta sa béquille" (3).

A présent Watt est à nouveau amoureux. Toutefois sa façon d'aimer bafoue l'amour, et son indifférence minimise le sérieux des sentiments; l'on peut s'interroger si ce n'est point là nostalgie d'un amour impossible à réaliser puisqu'incestueux; comme tous les personnages de Beckett, Watt semble aspirer à un retour au sein maternel; cette aspiration se double d'une certaine répulsion vis-à-vis de sa mère qui lui a transmis "ses indéfectibles saloperies de chromosomes." Devant cette ambivalence de sentiments, il est logique que Watt ne puisse aimer qu'à moitié pour ainsi dire.

Eternel nomade, Watt cherche à s'écarter peut-être du péché d'amour (femme-mère), à fuir en quelque sorte l'inceste en véritable Oedipe. En effet, il présente à ce niveau des symptômes significatifs plus que l'amour, Watt, nous l'avons vu, semble rechercher la chaleur du sein maternel tout en nourrissant une sorte de rancune à l'égard de cette mère pour l'avoir expulsé de son sein auquel il reste encore lié par le cordon ombilical. Dans cette perspective, il est intéressant de constater avec Ludovic Janvier la fréquence de la lettre M, à l'endroit ou à l'envers (W), dans le choix des noms dans l'oeuvre de Beckett : Murphy, Mercier, Malone, Moran, Molloy, Mahood, Macmann, sans compter les noms qui se terminent par M ou qui contiennent cette lettre à l'inté-

(1) *Ibid.*, p. 143.

(2) *Ibid.*, p. 74.

(3) *Ibid.*, p. 74.

Watt sait aussi marcher selon une technique bien étudiée :

“La méthode dont usait Watt pour avancer droit vers l'est, par exemple, consistait à tourner le buste autant que possible vers le nord et en même temps à lancer la jambe droite autant que possible vers le sud, et puis à tourner le buste autant que possible vers le sud et en même temps à lancer la jambe gauche autant que possible vers le nord, et derechef à tourner le buste autant que possible vers le nord et à lancer la jambe droite autant que possible vers le sud, et à lancer la jambe gauche autant que possible vers le nord, et ainsi de suite, inlassablement sans halte ni trêve, jusqu'à ce qu'il arrivât à destination, et pût s'asseoir”.(1)

Watt aimait également réfléchir, lentement il est vrai, mais selon une logique bien à lui. Dès son arrivée chez Monsieur Knott, il raisonne au sujet de la porte qu'il trouve fermée; il raisonne au sujet de la personne même de son maître, au sujet du chien ou plutôt du non-chien puisqu'il n'existe pas de chien chez la maîtresse; mais il entre dans les fonctions de Watt de donner impérativement les restes de nourriture de son maître au chien; il s'agit donc d'en trouver un; ainsi naît toute la famille Lynch dressée comme un arbre généalogique pour situer un éventuel animal. Bref, le mécanisme du cerveau de Watt ne s'arrête jamais de fonctionner; car il ne cesse de “réfléchir” au non-être de ce qui est “ce non-être qui selon l'expression d'un contemporain n'est autre que “l'être selon moi”. D'où la relation que Watt ne manquera pas d'établir quelque part entre la *nécessité* et l'*absurdité* des choses”(2).

Watt a également des hallucinations; il lui arrive de rester sourd aux paroles de ses interlocuteurs; en effet, d'autres voix peuplent son ouïe “lui chantant, criant, disant murmurant des choses incompréhensibles à l'oreille”(3).

Enfin, Watt a des souvenirs : des souvenirs de grenouilles qu'il avait entendues chanter dans une nuit lointaine, alors qu'il était allongé

(1) *Ibid.*, p. 32.

(2) Ludoví Janvíer, Pour *Samuel Beckett*, *op. cit.* p. 33. C'est l'auteur qui souligne.

(3) *Watt*, p. 30.

Si l'on ajoute que Watt déteste la lune et le soleil, la terre et le ciel, on retrouve le portrait achevé de l'anti-éléments en quelque sorte, l'anti-nature, l'anti-existence.

Cependant, de par cette anti-existence même, Watt EXISTE. Il a un passé et un présent. On ignore son avenir; mais on devine ce qu'il en adviendra, puisque le travail de décomposition est mis en route.

Watt existe donc à la manière de l'image de la sonnette coupée(1) Il a aussi des fonctions bien définies. Beckett donne même des précisions concernant sa tâche et sa non-tâche. Sa non-tâche consiste à ne pas descendre le seau contenant les immondices de son maître, du premier étage au rez-de-chaussée, à ne pas descendre les immondices d'Erskine, du deuxième étage, enfin à éviter toute mision des immondices du premier étage et celles du second. La sensation de l'absurde atteint son paroxysme devant l'importance accordée non seulement à la non-tâche mais à la tâche en soi qui consiste essentiellement à descendre ses propres immondices du deuxième étage, récolter au passage celles du maître, descendues par Erskine au rez-de-chaussée, celles d'Erskine, et vider le tout dans le jardin.

Une autre tâche infligée à Watt consiste à peser, mesurer, compter "avec la plus grande exactitude", les ingrédients (2) qui composent le plat hebdomadaire préparé le samedi dont Knott se nourrira toute la semaine. L'univers de Watt tourne ainsi autour de deux pôles d'attraction : "les immondices" et "les raps".

Et pourtant Watt sait sourire, d'un sourire bien précis, qui "venait rarement seul, mais était suivi peu après d'un second, moins marqué certes. En quoi il ressemblait à un pet. Et il arrivait même parfois qu'un troisième fat nécessaire, très faible et fugace, avant que le visage put retrouver sa sérénité. Mais "c'était rare".(3)

(1) Rappelons que Watt s'interrogeait sans cesse sur l'éventualité de l'existence d'une sonnette dans la chambre d'Erskine le valet de Monsieur Knott, et qu'après avoir épuisé toutes les possibilités, il découvrit que cette sonnette existait mais qu'elle était coupée.

(2) La liste de ces ingrédients est longue, et Beckett se plaît à souligner l'absurdité de leurs propriétés en malaxant toutes sortes de potages, d'aliments, de boissons et même de produits chimiques sans oublier l'acide salicylique.

(3) *Watt*, p. 28.

Pantin minable, clochard irrécupérable, ce vagabond(1) de Watt semble se complaire dans la médiocrité. Masochiste, conscient avec passivité de sa déchéance qu'il sait incurable, ce moribond crasseux régresse sans cesse, farciné apparemment par la laideur, la pourriture, en un mot par le pire : PASSIF, en effet, car il tourne même le dos à sa destination. Il se roule comme une chose, "il se ramasse", il accepte, impossible, l'injure; il va jusqu'à la provoquer et attend qu'on finisse de l'injurier avant d'évacuer les lieux. D'ailleurs, est-il seulement capable d'avoir la moindre réaction ? CRASSEUX aussi : avec son visage épouvantable qu'on voit à peine et son accourtement qui laisse à désirer; ses chaussures sont dépareillées : un brodequin pointu acheté pour huit pences à un unijambiste, de taille quarante-neuf, et un soulier raide de sel, à bout rond, ramassé sur la grève marine, de taille quarante-cinq; Watt, lui, chausse du quarante-sept.

Il ne se lave jamais, ne se mouche presque pas, porte toujours les mêmes chaussettes, le même chapeau et le même manteau, ceux-là même avec quoi il se roule dans les fossés quand on lui lance des pierres ou un baquet d'eau. Le manteau, "encore vert par endroits (...) percé entre quinze et seize livres. (2) Il était d'un âge très respectable "acheté d'occasion" à une veuve méritante, par le père de Watt à une époque où le père de Watt était encore jeune et l'automobile dans son enfance encore, c'est-à-dire quelque "soixante-dix ans plus tôt"(3). Or, ce manteau n'a jamais été lavé depuis, sinon par "d'occasionnelles et fugitives immersions dans les eaux du canal"(4); il n'a jamais été nettoyé à sec, ni retourné, ni brossé". Quant au chapeau, un feutre rigide, il avait appartenu à son grand-père qui "l'avait ramassé sur un champ de courses, là où il gisait à même le sol", il était de couleur moutarde; la crasse le rendit couleur poivre. Et Beckett d'ajouter avec humour que la couleur verte du manteau, et celle du chapeau qui était "jeune" se rapprochaient de plus en plus l'une de l'autre avec chaque lustre qui passait(5).

(1) Il est important de rappeler ici que dès son enfance, Samuel Beckett traçait souvent des croquis de vagabonds et de clochards. Cette tendance qui souligne un côté pessimiste de l'auteur se traduit dans l'oeuvre par la peinture des clowns, des pantins, des handicapés, des mutilés, des débiles, bref des caricatures d'individus irrécupérables à la fois physiquement et moralement.

(2) *Watt*, p. 225.

(3) *Ibid.*, p. 226.

(4) *Watt*, p. 226.

(5) *Ibid.*, pp. 226—227.

Toutefois, son imagination n'a "jamais été des plus vives"(1), aussi préfère-t-il "tout compte fait avoir affaire à des choses dont il ignorait le nom, quoiqu'il en souffrit aussi, qu'à des choses dont le nom connu, le nom reçu, n'était plus le nom, pour lui".(2)

Reste enfin, à signaler qu'il marche "à l'envers" et converse "à reculons", bref une "rigole de foutre à la manque avec les sacs et le chapeau"(3), conclut Beckett achevant le portrait de son personnage.

Cependant, l'auteur n'avait pas omis de préciser auparavant : "Watt est un homme, tout de même, Watt est un homme (...) dans la rue, avec des milliers de semblables à portée de voix en cas de bésion (4) Il est l'illustre représentant de l'image conçue par Vigny pour qui l'homme est un prisonnier, jeté dans un cachot en train de tresser de la paille : il ne sait ni d'où il vient ni où il va, ni qui l'a mis là; il ne sait qu'une chose: il ne le saura jamais. C'est aussi ce que se demande l'entourage de Watt; Beckett va même plus loin que Vigny quand il montre qu'on s'interroge sur "ce qu'il fait", "qui il est" "comment il vit", "d'où il vient", "où il va", "de quoi il a l'air (5) C'est l'impasse totale de l'humanité. Watt représente en quelque sorte une tentative échouée de vivre au grand jour sa vie inconsciente, avec, pour seule arme, un mélange d'infantilisme et de sénilité qui s'annihilent. En cet individu sans visage, "la vraie vie est absente" pour reprendre l'expression de Paul Claudel dans *Le Soulier de Satin*. C'est un cauchemar qui émerge du plus profond de l'être. Se met-il en mouvement ? il avance comme une véritable machine à ressort, une vraie pantomime où, comme le précise Jean-Louis Barrault "le nîmo ne se contente plus d'être muet, il devient : silence."(6)

(1) *Ibid*, p. 83.

(2) *Ibid*, p. 82.

(3) *Watt*, p. 257.

(4) *Ibid*, p. 82.

(5) *Ibid*, pp. 23—24.

(6) Jean-Louis Barrault, *Nouvelles Reflexions sir le Théâtre*, Flammarion, 1958, p. 45.

Un autre handicapé s'intéresse aussi à Watt : C'est Evans, le marchand de journaux de la gare, présenté comme un être "exceptionnellement acerbe", petit, souffrant "sans trêve de quelque mal mental, moral et peut-être même physique "qui enfin "boîtait effroyablement"(1)

Tout d'un coup cette boule informe se met en mouvement. Bestial et primitif, Watt est accablé sur tous les plans; Beckett l'affuble de toutes sortes de tares; "il a un gros nez rouge et pas de domicile fixe"(2); c'est un "voyageur chevronné", "il est doux, la véracité même et par moments un peu bizarre" (3), il a une "titubation funambulesque"(4), "la cicatrice paresseuse et son sang devait être pauvre en? (sic)" (5); il a de "rares cheveux roux (6) qu'il couvre souvent d'un chapeau (7) mou, trop grand pour lui, et son crâne est encadré de "touffes gris-roux". Sa voix à peine audible est "basse et rapide"; il n'a jamais "vu un symbole, ni opéré une interprétation, depuis l'âge de quatorze ou quinze ans"(8) mais il a vécu, "misérablement certes, sa vie d'adulte tout entière. au milieu d'apparences impénétrables, tout au moins pour lui".(9) Il est d'autre part "très sujet à des lubies"(10) et a été souvent "gravement troublé" dans sa vie. Pour Watt, "le besoin de soulas sémantique était parfois si grand qu'il se mettait à essayer des noms aux choses, et à lui-même, un peu comme une élégante des bibis" (11).

(1) *Ibid*, p. 27. Il ne serait pas inutile de noter que ce sont deux infirmes qui s'intéressent particulièrement à Watt, comme si deux parrains s'efforçaient à le prendre en mains peu après sa naissance.

(2) *Watt*, p. 22.

(3) *Ibid*, p. 23.

(4) *Ibid*, p. 32.

(5) *Ibid*, p. 34.

(6) *Ibid*, p. 37.

(7) Il convient de souligner l'importance du chapeau dans l'œuvre de Beckett où tous les personnages sont affublés d'un chapeau mal assorti à leur crâne. Dans son ouvrage *Beckett, "l'enfer à notre portée"* Louis Perche étudie l'étymologie du mot chapeau et la symbolique qui s'en dégage. Il ajoute notamment : "Il y a dans le chapeau, pour les personnages de Beckett, quelque chose d'existentiel: "mon âme au bout de son élastique", s'écrit même Molloy" ed. du Centurion, 1969, pp. 88—89, note 4.

(8) *Ibid*, p. 73.

(9) *Ibid*, p. 73.

(10) *Ibid*, p. 82, note 1.

(11) *Ibid*, p. 83.

créatures de l'écrivain sont interchangeable, si bien qu'un essayiste contemporain va jusqu'à les confondre :

"Dans ce presque rien, écrit-il, tout se ressemble; il n'y a plus qu'un seul personnage mâchonnant de livre en livre le même monologue, recommençant sans désespérer la romance gâteuse de la souffrance de l'homme."(1)

Watt n'a donc pas d'état civil. Beckett le "choséfie", le pulvérise pour ainsi dire, en géomètre dont l'instrument est le mot, pour le reconstituer dans un climat d'indifférence; on dirait qu'il veut "Re-créer" l'homme pour lancer un défi à Dieu, ce Dieu qu'il a cherché et qu'il n'a pas cessé d'attendre. Il va même jusqu'à "déchoséifier" les choses à la manière de Sartre dans *La Nausee*(2).

Watt est donc né. What? Qu'est-ce que c'est ? Ou plutôt "Comment c'est" ? Beckett le présente comme un objet indéfini, une boule de forme "fétatoire", sa présence traduit l'épouvante ressentie devant l'infini, devant ce cercle qui nous entoure et dont on ne peut apercevoir la circonférence. (3).

On devine "sur le trottoir, immobile, une forme solitaire"(4) qui se détache à peine "du mur sombre derrière elle". Est-ce un homme ? une femme ? Est-ce un colis, ou un tapis, ou encore "un rouleau de toile goudronné enveloppé de papier brun et ficelé au milieu ? (5) C'est plutôt "un tuyau d'égout" déclare Mme Nixon au passage. Watt, lui, demeure immobile dans sa bienheureuse supination. En réalité, Goff, qui croit le reconnaître, ignore tout de lui et ne donne à ses interlocuteurs que des détails vagues qui ne satisfont nullement la curiosité de Monsieur Hackett, le bossu.

(1) *Ecrivains d'Aujourd'hui* 1940—1960. "Dictionnaire anthologique et critique", établi sous la direction de Bernard Pingaud, Grasset, 1960, p. 94.

(2) En effet, Sartre pense que "les choses se sont délivrées de leurs noms. Elles sont là, grotesques, têtues, géantes et ça paraît imbécile de les appeler des banquettes ou de dire quoi que ce soit sur elles : Je suis au milieu des Choses, les Innommables". Jean-Paul Sartre, *La Nausee* Gallimard, 1938, pp. 177—178.

(3) On pense au monde de Pascal défini comme "une sphère infinie dont le centre est partout et la circonférence nulle part". *Pensées*, Garnier, Paris, 1958, p. 87.

(4) *Watt*, p. 16.

(5) *Ibid*, p. 17.

"Le malheur, note Ionesco à ce sujet, c'est de naître, souffrir, vieillir, mourir, sans qu'on nous ait demandé notre avis" (1).

L'illusion de la naissance de Watt est d'autant plus suggérée qu'elle se trouve précédée dans le roman par l'image d'une dame enceinte, dont le ventre est "bombé comme un ballon" (2), image qui conduit par association d'idées au récit détaillé d'un enfement d'une façon primitive, voire animale : secouée par la douleur, Tetty, la narratrice, monte les escaliers de son appartement "à quatre pattes, en tordant les tringles du tapis comme autant de fétus (*sic*)" (3), accouche seule au bout de trois minutes, sectionne le cordon ombilical avec ses dents (4), ajuste ses vêtements et redescend, "tenant le bébé par la main" (5), rejoindre ses invités.

La naissance de Watt ne sera pas moins rapide : tout juste un temps d'arrêt du tram à la gare, puis le cri du contrôleur, et le départ du tram. Par ailleurs Watt n'a pas d'état civil. Comme Murphy dont il est la variante il n'a ni adresse, ni nationalité, ni famille et on ignore son lieu de naissance : on sait seulement qu'il a un physique de pantin, qui annonce Vladimir dans *En attendant Godot*, ainsi que d'autres personnages de l'œuvre de Beckett, ce que souligne un critique par l'image, quand il note :

"Ham and Clov, Pozzo and Lucky, Vladimir and Estragon, Nagg and Nell are not characters, but the embodiments of basic human attitudes, rather like the personified virtues and vices in medieval mystery plays, or Spanish Autos Sacramentales." (6)

Ceci explique dans quelle mesure, en parlant des personnages de Beckett, on garde la sensation de piétiner. Car, apparemment toutes les

(1) Eugène Ionesco : "Au-delà des institutions, le véritable adversaire des révoltés c'est l'homme", in *Le Figaro Littéraire*, no 1211, du 10 août 1969, pp. 4-5.

(2) *Watt*, éd. de Minuit, 1968, p. 12.

(3) *Ibid*, p. 14.

(4) Elle va jusqu'à préciser : "Je l'aurais rompu sur mon genou, s'il l'avait fallu." *Ibid*, p. 14.

(5) *Ibid*, p. 15.

(6) Martin Esslin, *The Theatre of the Absurd*, Penguin Books Ltd, 1986, p. 60.

absolue. Leur existence se situe à la limite de la Vie et de la Mort, ce que Jean Cocteau appelle "La Zone" et qui constitue un point mort à la fois extra-spatial et extra-temporel. De ce gait, tout en cherchant, les personnages de Beckett SE cherchent.

"(...) les fantômes de Beckett, précise fort à propose un essayiste contemporain, *existent* plus que la masse des hommes sans anxiété. Pourquoi ? Tout simplement parce qu'ils interrogent, parce qu'ils sont interrogation et qu'ils ne sont que cela"(1).

Devant une telle déclaration, Watt s'impose à nous. Watt What ? Déjà, son nom interroge, inquiète, alerte. En lui "le ver du pourquoi fait son travail"(2). Curieusement certaines définitions du Littré(3) se complètent pour souligner ce qu'est Watt. Il y est fait notamment mention de mots comme : "chose", "idée", "indéterminé;" retenons surtout "deux genres"(Watt est à la fois homme et femme), et "deux nombres" (Watt est à la fois *un* et *tous* : tous les hommes, toutes les idées, toutes les choses).

* * *

L'apparition de Watt dans le roman représente une vraie naissance. Il se trouve en quelque sorte expulsé, projeté d'un tram, parallèlement aux cris poussés par le contrôleur dont la voix "grossie par la colère" traduit la douleur de l'enfement; le contrôleur, c'est le supérieur par rapport à Watt-passager-donc-inférieur; l'idée de protection sociale, de responsabilité, engendre ici une notion de maternité attribuée au contrôleur en tant que représentant de l'ordre. Cette colère pourrait être motivée aussi par la révolte d'une mère, la mère-société, devant son avorton; car Watt est un avorton, une larve, et il le restera jusqu'à la fin; il n'a pas choisi de naître; aussi refuse-t-il de croître, et son langage retera au stade du babil.

(1) Jean Onimus, *Beckett*. Desclée du Brouwer, collection "Les écrivains devant Dieu", 1953, Préface, p. 16. C'est l'auteur qui souligne.

(2) Expression de Ludovic Janvier dans *Pour Samuel Beckett*, éd. de Minuit, 1966, p. 33.

(3) Entre autres définitions du mot "Quoi".

son moi intime en le présentant face à son destin, face à autrui, à l'espace, au temps, aux éléments, face à la vie, à l'amour, à la mort, face enfin et surtout à l'après-mort.

Dans cette relation ambiguë "Langage--Existence/Non-existence-Réflexion" une notion de nihilisme s'impose. Est-ce à dire que Samuel Beckett juge et condamne l'humanité entière ? En fait, il se refuse plutôt à toute mise en jugement de l'homme. Il se contente de constater, de faire constater, de souligner; en allant hardiment jusqu'au bout de sa pensée par le truchement de la caricature. Car les personnages qu'il crée et anime relèvent précisément de la caricature; ils naissent (et là commence leur drame), ils vivent (ou plutôt ils vivent en se contentant simplement d'exister), ils aiment (une savante mécanique motivée), ils réfléchissent (une articulation de mots incohérents), ils raisonnent (dans une logique bien à eux), ils meurent (et paradoxalement, là commence leur vraie vie), enfin ils se décomposent sous nos yeux: c'est cette dernière étape, aboutissement de toutes les étapes antérieures, que Beckett se complait à "disséquer" pour ainsi dire; en pulvérisant l'homme, il détruit toutes les valeurs conventionnelles, en principe indiscutables. Nous sommes bien au-delà de la conception d'Eugène Ionesco pour qui :

"Tout n'est qu'évanescence, tout va vers la dissolution (1).

Car chez Ionesco, la déchéance se situe avant la mort qui devient le but, alors qu'elle ne constitue qu'un point de départ chez Beckett.

"Nous sommes dans la vie pour mourir, écrit encore Ionesco. La mort est le but de l'existence." (2).

Persuadé que la naissance est une tragédie, Beckett cherche donc à fixer par la caricature la grimace de la VIE en tant que phénomène avant-coureur de l'après-mort : voilà pourquoi le grotesque et le macabre se côtoient dans son œuvre. Les hommes régressent, entendons par là qu'ils avancent vers leur déchéance(3), vers un état d'inconscience

(1) Eugène Ionesco, *Notes et Contre Notes*, Gallimard, 1962, p. 194. C'est nous qui soulignons.

(2) Eugène Ionesco, "J'avoue", in *Le Figaro Littéraire*, no 1102, du 29 mai 1967, pp. 11-12.

(3) La déchéance humaine sera particulièrement exprimée dans *Watt* avec une férocité sans précédent. Beckett s'acharne notamment sur la famille Lynch, (tous des tarés), famille surgie directement de l'imagination du non moins taré Watt.

SAMUEL BECKETT
WATT OU LA PREUVE PAR L'ABSURDE

Dr. NADIA ABDALLAH.

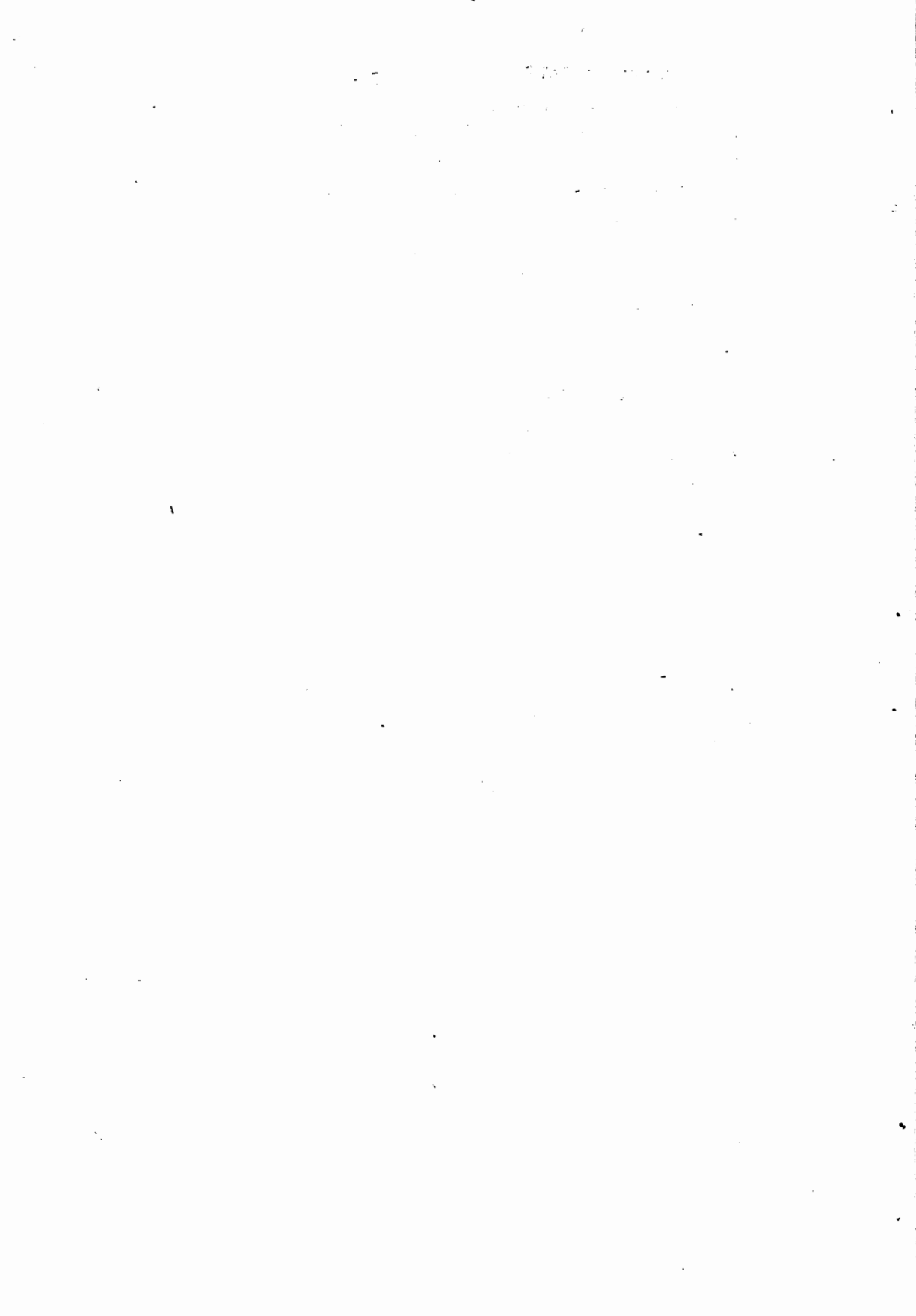
Vue sous un certain angle, l'oeuvre de Samuel Beckett présente l'apparence d'un théâtre de marionnettes : des pantins bien articulés, savamment guidés se meuvent d'une façon précise et fonctionnent en relation les uns avec les autres. La distance séparant ces personnages mécaniques qui ne se rejoignent jamais reflète l'image de trois états irréductibles l'un à l'autre que l'on peut discerner dans l'oeuvre, à savoir :

- Un état biographique : le moi,
- Un état symbolique : le non-être,
- Un état socio-historique : autrui.

Si l'on essayait de mettre en évidence la symbolique et la mythologie des ouvrages de Beckett, on se heurterait à des structures internes qui dépouilleraient les objets et les personnages de leur valeur objective : il s'agit, en effet, d'un discours de l'imagination, dépourvu d'homogénéité, qui au demeurant, accorde un effet restrictif à la pensée humaine. Ce n'est plus l'ère du "je PENSE donc je SUIS", c'est bien plutôt celle du "Je ne PENSE pas et pourtant je SUIS", doublé d'un "je ne SUIS pas et pourtant je PENSE" lancé comme un défi à la logique cartésienne; en d'autres termes, il y aurait d'une part la relation LANGAGE/EXISTENCE (1), et d'autre part la relation NON-EXISTENCE/REFLEXION.

Paradoxe du langage et de la réflexion, paradoxe de l'existence et de la non-existence. Telle semble l'orientation de la grande interrogation de Beckett, à la manière de l'ETRE ou non-ETRE² shakespearien. L'homme est énigmatique; il convient donc d'essayer de révéler

(1) Compte-tenu du „je ne PENSE pas" comme conséquence de l'incohérence du langage et de l'articulation peu commune des mots, contrairement au "Je PENSE" sur lequel se fonde une certaine logique, particulière il est vrai mais logique à sa façon, qui caractérise par intermittences les personnages de Beckett.



I — Oeuvres de MALRAUX :

- 1) *Les Conquérants*, Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
- 2) *La Condition Humaine*, Paris, Gallimard, 1946, 284 pages (Collection Folio)
- 3) *L'Espoir*, Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
- 4) *La lutte avec l'Ange*, I — Les Noyers de l'Altenburg, Edition du Haut Pays 1943
- 5) *Antinemoires*, Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
- 6) *Les Chênes qu'on abat*, Paris Gallimard, 1971, 151 pages.
- 7) *Oraisons Funèbres*, Paris, Gallimard, 1971, 139 pages.

II -- Etudes consacrées à Malraux :

- 1) BOISDEFFRE (Pierre de), André MALRAUX, Paris. Editions Universitaires, 1969. 127 pages (Classiques du XXème siècle)
- 2) GAILLARD (Pol) André MALRAUX, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
- 3) Id.: L'Espoir de Malraux, Paris, Hatier, 1970, pages (Profil d'une oeuvre)
- 4) Id. Les critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970, 191 pages. Cet ouvrage comprend des articles de :
 - BERL (Emmanuel), : *L'Intellectuel et la Révolution*.
 - MAURIAC (François) *Le Romantisme au pouvoir*.
 - PICON (Gaetan) *La Rupture avec le Communisme*.
 - ROY (Claude) *Le Marxisme de Malraux*.
 - STEPHANE (Roger) *Les silences de Malraux*.
 - - TROTSKY (Léon) *La Revolution Etranglée*.
5. HARRIS (G.T.), *André Malraux. L'Ethique comme fonction de l'Esthétique*. Paris, Mindard, 1972, 153 pages.
- 6) MOSSUZ (Janine) *André Malraux et le Gaullisme*. Paris, Armand Colin, 1970, 31 p.
- 7) PICON (Gaetan) *Malraux par lui-même*, Paris, Editions du Seuil, 1955, 132 pages.
- 8) Id. André Malraux, Paris, Gallimard, 1945, 127 pages.

Le gaullisme c'est la marche fraternelle d'hommes libres, conduits par un chef, vers l'accomplissement d'un grand dessein.

Dans ses combats contre le colonialisme en Indochine, contre le fascisme en France, en Allemagne et en Russie, il s'est toujours engagé pour servir la liberté, et non pas pour défendre les doctrines extrémistes. Il n'a pas fait sienne l'idéologie marxiste.

"Son engagement est déterminé par l'enjeu du combat, — la liberté mise en péril par le fascisme — non par la doctrine communiste qui anime certains des combattants." (1)

Le ressort humaniste et libertaire de son engagement ne doit pas être déformé ou méconnu. Il trouvera son aboutissement dans son engagement au gaullisme, qui devient en quelque sorte "l'aboutissement d'une longue quête" (2). C'est comme si Malraux a enfin trouvé "son étoile fixe" : le général de Gaulle.

Partant de ce principe, le gaullisme de Malraux ne peut guère représenter une faille dans son itinéraire, puisqu'il a répondu à ces constantes exigences : la liberté, la fraternité et l'autorité.

Dans tous ses combats, Malraux s'est battu pour une cause qui à ses yeux avait une importance capitale : celle de l'homme.

Il déclarera en 1946 :

"Le problème qui se pose pour nous aujourd'hui, c'est de savoir si sur cette vieille terre d'Europe, oui ou non l'homme est mort... L'homme est aujourd'hui contraint à répondre non seulement sur ce qu'il a voulu faire, non seulement sur ce qu'il voudra faire, mais encore de ce qu'il croit qu'il est." (3)

L'itinéraire de Malraux constitue une tentative de réponse. Nous ne pouvons donc que conclure avec Janine Mossuz que "le gaullisme de Malraux n'a pas le sens d'une cassure. Il répond à des exigences inchangées et constitue comme les engagements antérieurs, l'approche d'un idéal immuable : l'avènement de l'homme libre dans un monde fraternel. Les tentatives de Malraux ont revêtu diverses formes et présenté parfois un double visage. Mais ni le sens de sa recherche, ni sa volonté de découverte n'ont changé". (4)

1. MOSSUZ (J.), op. cit., pp. 246.

2. *Ibid.*, p. 273.

3. Conférence donnée par A. Malraux à la sorbonne sous l'égide de l'Unesco, in *Carrefour*, n° = 116, 7 novembre 1946.

4. MOSSUZ (J.), op. cit., p. 287.

quand il milita auprès de certains des camarades, dans les années trente, c'est surtout pour abattre le fascisme.

Malraux n'a jamais été infidèle ni parjure. En devenant gaulliste, il n'a point failli aux aspirations exprimées dans *la Condition Humaine* et dans *l'Espoir*.

Gaetan Picon affirme, avec raison :

“Dans le cas Malraux, la rupture avec le communisme me paraît être un passage, non à la facilité, mais à la solitude et au risque (...) Malraux a été avec les communistes au moment où il était assez difficile d'être avec eux; il les a quittés au moment où il devenait très facile d'être avec eux.”(1)

L'anticommunisme d'André Malraux ne s'est jamais fait l'écho de la droite classique. Il s'est détaché du R.P.F. quand ce dernier s'est laissé dominer par une majorité de droite. Il ne ressemble pas plus à celui de la “3ème force”. Il ne peut se réduire à la condamnation du parti communiste français.

S'il a rompu avec le communisme, c'est que ce dernier a cessé d'aider à la libération de l'homme. Il a rompu avec une idéologie qui ne signifiait plus rien à ses yeux, mais il n'a pas renoncé pour autant à ses principes initiaux. Ses idées de jeunesse ne sont guère opposées à celles de la maturité.

“Aux yeux d'André Malraux, le gaullisme tel qu'il le ressent, et tel qu'il le défend, répond à une triple exigence : la liberté, la fraternité, l'autorité (...) Le gaullisme permet seul le règne d'une véritable liberté (...) Le gaullisme est aussi une fraternité (...) celle des citoyens réunis en un seul peuple, rassemblés. Enfin le gaullisme, tel que le conçoit André Malraux c'est l'apparition au premier plan de la scène, d'une autorité. L'autorité d'un homme peut seul garantir les libertés des individus : elle seule peut incarner l'idéal vers lequel doivent se tendre ensemble, toutes les énergies.”(2).

1. PICON (G.), *La Rupture avec le Communisme*, in GAILLARD (P.), *Les Critiques...*, p. 110.

2. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, pp. 244—254.

De Gaulle sera également pour Malraux, comme il l'écrira dans *les Chênes qu'on abat*, "le dernier grand homme qu'ait hanté la France." (1)

Il prend place dans la lignée des grands hommes de l'histoire. Malraux revient à plusieurs reprises sur cette dimension commune aux grands hommes

"A la suite de Ghandi, de Mao-Tsé-Toung, d'autres encore, le général de Gaulle était le seul à pouvoir prendre place. Pour André Malraux, lui seul incarne, en France, le mythe national (2)

Et Malraux le confirmera dans ses *Antimémoires* à la suite de la première rencontre

"Il était égal à son mythe." (3)

Ce qui a toujours choqué nombre de lecteurs d'André Malraux, c'est qu'il a activement coopéré à un gouvernement situé bien loin de la gauche, rompant ainsi avec l'idéal de sa jeunesse, avec les idées qui le conduisirent en Chine et en Espagne; ils lui reprochent d'avoir facilement passé "du côté opposé."

Cependant, après cette étude détaillée des engagements de Malraux nous pouvons conclure que l'évolution idéologique de l'écrivain peut être caractérisée par la continuité et non pas par la rupture.

En devenant le chantre du R.P.F., et son organisateur, en s'engageant à fond dans le gaullisme, Malraux n'a guère rompu avec l'idéal de sa jeunesse.

Les hommes de gauche qui furent à un moment donné ses compagnons de route, se méprennent gravement sur le sens de son action auprès de de Gaulle.

La méprise a pour origine la fausse image que l'on a eu de lui, comme révolutionnaire d'abord, puis comme communiste engagé dans les rangs marxistes. Cependant, Malraux ne s'aventura guère sur de tels chemins. Il n'appartint jamais au Parti Communiste Français, et

1. MALRAUX (A.), *Les Chênes qu'on abat*,

2. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 273.

3. MALRAUX (A.), *Antimémoires*, p. 135.

Pour les Français qui s'engagent auprès du général, il était "un des hommes sans lesquels la France serait différente de ce qu'elle est (...) Pour le tiers-monde, il a incarné l'indépendance (...) Il a rétabli la France qu'avaient aimée jadis tant de nations.(1)

De Gaulle apparaissait comme l'incarnation des rêves auxquels aspiraient tous les Français. C'est le héros de l'histoire et "sa gloire tient (...) aux sentiments épars qu'il ordonne".(2)

De Gaulle est conscient de la portée de son action. Voici ce qu'il en dit à Malraux :

"L'important (...) n'était pas ce que je disais, mais l'espoir que j'apportais. J'ai rétabli la France, parce que j'ai rétabli l'espoir du monde en la France." (3)

D'ailleurs il appellera le premier tome de ses mémoires, les *Memoires D'Espoir*.

Charles de Gaulle a été le Sauveur qui a porté la France, comme l'avait portée Jeanne d'Arc, comme tous les sauveurs ont porté leurs fidèles.

Cet homme apparaît comme le chef d'un ordre religieux, car il a rétabli la France à partir d'une foi et Malraux ajoute :

"Toute foi qui implique une vocation au service du Christ ou de la France, est puissamment contagieuse. Il ne suffisait pas de sa foi en la France pour qu'il fût le général de Gaulle, mais sans elle, il n'eût été qu'un vainqueur intrus parmi les vrais, ou un vaincu plus ou moins héroïque."(4)

Aux yeux d'André Malraux, l'homme du 18 Juin apparaît comme le type même de l'intellectuel homme d'action, ayant conçu puis réalisé un grand dessein. Les actes répondent à ses pensées.

1. MALRAUX., *Les Chenes qu'on abat*, p. 39.

2. *Ibid.*, p. 40.

3. *Ibid.*, p. 123.

4. *Ibid.*, p. 31.

“La force du général est dans ce qu’il a fait, dans ce qu’il fait”(1)

Une grande partie du prestige et de la force de de Gaulle provient de son action lors de la guerre et de la résistance, donc “dans ce qu’il a fait”. Malraux a toujours vénéré cet aspect du personnage. De Gaulle était pour lui un héros national; c’est l’homme qui “sans attendre et sans tergiverser a, dès le premier jour, dit “non à l’ennemi et à la trahison.”(2)

Dès la première rencontre en 1945, Malraux découvrit enfin la grande individualité dont il avait toujours rêvé.

De Gaulle incarnait alors un mythe de l’union nationale. “Il incarne un mythe, mais il a aussi le visage des héros qui ont de tout temps fasciné Malraux”.(3)

De Gaulle n’a pas accepté que la France disparaisse. Il a dès les premiers jours réuni autour de lui tous les Français “qui veulent que la France ne meure pas”.(4)

Pour mener à bien ce rêve, de Gaulle a tout risqué; il était uniquement préoccupé de son “étoile fixe”, la France.

Il va comme le dira à plusieurs reprises Malraux, épouser la France, il incarnera le destin de la France.

A la première entrevue, Malraux se trouve en face de l’homme qui a voulu assumer la responsabilité du destin de la France, “enfin un personnage hanté, dont ce destin qu’il devait découvrir et affirmer emplissait l’esprit.” (5)

Ainsi pour Malraux le destin de la France est confondu avec celui de l’homme qu’il rencontre pour la première fois en 1945.

Plus de vingt ans après, il s’interroge sur ce que représentait de Gaulle, non seulement pour les Français, mais pour le tiers-monde.

1. MALRAUX., *Antimemoires*, p. 149.

2. Id., *Oraisons Funebres*, Callimard, 1971, 1939 pp., p. 26. (Discours de Malraux le jour de la Commémoration de la Libération de Paris.)

3. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 271.

4. MALRAUX (A.), *Les Chênes qu’on abat*, p. 21.

5. Id., *Antimemoires*, p. 135.

Lors de l'entrevue de 1958, Malraux est sensible à l'esprit militaire du chef, auquel était subordonnée sa conception de l'action. Sa formation militaire a influencé sa pensée. C'est ainsi qu'il conçoit le gouvernement "comme l'instrument d'un combat pour le développement de la France."(1)

En décembre 1969 a eu lieu la troisième entrevue rapportée entre le général de Gaulle et Malraux. Une fois de plus, se trouveront face à face un homme qui a pesé sur l'histoire et un écrivain qui lui a toujours été fidèle et qui fixera leur dialogue en des pages inoubliables.

"Ces pages, plus qu'aucune confidence, éclairent de Gaulle de l'intérieur. Nous apercevons les pentes de son esprit et de son âme telles qu'il les a laissées voir à son ami en s'avançant vers sa fin".(2)

Et Malraux le confirmera lui-même :

"Ce que dit ici le général de Gaulle le peint; quelquefois dans un domaine assez secret."(3)

Pour la première fois, Malraux a voulu présenter de Gaulle l'homme et non pas seulement le chef; il a tenu, comme il l'a affirmé, "à montrer un général de Gaulle dans l'histoire et hors de l'histoire" "Je ne me suis pas soucié d'une photographie; j'ai rêvé d'un Greco; mais d'un Gréco dont le modèle serait imaginaire."(4)

Cette troisième entrevue rapportée est plus intime. De Gaulle révèle un peu plus de son moi intime, de sa vie privée; il évoque des souvenirs de famille. Cependant Malraux conclut à l'impossibilité de connaître Charles à travers un dialogue avec de Gaulle.

"Il exprimait un destin, et l'exprime lorsqu'il proclame son divorce avec le destin. L'intimité avec lui, ce n'est pas de parler de lui, sujet tabou, mais de la France(...)ou de la mort.(5)"

Malraux dira un jour à un ami :

-
1. MALRAUX (A.), *autimémoires*, p. 155.
 2. GROSJEAN (Jean), *Preface des Chenes qu'on abat*.
 3. MALRAUX (A.), *op. cit.*, p. 11.
 4. *Ibid.*, loc. cit.
 5. MALRAUX (A.), *Les Chenes qu'on abat*, p. 25.

Son silence même prenait la forme d'une interrogation.

De cette première entrevue, Malraux gardait le souvenir" de cette distance singulière en ce qu'elle n'apparaissait pas seulement entre son interlocuteur et lui, mais encore entre ce qu'il disait de ce qu'il était". (1)

- Ses paroles n'exprimaient pas sa vie intérieure. Cette présence intense, Malraux ne l'avait rencontrée que chez les "grands esprits religieux (...)." "C'est pourquoi, ajoute-t-il, j'avais pensé aux mystiques lorsqu'il avait parlé de la Révolution".(2)

De Gaulle "imposait le sentiment d'une personnalité totale." Ses paroles avaient "le poids que donne la responsabilité historique à des affirmations très simples."(3).

Toutes ces réflexions fixées après la première rencontre, ne révèlent rien du moi intime du personnage. L'homme privé ne se révèle pas. Malraux malgré leurs solides relations, ne le connaît pas. Un long commerce avec le chef lui avait "rendu familiers certains de ses processus mentaux, et sa relation avec le personnage symbolique qu'il appelle de Gaulle dans ses Mémoires plus exactement, dont il a écrit les mémoires, où Charles ne paraît jamais."(4)

Son entourage ne pouvait pas se flatter de connaître "l'homme privé", celui qui parlerait de ses affaires privées. Il ne se départait jamais de son personnage mythique : le général de Gaulle.

"Pour tous, à l'exception sans doute de sa famille, il semblait un reflet courtois de son personnage légendaire"(5)

Ses Mémoires de Guerre ont résolument écarté Charles pour ne montrer que de Gaulle.

"Car Charles est modelé par la Vie, et de Gaulle par le Destin."(6)

-
1. MALRAUX (A.), *Antimémoires*, p. 134.
 2. *Ibid.*, loc. cit.
 3. *Ibid.*, p. 135.
 4. *Ibid.*, p. 150.
 5. *Ibid.*, p. 151.
 6. *Ibid.*, p. 153.

(...) Ses expressions étaient celles de la courtoisie; et, quelquefois, de l'humour.. Alors l'oeil rapetissait et s'allumait à la fois, et le lourd regard était remplacé pour une seconde par l'oeil de l'éléphant Babar"(1)

Une troisième phase du portrait sera tracée par Malraux lors de l'entrevue de décembre 1969;

"La fatigue des derniers temps du pouvoir s'est effacée (...) Sa haute taille, un peu courbée maintenant dominait la petite pièce où flambe un feu de bois"(2)

Malraux est sensible aux moindres détails :

"J'ai redécouvert, en lui serrant la main, combien les mains de cet homme encore si grand sont petites et fines."(3)

Cette constatation lui rappelle Mao dont "les mains ébouillonnées semblent les mains d'un autre."(4)

Ainsi, de la première entrevue rapportée à la dernière, la physiologie de l'homme du 18 juin s'impose à nous, vivante et attachante.

Malraux ne se contente pas de fixer les traits du chef, mais il veut nous le faire connaître comme lui l'a connu et aimé.

Il nous le révèle à travers ses propos, et plus encore par ses silences, beaucoup plus éloquents. Le général de Gaulle s'éclaire lui-même. Comme pour le portrait physique, le caractère, le tempérament, la nature même du personnage évolueront d'une rencontre à l'autre, ou d'un entretien à l'autre.

En 1945, de Gaulle s'impose à Malraux surtout par "la forme de son silence."(5) il ne parlait pas, il interrogeait, mais non pas à la manière froide et banale des interrogatoires.

"Il aime la courtoisie de l'esprit. Il s'agissait d'une distance intérieure que je n'ai rencontrée, plus tard, que chez Mao-Tsé-Toung."(6)

1. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 151.

2. Id., *les Chenes qu'on abat*, p. 17.

3. *Ibid.*, loc. cit.

4. *Ibid.*, loc. cit.

5. Id., p 134.

6. *Ibid.*, loc. cit.

De 1945 à 1969, le portrait se complètera, donnant du général de Gaulle une image vivante et attachante.

Jusqu'à la première entrevue, de Gaulle était pour Malraux un mythe sans visage. Mais soudain le mythe se concrétise et l'écrivain veut le fixer par des mots.

"J'avais conservé un souvenir précis de son visage : vers 1943, Ravanel, alors chef des groupes francs, m'avait montré sa photo parachutée. En buste, nous ne savions pas même que le général de Gaulle était très grand(...) Jusqu'en 1943, nous n'avions pas connu le visage de l'homme sous le nom duquel nous combattions.(1).

Rien n'échappe au regard scrutateur de l'auteur. La surprise des premiers instants passée, il essaye de découvrir ce qui distingue la physiologie du général.

"Je ne le découvrais pas, je découvrais ce pourquoi il ne ressemblait pas à ses photos. La vraie bouche était un peu plus petite, la moustache un peu plus noire."(2)

Mais il est surtout impressionné par le regard "dense et lourd"(3)

Quelques années plus tard, Malraux ajoutera quelques détails à ce portrait, après le second entretien rapporté dans *les Antimemoires*. Malraux songe au de Gaulle de la première rencontre et note les changements qui sont survenus :

"Ses moustaches devenues grises étaient à peine visibles, et sa bouche continuait maintenant par deux rides profondes, qui rejoignaient son menton."(4)

"Peut-être l'Histoire apporte-t-elle son masque avec elle."(5)

Le temps a laissé ses empreintes sur la physiologie du chef; elle s'est nuancée " d'une apparente bienveillance, mais il demeurait grave

1. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 124.

2. *Ibid.*, p. 125.

3. *Ibid.*,

4. *Ibid.*, p. 150

5. *Ibid.*, loc. cit.

Georges Mounin estime que Malraux a trouvé dans son engagement auprès du chef l'occasion rêvée de jouer le rôle qu'il voulait jouer.

“Le Malraux qui prêtait à Perken un cri d'ambitieux pascalien “(Je veux laisser une cicatrice sur cette carte)” devait comprendre un soldat dont le dernier mot dans *Le Fil de l'Epee* magnifie les ambitieux de premier rang qui ne voient à la vie d'autre raison que d'imprimer leur marque aux événements. ”(1).

Ainsi cette entente entre les deux grands hommes rappelle celle des légendes médiévales, l'amitié qui liait le Prince à son poète, le seigneur à son chevalier.

Cette amitié, cette entente, cette compréhension mutuelle résistera à tous les vents : aux échecs, aux déceptions, aux difficultés. Malraux restera toujours fidèle à de Gaulle, et ce dernier était fermement convaincu que si tous l'abandonnaient, il pouvait compter sur ce Compagnon.

L'écrivain liera toujours son destin à celui de de Gaulle, puisque tous deux s'occupent du “destin” de la France. Et c'est là que réside la vraie raison de cette entente qui a fait verser tant d'encre.

En quittant Colombey, après une longue visite au général de Gaulle, en décembre 1969, Malraux écrit :

“Soir, tombe doucement dans les tourbillons de neige. Voici la fin du temps de cet homme et du mien. La fin du temps de la marche de Gandhi vers l'Océan pour y recueillir le sel, “et de la marche de Mao vers le Tibet pour y recueillir la Chine”(2).

De Gaulle apparaît sous la plume de Malraux à trois reprises; l'auteur a essayé de fixer les traits, les réflexions du Chef, à trois époques différentes : lors de la première rencontre en 1945, puis au cours du second entretien qu'ils eurent en 1958 et la troisième en décembre 1969.

“On guettait le “de Gaulle” que présenterait Malraux; très simple, digne, précis, sans concession, il ne déçoit pas.”(3)

1. MOUNIN (Georges), *Les Chemins de Malraux*, in P. Gaillard, *les Gritiques..* p. 109 /

2. MALRAUX (A.), *Les Chenes qu'on abat*, p. 149.

3. GAILLARD (P.), *Malraux*, p. 151.

“Pour André Malraux, un grand homme existe.”(1).

Certains critiques ont expliqué l'entente entre Malraux et de Gaulle par leur commune opposition au stalinisme.

Mauriac écrit dans *le Figaro*.

“Barrès à vingt-cinq ans, député boulangiste de Nancy, en était réduit à suivre un cheval noir, une barbe blonde, un uniforme. Malraux, dans la force de l'âge, s'attache à un chef qu'il croit capable non seulement de changer le destin français, mais surtout de contrecarrer en Europe les desseins de Staline.

“Car c'est contre le formidable Staline qu'il mène sa partie, ce David sans âge. Il se bat contre Staline beaucoup plus qu'il ne se bat pour de Gaulle. Dirai-je le fond de ma pensée ? Je crois à André Malraux assez de superbe pour qu'il considère Charles de Gaulle comme une carte de son propre jeu.”(2)

D'autres ont vu dans la collaboration de Vincent Berger et d'Enver Pacha dans *les Noyers de l'Altenburg*, la préfiguration de ce qu'allait devenir la collaboration de Malraux et du général de Gaulle.

Malraux écrit dans *les Noyers de l'Altenburg* :

“Il est trop tard pour agir sur quelque chose : on ne peut plus agir que sur quelqu'un, et ce quelqu'un ne peut être qu'Enver.”(3)

Gaëtan Picon en tire comme conclusion :

“Qu'on substitue de Gaulle au nom d'Enver, et l'on aura probablement compris tout le Malraux d'hier.”(4)

Et selon Boisdeffre, “Malraux a suivi le général de Gaulle, comme Berger a suivi Enver Pacha, pour arracher aux mains des résistants de septembre et des politiciens de la IVème République une France dissociée et décérébrée”(5)

1. MOSSUZ (J.), op. cit., p. 56.

2. MAURIAC (A.), article sur Malraux, in *Le Figaro*. Cité par P. GAILLARD, in *Les Critiques* ..., p. 14.

3. MALRAUX (A.), *Les Noyers de l'Altenburg*.

4. Cité par P. Gaillard, in *Les Critiques*..., p. 109.

5. BOISDEFFRE (P. de), op. cit., p. 20.

Malraux a toujours été seul, même au milieu des foules, en combattant avec les autres.

“Son engagement comportait une dimension métaphysique obsédante : il s’agissait pour lui, en insérant son action dans une cause collective, de provoquer, de nier, de vaincre la mort. Aussi, ne pouvant totalement fonder ses buts avec ceux des autres, restait-il solitaire dans les groupes les plus soudés, dans les foules les plus denses”(1)

A cette même solitude se joint donc le rêve d’une commune grandeur qui constitue leur meilleur terrain d’entente.

Malraux n’écrit-il pas lui-même dans *les Antimémoires* :

“Ce qui m’intéresse (...) dans un grand homme ce sont les moyens et la nature de sa grandeur”.(2)

Le général de Gaulle a trouvé chez Malraux une possibilité de s’exprimer puisque les références étaient communes. Chacun des deux a été séduit par la forte personnalité de l’autre. Chacun a reconnu chez l’autre une même morale, celle de l’action, qu’ils ont tous deux défendue.

“Tous deux ont fait de la volonté qui permet seule l’action une règle impérative.”(3)

De Gaulle et Malraux ont retrouvé l’un chez l’autre la réalisation des rêves auxquels ils avaient toujours aspirés, sans pouvoir y atteindre.

“André Malraux rencontre un homme qui, tout en ayant écrit a réussi son action et l’a menée à terme. (...) Le général de Gaulle découvre un homme d’action qui a fait de son oeuvre écrite un monde dans lequel se reconnaissent les hommes du XXème siècle. ”(4)

De Gaulle apparaît à Malraux dès la première rencontre comme un homme qui a accompli les gestes de ses rêveries.

1. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 55.

2. MALRAUX (A.), *Antimémoires*, p. 20.

3. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 55.

4. *Ibid.*, p. 56.

Malraux demeurera auprès de Charles de Gaulle en tant que ministre de la culture, jusqu'en 1969. Mais le général, battu au référendum après les secousses de mai 1968, quittera le pouvoir. Malraux le suivra dans sa retraite, cette fois encore, sans hésiter.

Ainsi prendra fin l'intervention de de Gaulle dans l'Histoire de la France, ou, comme il le dira lui-même à Malraux :

“J'avais un contrat avec la France (...) Le contrat a été rompu(...)

C'est sans droit héréditaire, sans référendum, sans rien, que j'ai été conduit à prendre en charge la défense de la France et son destin.

J'ai répondu à son appel impératif et muet.” (1)

De Gaulle a été “hanté par la France, comme Lénine l'a été par le prolétariat, comme l'est Mao par la Chine, comme le fut Nehru par l'Inde (...) C'est elle qu'il a épousée avant Ivone Vendroux”(2).

De là provient peut-être la raison essentielle de cette entente sans faille qui a lié les deux hommes pendant plus de vingt ans et qui a commencé dès la première rencontre en 1945.

Janine Mossuz pense que la rencontre des deux hommes a été la confrontation “de deux grands solitaires, deux hommes séparés des autres par leur don de visionnaire, deux hommes mis à l'écart par leur intelligence prophétique. Habités tous deux par un sentiment inhabituel de la grandeur, recherchant inlassablement cette grandeur, ils se ressemblent.” (3).

P. de Boisdeffre explique les raisons de l'entente entre les deux hommes par “une même solitude, une même soif d'action et de grandeur”, une même puissance de volonté et de mépris.

Une commune solitude les a rapprochés. Charles de Gaulle était seul dans le monde de l'histoire; l'appel du 18 juin était peut-être “une proclamation de cette solitude, lancée vers tous ceux qu'il aurait voulu rallier à ce monde de l'histoire.”(5)

1. MALRAUX (A.), *Les Chênes qu'on abat*, pp. 18 — 19.

2. *Ibid.*, p. 20.

3. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 55.

4. BOISDEFFRE (P.), *op. cit.*, p. 7.

5. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 55.

dont il était hanté depuis tant d'années. Rien n'avait changé depuis son dialogue imperturbable avec cette ombre. En ces jours où ceux qui l'appelaient le plus furieusement se voulaient fascistes, où ceux qui l'attaquaient le plus se voulaient communistes, où la France semblait vouée à l'affrontement des partis totalitaires, il ne pensait qu'à refaire l'Etat." (1)

André Malraux sera ministre de la culture. Son engagement au gaullisme est toujours aussi fidèle et aussi total. Il n'enfreindra jamais la solidarité gouvernementale bien qu'il ne soit pas toujours d'accord sur tout, "et certains silences, certaines attitudes, doivent particulièrement lui coûter." (2)

Malraux se fera le champion du gaullisme qui à son tour fera la "politique de l'histoire" plus valable que la "politique des politiciens" (3). Il travaillera inlassablement pour refuter les arguments avancés par les antigauillistes. Il répondra à ceux qui accusent le régime de fascisme et le chef d'Etat de dictateur :

"Le général de Gaulle n'est pas fasciste : la preuve est que je suis avec lui; et j'ai quatorze blessures au service de la liberté".⁴

Malraux comprend que la raison de ces accusations provient de la confusion entre les deux régimes à cause de leur anticommunisme. Il établit une distinction entre les deux régimes en disant qu'ils ont bien un ennemi commun, le communisme, mais ils le combattent pour des raisons très opposées :

"Le nazisme le condamne en tant que communisme; le gaullisme le condamne en tant que stalinisme." (5)

Le gaullisme au pouvoir est donc le début d'une ère nouvelle, celle de l'espérance : la France renaîtra, elle redeviendra elle-même. Mais pour cela, les Français doivent, comme le leur explique Malraux, serrer les rangs pour reconstruire un pays adapté au monde moderne.

1. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 149.

2. GAILLARD (P.), *André Malraux*, p. 183.

3. *Le Rassemblement*, n° = 148, Samedi 18 février 1950.

4. Conférence à Sao Paulo, le 26 août 1959. In *le Monde*, 23 août 1959.

5. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, pp. 135—136.

Il s'était fixé pour tâche le combat pour l'expansion du gaullisme et du même coup la démystification du communisme. Ce double but sera assumé par la revue mensuelle dont il dotera le R.P.F. "*Liberte de l'Esprit*", dont le titre à lui seul est une profession de foi et un programme. Malheureusement cette revue ne dura pas longtemps et disparut en 1953.

Comme délégué à la propagande, Malraux voudrait s'attacher au "gaullisme dans ce qu'il a de plus grand et de plus historique." Le R.P.F. l'intéressera d'autant plus qu'il apparaît comme "l'expression temporelle du gaullisme." (1)

Le gaullisme doit être pour tous les Français "une école d'énergie"(2) Pour cela il devrait emprunter des méthodes différentes de celles des autres partis, et qui seraient totalement dépourvues de mesquinerie ou de bassesse.

Pour établir un contact direct entre la nation tout entière et l'homme qui doit la représenter, Malraux entreprend les campagnes de "salut public" qui doivent prouver la force des liens qui unissent le général de Gaulle et le peuple français.

Mais le R.P.F. ne réussit pas dans sa tâche fixée par les rêves et les aspirations du général et de tous les gaullistes.

André Malraux se donne alors exclusivement à ses grands livres sur l'art, auxquels il travaillait depuis 1935.

Mais quand de Gaulle revient en mai 1958, Malraux accourt de Venise:

"J'ai tendance à me croire utile", déclare-t-il en souriant. (3)

Il raconte dans ses *Antimemoires* l'entrevue qu'il a eue avec de Gaulle à Paris à l'Hôtel Lapérouse, et explique le retour de l'homme du 18 Juin :

"La grande solitude qu'il a toujours portée en lui, il la quittait pour des négociations, mais aussi pour la destinée de la France,

1. MOSSUZ (J), *op. cit.*, p. 78.

2. *Le Rassemblement*, n° = 53, Samedi 24 avril 1948.

3. MALRAUX (A), *Antimemoires*, p. 148.

Un seconde éventualité : créer une situation "révolutionnaire" qui impliquerait un coup d'état fait par les Gaullistes.

Mais le R.P.F. décevra les vœux et les espoirs de Malraux et de de Gaulle. Malraux s'en détachera peu à peu.

Les causes de son désengagement et de sa désaffection pour le R.P.F. sont multiples. Malraux n'a jamais rompu avec l'idéal de justice sociale, et le R.P.F. devait "promouvoir des valeurs essentiellement défendues par la gauche. André Malraux rêvait d'un gaullisme généreux, de gaullistes engagés au service de l'homme; il espérait voir venir auprès du général de Gaulle ceux qu'il avait rencontrés quelques années plus tôt dans les rangs des militants antifascistes, ceux qui s'étaient battus dans les maquis de Corrèze, tous ceux qui pour lui formaient un peuple." (1)

Submergé par une majorité de droite, le R.P.F. devient un parti de droite et entre ainsi dans le jeu des partis.

Une autre raison de la désaffection de Malraux et de sa déception réside dans l'absence des intellectuels qu'il voulait grouper autour de de Gaulle.

En 1951, Malraux refuse d'être le candidat du R.P.F. aux élections législatives, affirmant ainsi sa volonté de rompre tous les liens avec une organisation dont il n'espérait plus rien.

En 1953, de Gaulle lui-même rend à ses compagnons leur liberté. Le R.P.F. n'existe plus.

Quelques années plus tard, lorsqu'il évoquera le R.P.F., Malraux ne cachera pas son amertume :

"A partir du moment où il s'est conduit comme un parti parmi d'autres, cela perdait sa signification" (2).

Cependant le rôle joué par Malraux au sein de cette organisation est digne d'intérêt : en tant qu'écrivain, il a été, comme le remarque Janine Mossuz, "le Médiateur idéal entre une foule de lecteurs anonymes et le général de Gaulle." (3)

1. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 89.

2. Cité par J. MOSSUZ, *op. cit.*, p. 81. *L'Evenement* n° = 10-20, septembre 1967, p. 61.

3. *Ibid.*, p. 74.

les gaullistes doivent se rassembler en un "mouvement missionnaire (qui) doit être très différent des formations existantes : animé par l'esprit de la Résistance, il doit tenter de rallier toutes les couches de la nation sous le commandement d'un seul".(1) Tel est le but poursuivi par Malraux.

C'est ainsi que naîtra le 7 avril 1946 le Rassemblement du Peuple Français. Malraux en est le délégué à la propagande. Il n'est pas toujours d'accord avec de Gaulle, quant aux voies à suivre pour la marche au pouvoir. Il voudrait appliquer la formule prêtée à Garcia dans *L'Espoir* :

"Il n'y a pas de pensée politique que dans la comparaison d'une chose concrète avec une autre chose concrète, d'une possibilité avec une autre possibilité (...) ; pas une organisation contre un désir, un rêve ou une apocalypse".(2)

Malraux espère que le R.P.F. se fera l'acteur d'une nouvelle apocalypse De Gaulle l'avait pourtant prévenu lors de leur première rencontre, en 1945.

"Ne vous y trompez pas, la France ne veut plus de la révolution, l'heure est passée".(3)

Mais l'auteur de la Condition Humaine voudrait que le R.P.F. soit "un mouvement insurrectionnel"(4), et qu'il prenne le pouvoir même par la force ou la violence pour faire une politique sociale.

"C'est à la prise d'assaut d'une France enchaînée qu'il le destine".(5)

Mais comment accéder au pouvoir ? Deux possibilités aideraient les gaullistes à réaliser ce but : l'éventualité d'une troisième guerre mondiale dont l'Union Soviétique serait responsable. Les gaullistes au pouvoir barreront la voie aux communistes.

1. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 64.

2. MALRAUX (A.), *L'Espoir*, p. 213.

3. Id., *Antimemoires*, p. 131.

4. *L'Evenement*, n° = 10 — 20, septembre 1967, p. 61.

5. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 67

Jusque là Malraux a mené ce combat hors de la France. Puis il y a eu "la guerre, la vraie. Enfin est arrivée la défaite, et comme beaucoup d'autres, j'ai épousé la France." (1)

Le mot magique a été prononcé : la France, l'amour de la France. D'autres problèmes seront abordés; la communion d'idées renforcera la compréhension et l'entente des deux hommes.

Malraux exposera longuement les problèmes qui lui tiennent le plus au coeur : la découverte de la nation, le communisme...

De Gaulle l'interrompt rarement voulant ainsi lui laisser l'occasion de s'exprimer librement.

S'étant compris, ils songent alors à l'avenir de la France :

"J'ai rétabli la République, déclare de Gaulle. Mais il faut qu'elle puisse refaire la France." (2)

Ils travailleront tous deux pour réaliser ce rêve.

Le 21 novembre 1945, de Gaulle forme son ministère. Malraux est ministre de l'Information. Voici ce qu'il en dit :

"Tâche instructive, il s'agissait surtout d'empêcher chaque parti de tirer la couverture à lui." (3)

Tâche difficile, car il était conscient, tout comme de Gaulle, de ce "concours d'imposture" (4) qui met fin au beau rêve d'une unité nationale.

Le 20 janvier 1946, de Gaulle quitte le pouvoir, condamnant "le régime exclusif des partis." (5)

André Malraux suit l'homme du 18 Juin dans sa retraite. Il ne retournera pas aux sphères du pouvoir, tant que le général de Gaulle n'aura pas repris en main l'avenir du pays.

Mais les gaullistes ne désespèrent pas et ne veulent pas demeurer inactifs. Il faut ramener de Gaulle au pouvoir. Pour favoriser ce retour,

1. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 125.

2. *Ibid.*, p. 129.

3. *Ibid.*, p. 136.

4. *Ibid.*,

5. *Ibid.*, p. 137.

La première tentative d'approche fut faite au nom de la France. Nous avons le récit détaillé de cette entrevue écrit par Malraux lui-même dans les *Antimémoires*.

Un soir, un mystérieux personnage, dont l'écrivain taira le nom, lui téléphona et lui dit qu'il avait une importante communication à lui faire; il lui demanda s'il pouvait le recevoir le soir même. Quelques heures plus tard, le mystérieux ami arrive et lui dit sans autre préambule :

"Le général de Gaulle vous fait demander au nom de la France; si vous voulez l'aider." (1).

Pour Malraux "la phrase était singulière." (2) Il accepte, en attendant qu'un rendez-vous lui soit fixé pour rencontrer le grand homme.

Janine Mossuz a identifié ce mystérieux visiteur :

"Or il semble bien que le mystérieux visiteur ait été Gaston Palevski qui avait été séduit par Malraux au cours de leur entrevue chez Corniglion-Molinier." (3)

Quelques jours plus tard, Malraux est invité à rencontrer le général de Gaulle. au ministère de la Guerre.

Janine Mossuz écrit au sujet de cette première rencontre :

"C'est une réelle entente, un profond, accord qui se font jour, dès les premiers instants." (4)

Une étrange conversation s'engage entre les deux hommes. Les paroles du général sont laconiques : de brèves questions, auxquelles Malraux répond longuement.

De Gaulle voudrait connaître le "passé" de l'écrivain, la période qu'il n'a pas connue et dont dépendra l'avenir; Malraux le satisfait :

"Je me suis engagé dans un combat pour, disons, la justice sociale. Peut-être, plus exactement : pour donner aux hommes leur chance." (5).

1. MALRAUX (A.), *Antimémoires*, p. 123.

2. *Ibid*; loc. cit.

3. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 53.

4. *Ibid*.,

5. MALRAUX (A.), *Antimémoires*, p. 125.

Son idéologie gaulliste est surtout une foi en l'avènement d'un monde meilleur que seul Charles de Gaulle peut construire car pour lui "le gaullisme sans de Gaulle," n'est guère concevable (1).

Il serait peut-être opportun de nous arrêter un moment pour expliquer les raisons de cette foi totale de Malraux en de Gaulle.

Quand et comment Malraux a-t-il connu de Gaulle ?

Malraux rencontre le général de Gaulle, pour la première fois en 1945, à Paris, contrairement à la légende qui le lui fait rencontrer pour la première fois sur le front d'Alsace à l'automne 1944. Malraux nie lui-même cette première rencontre :

"Les sentiments qui me lient au général de Gaulle étaient déjà anciens, bien que le récit traditionnel de notre première rencontre soit inventée : le général n'a certainement pas dit de moi, en Alsace, la phrase que Napoléon prononça sur Goethe (Enfin, j'ai vu un homme), car, en Alsace, le colonel Berger n'a jamais été présenté au général de Gaulle.(2)"

Il est vrai qu'une première tentative d'approche a été faite en novembre 1949. Après sa première évasion, Malraux avait écrit à l'homme du 18 juin, offrant ses services en tant qu'aviateur. Mais sa lettre resta sans réponse. Il pensa que son concours ne semblait pas opportun au général à cause de sa participation à la guerre d'Espagne. Par la suite, il découvrira que cette lettre n'est jamais parvenue à son destinataire.

Dès à cette date, Malraux avait compris l'appel de l'homme du 18 juin :

"Quoi qu'il arrive, la flamme de la Résistance française ne doit pas s'éteindre et ne s'éteindra pas.(3).

La première entrevue entre les deux hommes aura lieu cinq ans plus tard, en juin 1945.

1. MALRAUX (A.), *article in Carrefour*, n° = 284, 3 janvier 1952.

2. Ibid *Antimemoires*, p. 114.

3. DE GAULLE (Charles), *Discours et Messages* (1940—1946)

Il se battra sur un autre terrain que le maquis et le front, il se battra sur le terrain de la politique.

Désormais seule la France compte, seuls le mythe national et l'engagement auprès d'une grande figure qui incarne la nation, peuvent survivre.

En 1945 et au cours des années suivantes, Malraux constate que les deux forces réelles, les deux possibilités offertes à la France sont le Gaullisme et le Communisme. Or il refuse le communisme réduit en ces années à la seule forme stalinienne. Le communisme ne peut pas sauver la France d'après guerre; seul le gaullisme le peut. Le communisme veut "opposer" les classes, mais le gaullisme les "rassemblera."

Le général de Gaulle est seul capable d'imposer à la France une politique de grandeur et de liberté, qui a toujours été celle de la France.

Le gaullisme apparaît donc aux yeux de Malraux comme l'unique espoir de survie,

Il le définit en ces termes au général de Gaulle :

"Pendant la résistance, quelque chose comme : les passions politiques au service de la France, en opposition à la France au service des passions de droite ou de gauche.

Ensuite, un sentiment."(1)

Mais la vraie raison de la suprématie du gaullisme aux yeux de Malraux c'est qu'il incarne le mythe national.

Le gaullisme n'est pas une doctrine qui se définit comme le marxisme ou le fascisme, mais "c'est un mouvement de salut public", (2), une volonté, une énergie.

Le gaullisme tel que le conçoit André Malraux "s'inscrit(...) dans la tradition du patriotisme révolutionnaire. A la suite de Michelet, de Péguy, de Barrès — et du général de Gaulle — André Malraux exalte inséparables, la révolution et la nation."(3)

1. MALRAUX (A.), *Les Chenes qu'on abat*, Paris, Gallimard, 1971, 151 pp., P. 95.

2. *Carrefour*, n° = 185, mercredi 31 mars 1938.

3. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 135.

Autre cause qui a pu aviver son patriotisme, c'est le spectacle de la destruction en Allemagne. Il imagine avec effroi ce qui aurait pu arriver à la France si Hitler avait vaincu : elle "aurait pu devenir une immense maison de morts." (1).

Les craintes pour son pays augmentent son attachement pour lui.

Pour la première fois, Malraux se bat sur le sol français et pour la France.

"Dans l'univers d'André Malraux, les marques de ce nouveau combat resteront indélébiles. Son pays sera désormais revêtu pour lui d'une importance qu'il n'avait pas jusqu'alors." (2)

Les résultats de son combat lui apparurent alors d'autant plus concluants qu'il se battait pour son propre pays et non pas pour les "autres".

Il comprit soudain la raison de l'échec de T.E. Lawrence en Arabie, de Perken chez les tribus moïs, de Garine à Canton, de Vincent Berger dans les steppes afghanes.

"Les greffes prennent mal sur les corps étrangers. Même l'Espagne républicaine a dû se séparer, non sans déchirement, des Brigades Internationales qui l'avaient aidée avec tant d'héroïsme... Les révolutionnaires de 92, les révolutionnaires russes, les révolutionnaires chinois, les républicains espagnols nous donnent la même leçon : c'est dans sa propre patrie qu'il faut agir d'abord." (3)

C'est ce que Malraux lui-même déclare à Janine Mossuz au cours d'un entretien du 22 avril 1968.

"On ne fait pas la nation des autres." (4)

Malraux découvre la patrie, et, soucieux de son avenir, il s'interroge sur les forces qui s'affrontent et sur l'évolution du système politique français.

1. MOSSUZ (J.), op. cit., p. 36.

2. *Ibid.*, p. 31.

3. GAILLARD (F.), *André Malraux*, p. 180.

4. Réponse à J. Mossuz au cours de l'entretien du 22 avril 1968.

La Résistance explique la transition. La guerre de 39—45 n'est pas une lutte de classes mais une lutte contre un impérialisme plus dangereux que les autres car il est en même temps racisme.

La lutte pour la justice et la liberté se confond avec la lutte nationale. Tous les intellectuels, de gauche ou de droite, participent au combat anti-nazi.

Aragon chantera :

“Mon parti m'a rendu les couleurs de la France
Mon parti, mon parti, merci de tes leçons.”(1)

Et Malraux affirmera :

“Dans la résistance, j'ai épousé la France, et je ne suis pas le seul.”(2)

La France lui apparaît alors sous son aspect le plus attachant : celui de la fraternité.

“(…) La France, ç'a été la paysanne qui vous voit passer, entouré d'un peloton allemand qui va, croit-elle, vous fusiller et qui avance d'un pas, vous regarde et fait le signe de croix, dans une région où on ne va pas à la messe...”(3)

Plusieurs éléments ont contribué à la naissance de son ardent patriotisme. Le premier a été la mort de ses compagnons d'armes, les soldats tombés sur le sol natal, et qui ne pouvait le laisser indifférent.

“L'amour de la patrie devenait alors fidélité à ses hommes, fidélité aux volontaires qui s'étaient battus sous ses ordres. “Etre contre la mort”, pour reprendre sa propre expression, il se devait, pour la nier, de placer désormais la patrie au-dessus de tout.”(4).

1. ARAGON (LOUIS), *La Diane Française*

2. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 125.

3. Id; *Entretien avec Gabriel d'Aubarede*, in *Les Nouvelles Littéraires*, n—1283, jeudi 3 avril 1952.

4. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 35.

“Un changement est intervenu qui fait du stalinisme un phénomène dépassant le cadre des frontières russes : la naissance d’une véritable puissance militaire soviétique.”(1)

Lorsqu’il évalue cette puissance militaire de l’Union Soviétique, il ressent une certaine crainte : la crainte qu’elle ne devienne un danger pour la France.

Dans sa lutte contre le Stalinisme, Malraux ne pense qu’à l’intérêt de son pays. Et il appliquera les principes de Garcia :

“L’action ne se pense qu’en termes d’action. Il n’y a pas de pensée politique que dans la comparaison d’une chose concrète avec une autre chose concrète, d’une possibilité avec une autre possibilité...”(2)

Or, la seule possibilité offerte à la France d’alors pour lutter contre l’installation du stalinisme, c’est le Gaullisme, auquel il adhère de toutes ses forces.

C’est ce qui lui fait écrire dans ses *Antimémoires* :

“Le Parti Communiste ne disposerait pas de la Résistance contre le général de Gaulle.”(3)

Lors de sa première rencontre avec le général de Gaulle en juin 1945, Malraux déclare :

“Dans le domaine de l’histoire, le premier fait capital des vingt dernières années, à mes yeux, c’est le primat de la nation”.(4)

Premier fait capital du siècle et également découverte capitale pour Malraux lui-même. C’est à partir de cette découverte qu’il s’engage vers le gaullisme.

Du communisme au gaullisme il y a eu une transition : c’est la découverte de la Nation.

1. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 115.

2. MALRAUX (A.), *L’Espoir*, p. 452.

3. Id., *Antimémoires*, p. 118.

4. *Ibid.*, p. 126.

“dirigé, à une forte majorité, par des communistes. Ainsi le comité directeur de la Résistance unifiée tomberait entre leurs mains”.(1)

Four empêcher cette prépondérance communiste sur le M.L.N., Malraux, appelé au comité directeur, fera de tout pour éviter cette fusion.

L'hostilité au communisme était à cette époque une hostilité au stalinisme.

“Aux yeux de ces hommes, le stalinisme signifiait le contraire de tout ce pour quoi ils avaient combattu.”(2).

Le stalinisme a trahi la cause révolutionnaire.

“La Révolution d'Octobre, porteuse d'un espoir immense a été submergée pour longtemps par la vague du totalitarisme”(3)

Son appel aux intellectuels en 1948 révèle son amertume et sa déception :

“Il n'était pas entendu que les “lendemain qui chantent” seraient ce long hululement qui monte de la Caspienne à la Mer Blanche, et que leur chant serait le chant des bagnards.”(4).

Le stalinisme constitue donc un crime abject commis contre l'esprit.

Le communisme, représenté en France par le parti communiste est considéré par Malraux comme le plus dangereux ennemi du pays et qui entend le mener à sa ruine.

Ce parti communiste est d'autant plus à craindre, qu'il n'est pas un parti comme les autres, mais l'émissaire d'une puissance étrangère, l'Union Soviétique.

La critique de Malraux du régime, du parti et des dirigeants n'a pas pour unique cause des raisons idéologiques, mais des raisons beaucoup plus graves :

1. MALRAUX (A.), *Antimemoires*, p. 114.

2. *Ibid.*, p. 116.

3. MOSSUZ (Ji), *op. cit.*, p. 114.

4. MALRAUX (A.), *Appel aux intellectuels*, p. 198.

“Il a eu l'impression que bon nombre d'entre eux tentaient de tirer des autres résistants tout ce qu'ils pouvaient sans offrir aucune contrepartie”(1).

C'est ce qu'il affirme au général de Gaulle quelques mois plus tard :

“Les communistes se servent du jeu à leurs propres fins, mais ils ne le jouent pas”(2)

Mais ces réserves à l'égard des communistes français ne constituent pas une condamnation globale. Il lui arrive de rendre hommage à certains d'entre eux, hommes remarquables, rencontrés pendant la Résistance.

Il ne peut s'empêcher de penser avec nostalgie à ses anciens compagnons de lutte. C'est ce qu'il écrit en 1945, à son retour au front :

“Mais pendant mon retour au front (...) je pensais à mes camarades communistes d'Espagne, à l'épopée de la création soviétique, malgré le Guépéou; à l'armée rouge, aux fermiers communistes de Corrèze, toujours prêts à nous accueillir malgré la milice... ”(3)

Mais ses pensées attendries cessent lorsque les rapports doivent s'établir, non pas d'individu à individu, mais de groupe à groupe.

Il entreprendra contre le P.P.C. une longue campagne car le communisme signifie désormais pour lui le contraire de la démocratie. C'est ce qu'il affirme :

“Il n'y a de grandes démocraties que dans les pays scandinaves et dans les pays anglo-saxons, c'est-à-dire dans les pays où il n'existe pas de partis communistes”.(4)

Dès lors il s'opposera avec force à l'instauration en France d'un régime communiste et luttera pour empêcher la fusion du M. L. N. (Mouvement de Libération Nationale) avec le F.N. (Front National),

1. MOSSUZ (J.), *op. cit.*, pp. 49—50.

2. MALRAUX (A.) *Antimemoires*, p. 129.

3. *Ibid.*, p. 118.

4. Cité par MOSSUZ (J.), *op. cit.*, p. 107.

“Dès 1937, n'importe quel esprit libre pouvait comprendre que la Russie bolchevique se transformait en un état totalitaire avec ordre moral, chauvinisme, police, inquisition, tortures, assassinats.”(1)

La tyrannie stalinienne devient évidente. Cependant Malraux ne parlera pas encore publiquement contre les communistes ni contre l'Union Soviétique. Il ira même jusqu'à conseiller à Gide de ne pas publier tout de suite son ouvrage *Retour de l'U.R.S.S.*

Mais la seconde guerre mondiale commence : l'Union Soviétique se place dans le camp de l'Allemagne fasciste. L'accord secret de Staline et de Hitler pour le partage des Zones d'influence, l'occupation de la Pologne, des Etats Baltes et de la Finlande par Staline constituent des causes suffisantes pour délier Malraux de tout engagement : l'union antifasciste étant brisée, il rompt avec le communisme.

Et Malraux expliquera en ces termes l'évolution du régime russe et les causes de sa désaffection :

“L'idéologie socialiste — Marx d'abord — , n'a jamais, que je sache, envoyé la justice à la poubelle. Lorsque le parti communiste me demanda de porter à Berlin, avec André Gide, les protestations recueillies en Europe contre la condamnation de Dimitrov, innocent de l'incendie du Reichstag, il ne s'agissait pas exclusivement du prolétariat. (...) nous ne combattons pas pour remplacer le capitalisme par ce quatrième pouvoir qu'est devenue la police d'Etat.” (2)

Ainsi pour Malraux, au cours des années cinquante, le péril immédiat n'est plus le fascisme, mais le stalinisme, l'impérialisme soviétique qui menace la liberté de tous.

Autre raison qui consomme la rupture, c'est l'attitude de certains communistes dans la lutte clandestine, la Résistance.

1. STEPHANE (R.), *op. cit.*, p. 127.

2. Cité par PICON (G.), in *Malraux par lui-même*, p. 96.

La critique communiste ne s'y est pas trompée, elle.
Trotsky écrit en 1931 après la publication des *Conquerants* :

“Les sympathies, d'ailleurs actives, de l'auteur pour la Chine insurgée sont indiscutables. Mais elles sont corrodées par les outrances de l'individualisme et du caprice esthétique”(1).

Et il ajoute :

“Une bonne inoculation du marxisme aurait pu préserver l'auteur des fatales méprises de cet ordre”(2).

Claude Roy écrit :

“Le marxisme de Malraux est court. Il est juste et facile de le trouver, rétrospectivement, insuffisant. Celui qui ne connaîtrait Marx qu'à travers Malraux ignorerait tout le développement d'analyse historique, la méthode qui fait passer Marx de ces constatations, contenues dans Malraux, à l'action révolutionnaire elle-même.”(3)

Quant à Gaetan Picon, il estime que “la révolution communiste relève dans son oeuvre de l'ordre de la symbolique formelle — non de celui de la signification”(4).

Réfléchissant sur les raisons qui ont conduit Malraux du compagnonnage communiste à la rupture totale, Janine Mossuz affirme que ces raisons sont “assez mal connues”. (5)

Mais il semble que ce n'est point la méditation sur des concepts philosophiques qui ait poussé Malraux à rompre avec le communisme, mais plutôt la réflexion sur des données politiques, économiques, diplomatiques précises. Cette réflexion lui a révélé l'incompréhension qui le séparera désormais des communistes.

1. TROTSKY (Léon), *La Revolution Etranglée*, in GAILLARD (P.), *Les Critiques ...* p. 38.

2. *Ibid.*, loc. cit.

3. ROY (Claude), *Le Marxisme de Malraux*, in Gaillard (P.), *Les Critiques...*, p. 118.

4. PICON G.), *Interrogation à Malraux*, in *Esprit*, octobre 1984.

5. MOSSUZ (J.) *op. cit.*, p. 49.

Les Conquerants, *La Condition Humaine* et *l'Espoir* sont autant d'oeuvres qui proclament que l'homme ne peut sans faillir à son nom d'homme, être amputé de sa dimension sacrée : la liberté. C'est ce qui explique l'amertume de Garine quand il déclare :

"Quand je pense que toute ma vie j'ai cherché la liberté... Qui est donc libre ici, de l'Internationale, du peuple, de moi, des autres." (1).

Malraux critique le dogmatisme du parti. C'est ce que révèlent les paroles de Vologuine dans *la Condition Humaine* :

"Même coolie du port de Shanghai, je penserais que l'obéissance au parti est la seule attitude logique (...) ." (2)

Dans *le Temps du Mepris*, l'auteur dénonce la cruauté de toute politique totalitaire. Mais c'est surtout dans *l'Espoir* qu'apparaîtra l'inconvénient d'un parti qui prescrit l'anéantissement de toute pensée individuelle.

Tous ceux qui ne sont pas prêts à s'identifier à la politique communiste sont condamnés, comme le dit Golokine, "à changer ou à mourir".³

Le parti, non seulement détruit toute liberté individuelle, mais en plus il se montre très opportuniste et cela malgré son dogmatisme.

Dans *les Conquerants*, Borodine n'hésite pas à accepter l'argent de la bourgeoisie pour payer les troupes. Et dans *la Condition Humaine*, Vologuine admet que le parti se sert du Kuomintang et de Chang Kai Shek et sacrifie les communistes militants de Shanghai. Le même esprit d'opportunisme se devine lorsque le même Vologuine laisse soupçonner la possibilité offerte au parti de se servir de Tchen au cas où il commettrait un attentat contre Chang Kai Shek.

Il apparaît donc que l'adhésion au parti communiste détruit tout ce qui pourrait exister d'original en l'homme.

Ainsi, bien que le cadre des romans de Malraux soit le plus souvent la Révolution, on ne peut guère affirmer que Malraux soit un écrivain révolutionnaire, au sens marxiste du terme.

1. MALRAUX (A.) *les Conquerants*, p. 189

2. Id., *La Condition Humaine*, p. 175

3. Id., *L'Espoir*, p. 188.

Le communisme rend donc à l'homme le sentiment de sa dignité et "sa fertilité"(1)

Dans sa lutte contre l'absurde de la condition humaine, Malraux découvre que la fraternité humaine est le plus solide rempart à opposer au destin. Il est sensible au secours moral apporté à l'homme solitaire par toute participation à une cause commune.

Le communisme n'est donc valable pour Malraux que par ses valeurs libératrices qui confèrent à l'homme sa responsabilité et une autonomie.

Mais le communisme tel qu'il évolue en URSS de 1917 à 1947, amène Malraux à conclure à la faillite du communisme, du moins dans ce pays.

"André Malraux constate une sombre dégénérescence qui a fait du communisme un totalitarisme. C'est contre le stalinisme qu'il s'élève avec force". (2)

Lorsque le communisme, ou les communistes trahissent et déforment les données essentielles et humanitaires qui l'ont séduit, Malraux ne se sent plus solidaire. Sa réaction sera violente contre ce qu'il considère comme la "trahison d'immenses espoirs, comme une dénaturation, une soumission à la volonté d'asservissement".(3)

Lorsque le communisme devient une arme de répression et d'agression, lorsqu'il apparaît comme un anti-individualisme qui empêche l'homme de s'exprimer librement, l'amenant même à se mépriser, à s'imprégner de honte, Malraux coupe court avec ses anciens compagnons de route.

L'oeuvre littéraire fait état du conflit avant la rupture définitive. La valeur de la cause politique, en particulier du communisme est souvent mise en question, car elle représente une menace pour la liberté individuelle.

1. MALRAUX (A), *Preface du Temps du Mépris*.

2. MOSSUZ (J.) *op. cit.*, p. 108.

3. *Ibid.*, p. 110.

Cependant, il semble comme le fait remarquer Roger Stéphane que "Malraux ne s'est lié avec les communistes que dans la mesure où, pour lui, leur marxisme ne dépassait pas le stade de la méthodologie insurrectionnelle — et où cette méthodologie lui semblait un efficace instrument de résistance à la subversion fasciste"(1).

Mais l'auteur de *la Condition Humaine* n'a jamais pour autant totalement adhéré à la conception marxiste de la Révolution.

Gaétan Picon est catégorique sur ce point :

"Pas un instant la pensée de Malraux n'a été fixée par la "vérité marxiste."(2).

Il ne retient de la doctrine marxiste que la dénonciation de l'optimisme bourgeois et la prophétie de cette "heure nouvelle qui sera au moins très sévère", que de son côté, Rimbaud avait annoncée (3).

Il apparaît donc que pour Malraux, le marxisme ne constitue pas une religion, une doctrine, mais surtout une volonté et un refus obstiné de la défaite

Le marxisme représente une des formes les plus efficaces de la lutte de l'homme contre l'humiliation; c'est ce qu'affirme Kyo dans *la Condition Humaine* :

"Je pense que le communisme rendra la dignité possible pour ceux avec qui je combats"(4).

Et un peu plus loin, il définit la dignité comme "le contraire de l'humiliation"(5)

1. GAILLARD (P.), *Les Critiques ...* (Article de Roger STEPHANE, *Les Silencés de Malraux*, p. 126).

2. PICON (Gaétan), *Malraux par lui-même*, Paris, Editions du Seuil, 1955, 132 pp., p.91.

3. Ibid., p, 92.

4. MALRAUX (A.), *La Condition Humaine*, p. 268.

5. Ibid., loc. cit.

fatalité de sa condition", devient "un être contestataire, un adversaire en puissance de la fatalité."(1)

La politique représente aux yeux de Malraux un champ favorable pour un tel type d'action.

Son engagement auprès des communistes dans les années trente, puis auprès de de Gaulle à partir de 1945, constitue deux phases successives de ce long itinéraire, de ce combat contre la mort et contre le "cortège de contraintes qui l'accompagnent : le mal, l'oppression, la servitude, les chaînes de toutes sortes." (2)

Une telle évolution a beaucoup étonné et le plus souvent l'on n'a voulu voir qu'une conversion systématique et totale du communisme au gaullisme.

Mais il serait opportun de poser cette question que tout le monde se pose : André Malraux a-t-il été marxiste ?

Au cours des années trente, Malraux a été le compagnon de route des révolutionnaires communistes. Il a combattu avec eux, exalté leur courage et leur héroïsme en Chine, en Allemagne et en Espagne. En Asie comme en Europe, les communistes "étaient toujours les premiers atteints par la répression et souvent ils étaient les premiers dans la lutte"(3)

A cette époque tout intellectuel conscient et engagé devait "compter avec le communisme dès que l'on voulait se mesurer avec la démocratie bourgeoise, ou, à fortiori, avec le fascisme."(4)

L'intellectuel adopte le communisme par opposition à la tyrannie capitaliste et à la bourgeoisie, sur qui il sent "l'odeur de la mort". (5)

Ainsi Garine dans *les Conquérants* dira :

"Ce qui est bien certain, c'est que je n'ai qu'un dégoût haineux pour la bourgeoisie dont je sors(...) Il y a en moi de vieilles rancunes qui ne m'ont pas peu porté à me lier à la Révolution".(6)

1. MOSSUZ (J.), op. cit., p.18.

2. *Ibid.*, p. 19.

3. GAILLARD (Pol), *André Malraux*, Paris, Bordas, 1970, 244pp., p. 176.

4. Id., *Les Critiques de notre temps et Malraux*, Paris, Garnier, 1970, 244 pp. p. 125.

5. *Ibid.*, p. 31.

6. MALRAUX (A.), *Les Conquérants*, p. 69

Malraux a voulu lutter contre l'absurde de la condition humaine, limitée et amoindrie par la mort.

Il est le seul parmi tant d'intellectuels qui ne se sera pas contenté d'écrire pour servir et défendre une cause, mais qui aura agi dans l'intérêt de cette cause.

Il a toujours été obsédé par la mort et cette obsession a donné naissance à un combat. Dans sa lutte contre la mort, l'homme cherche les moyens capables de l'aider. La religion aurait pu fournir une aide efficace; mais Malraux la refuse : il voudrait sauver l'être humain de sa condition grâce à des "moyens humains".

La lutte revêtra chez Malraux plusieurs formes : celle de l'aventurier, celle du révolutionnaire, pour aboutir à celle de l'homme conscient de sa condition.

Gariné dans *les Conquérants* choisit la Révolution parce que seule elle peut révéler la dignité humaine aux misérables coolies des villes chinoises "qui usent en trente ans de lèpre, de syphilis, ou de tuberculose, dans l'indifférence illimitée des hommes, leur ahurissement d'être au monde." (1)

La Révolution permet d'éliminer les oppressions les plus aliénantes, et par le fait même, aide à assurer cette dignité essentielle.

"Mais un tel itinéraire n'est pas concevable pour André Malraux lui-même. S'il ne craint pas en effet les risques que présente un tel engagement, il ne souscrit pas totalement aux modes d'action qu'il entraîne." (2)

Après avoir opté un moment pour la Révolution, Malraux la rejette, n'y trouvant pas la solution du drame de l'homme face à la mort.

La meilleure manière de lutter contre la mort, c'est de prendre conscience de sa condition et d'agir en conséquence.

André Malraux va opposer à la mort "l'homme lui-même qui, par le seul fait qu'il existe, qu'il pense en tant qu'homme, dément la

1. MALRAUX (André), *les Conquerants*, Paris, le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pp., p. 106.

2. MOSSUZ (Janine), *Andre Malraux et le Gaullisme*, Paris, Armand Colin, 1970, 313 pp., p. 17.

LES ENGAGEMENTS DE MALRAUX : DU COMMUNISME AU GAULLISME

DOHA CHIHA

Pour étudier l'engagement politique d'André Malraux, il faut constamment se référer à l'ensemble de sa vie et de son oeuvre.

L'itinéraire politique de Malraux n'a pas suivi une seule et même trajectoire. Le communiste des années trente est devenu, quelques années plus tard, l'anticommuniste ardent du cabinet de de Gaulle.

Loin de marquer une défaillance de la part de l'auteur, ce changement provient d'une évolution plus profonde. Dans le cas de l'auteur de *la Condition Humaine*, une fidélité immobile n'aurait pas été une preuve de vertu, car comme le remarque Victor Hugo dans *le Journal d'un Révolutionnaire de 1830* :

“Mauvais éloge d'un homme que de dire: son opinion politique n'a pas varié depuis quarante ans. C'est dire que pour lui il n'y a eu ni expériences de chaque jour, ni réflexion, ni repli de la pensée sur les faits. C'est louer une eau stagnante, un arbre d'être mort.”

Nous retrouvons Malraux à tous les tournants du siècle. Il a pris part à des événements dont devait toujours résulter un changement dans le destin des hommes.

“(…); à Shangai quand se joue le sort du Kao-Min-Tang; à Berlin, pour sauver Thaelman et Dimitrov; à Medelin, avec l'aviation républicaine, à Toulouse, dans une prison de la gestapo, où les F.F.I. le libèrent; en Alsace à la tête de cette brigade Alsace-Lorraine qu'il mène au combat en prenant soin d'épargner les églises, à Paris, lorsque de Gaulle forme son gouvernement”.(2)

1. HUGO (Victor), *Journal d'un Révolutionnaire de 1830*, Octobre.

2. BOISDEFFRE (Pierre de), *Andre Malraux*, Paris Editions Universitaires, 1969, 127 pp., p. 7.

As for the Persian invasion of Egypt, I have refuted the idea that Cambyses wished to destroy the temple of the god because the oracle foretold his quick end in Egypt. The king, in fact, decided to defeat the Ammonians and their Libyan followers because he realized that they were powerful and resistant natives moreover they played a great role in the Egyptian policy. Fortunately, his campaign was overwhelmed by a sandstorm and never reached Siwa.

As a result of the policy of Darius the great, Egypt, the Greek Libyan Colonies and the surrounding Libyan tribes became under the direct Persian power. Contrary to the Greek colonists' wish, he connected Egypt with the eastern commercial centers. As a reaction to this policy, a co-operation was developed between the Greek colonists under the reign of Battus IV and the Libyan tribes, the followers of Amun, who were at the same time controllers of the caravan routes in the western oases.

The first fruits of this co-operation showed itself in the Greek colonists' adoption of Amun and his cult and the appearance of the god on the coinage of Cyrene about 500 B.C. and consequently on the coins of other colonies.

It is true that the Greek colonists represented the head of Amun with the features of Zeus on the coinage but there is no evidence that they worshipped Amun under the name of Zeus. The Doric temple in Cyrene was built in honour of Zeus owing to political reasons and has no connection with Amun of Siwa. The distinction between Zeus of Cyrene and Amun of Siwa is clear to the classical authors and the term 'Zeus Ammon' is probably a term used only in later Latin passages of no authority and by modern scholars.

The remarkable prestige of Amun is the influence of his oracle on the Greek mainland. This was evidently the result of the trade activity and the close relations between the Battiad kings and Greece. There is no doubt that Alexander the Great acknowledged the importance of Amun and his oracle in the Mediterranean world. His appreciation of Amun and his cult was so great, that he decided to visit his temple in Siwa early in 331 B.C.

human-headed to identify Ammon is Cyrenaean conception(1). So we can assume that the head was produced under the Cyrenaean influence and probably was dedicated to the temple of Dodona.

If we move from the mainland Greece, to the Greek colonies in Libya, we find that the colonists continued to give their great devotion to Ammon in the fifth and fourth centuries. The badges on the coins became generally fixed; the silphion plant on one side, the head of bearded Ammon, as the principal deity of the area, with his ram's horn on the other side (2).

There is no doubt that the greatest event in the history of Amun and his oracle in Siwa was the visit of Alexander the Great to Siwa early in 331 B.C. It is reasonable to suppose that Alexander was greatly affected by the great historical background of Amun and the continuity of the prestige of his oracle in the Mediterranean world, that he decided to visit his famous temple.

CONCLUSION

In this study, I have discussed the problem of the date in which Amun and his oracle were principally introduced to the western oases of Egypt, indicating that it was after the Assyrians' destruction of Thebes in 663 B.C., not before. This is based on the fact that although the Libyan rulers (945—715 B.C.) gave their attention to Amun and his cult in Egypt, they did not mention that they established any temples for the god in the western oases. As for the Nubian rulers (715—663 B.C.), it is true that they spread the cult of the god in the western oases, but his main centre, as I have proved, remained in Thebes. On the other hand, I have shown that the flourishing of trade activity in the western oases was a result of the Assyrian destruction of Thebes and that Siwa became more distinguished than any of the oases, owing to its remarkable geographical position as a chief station of caravan commerce.

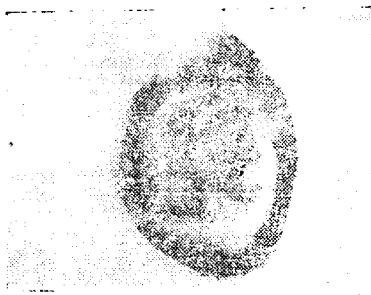
As a result of this, Amasis, the king of Egypt (570—526 B.C.) established a great temple and dedicated it to Amun in Siwa in order that it might become a famous cult-seat of Amun and his oracle in the Mediterranean world.

(1) Cf. Robinson, E.S.G., *op. cit.*, p. ccxxxiv.

(2) Cf. Seltman, C., *op. cit.*, p. 183.



O.



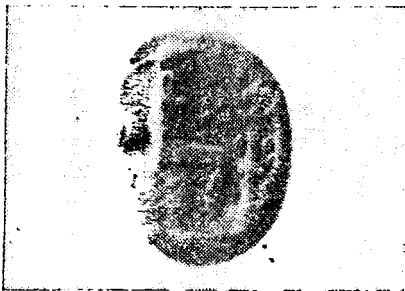
R.

1. Cyrene, C. 500 B.C.

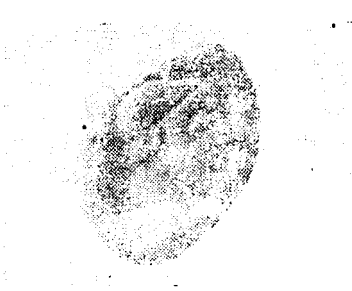
Obv. Female figure wearing stephanus and long chiton, seated and touching the silphion plant before her.

Rev. Head of Ammon with ram's horn

Jameson Coll. (*Catal. Jameson*, 1346). Robinson, *BMC*, Pl. III. 1.



O.



R.

2. Cyrene, C. 500 B.C.

Obv. Female figure, she does not wear stephanus, seated and touching the silphion plant before her.

Rev. Head of Ammon with ram's horn

Paris. Robinson, *B.M.C.* Pl. III. 2.



O.



R.

1. Barca, C. 500 B.C.

Obv. Two fruits set base to base with silphion flower.

Rev. Ram's head of Ammon; above BAP.

Brussels (Hirsch coll.) Robinson, *BMC*, Pl. XXXIII, 4.



O.



R.

2. Barca, C. 500 — 480. B.C.

Obv. Silphion plant.

Rev. Ram's head of Ammon, above BAP

British Museum. Robinson, *BMC*, Pl., XXXIII. 5.



O.



R.

1. Barca, C. 500 — 480 B.C.

Obv. Silphion plant.

Rev. Ram's head of Ammon, above BAP.

British Museum, Robinson, *BMC*, PL. XXXIII. 6.



O.



R.

2. Barca, C. 500—480 B.C.

Obv. Silphion plant

Rev. Ram's head of Ammon, above $\alpha\beta$

Berlin. Robinson, *BMC*, Pl. XXXIII.7.



O.



R.

Cyrene, C. 480—470 B.C..

Obv. Head of Ammon with ram's horn.

Rev. Silpion plant and head and neck of bridled horse, above KYP.

British Museum. Craay and Hirmer, GC. Pl. 213. 786.



O.



R.

Cyrene, C. 470 — 460 B.C.

Obv. Silphion plant

Rev. Head of Ammon with ram's horn, KYPA

Berlin; Regling 115. Crazy and Hirmer, *GC*, PL. 114. 787.



Head of, Ammon
Pairs. Louvre Museum, No. 4235.



O.



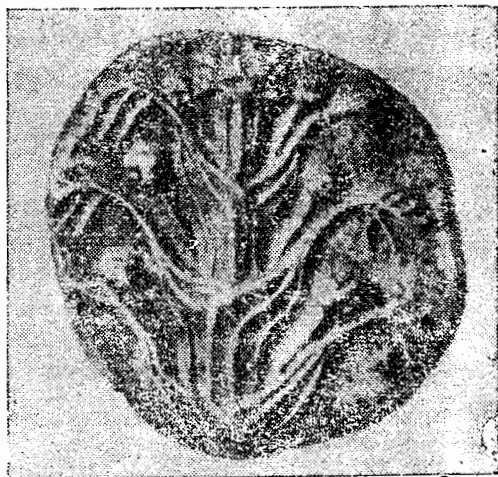
R.

Barca, C. 440.

Obv. Silphion plant

Rev. Head of Ammon with ram's horn, within beaded circle; BAPK.

Paris. Craay and Hirmer, *GC*. Pl. 216. 793.



O.



R.

Barca, C. 420, B.C.

Obv. Silphion plant

Rev. Head of Ammon with ram's horn, Laureate, BAPKAION.

Priv. Coll. Craay and Hirmer, GC, Pl. 216. 794.



O.



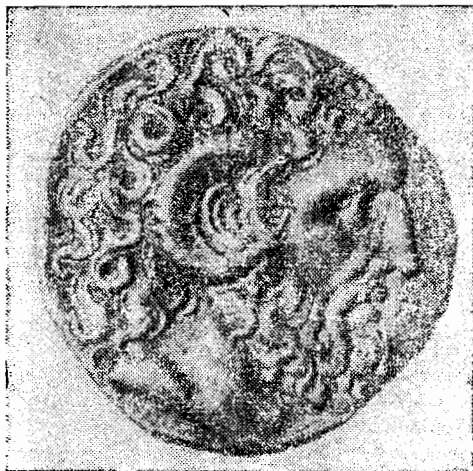
R.

Cyrene, C. 322 — 323. B.C

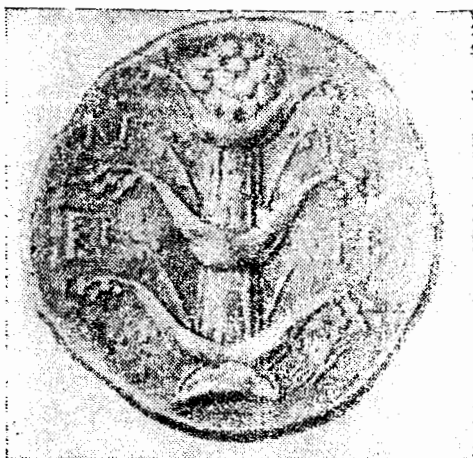
Obv. Quadriga; above, sun; *KYPANAION*

Rev. Zeus Lykaeos, seated on throne, the eagle on the outstretched hand, to the left there is thymiaterion, *XAIPIOΣ*

Münz. u. Med. Basel. XIX; 593. Craay and Hirmer, *GC*, Pl. 215. 790.



O.



R.

Cyrene, C. 305 — 304 B.C.

Obv. Head of Ammon with ram's horn

Rev. Silphion plant; below; crab; L and r. monograms, KYPE.

Berlin. Craay and Hirmer *GC*, PL. 215. 789.

It is also stated by Woodward that the Athenians, on the ground of the Attic inscriptions made in the name of several different parties of sacred ambassadors, had taken the gifts of gold to the temple of Ammon in Siwa oasis (1). They appear to have consulted the oracle at various times in the period before 360 B.C. (2)

By the latter part of the fourth century B.C. a sacred trireme was created in Athens in honour of Ammon. The Athenians have used two sacred triremes since about the beginning of the fifth century B.C. the *Paralos* and the *Salaminia*, commemorating the return of Theseus from Crete in the annual religious festivals (3). But the name of *Salaminia* was replaced by a sacred trireme called *Ammonias*, the change of the name was recognized also by Aristotle and dated to the year 329/8 B.C. (4).

There is a bronze head in the Louvre Museum (Pl.6) (5). It represents the conventional ram's horns which serve to identify Ammon. It is some 3 inches high and ends in a ring, a matter which clear that the head was an attached decoration of some larger object (6). It is believed that the head came from Dodona because of the smooth green patina which covers the bronze, this feature is a notable characteristic of the authentic bronzes from that area, it is dated according to its style to about the middle of the fifth century B.C. (7).

The direct Egyptian origin from Thebes of the oracle of Zeus of Dodona, as it is known, is attested by Herodotus in the middle of the fifth century B.C. (8), but the conventional ram's horns with a deity

(1) *IG*. II², 1642; Woodward, A.M., *op. cit.*, pp. 7—8.

(2) Parke, H.W., *op. cit.*, p. 218.

(3) *Loc. cit.*,

(4) *Ag. II*. 16.7 with Sandy's commentary; see Parke, H.W., *loc. cit.*, 218—219. pp.

(5) Louvre Museum. No. 4235.

(6) See Parke, H.W., *op. cit.*, p. 208, note 23 on p. 238.

(7) 142. Cf. Charbonneaux, J., *Les Bronzes recs* (1958), p. 23; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 208.

(8) Herodotus, II. 55; Parks states that Pindar was the first to mention that the Egyptian Thebes was the origin of the oracle of Dodona and the poet, most probably, learnt this legend from Cyrene, (*op. cit.*, p. 207).

ship. These records were transported from the Olympion to the city. This meant to the prophets, who were distressed, that it was the fulfilment of the oracle i.e. the expedition had captured all the Syracusians(1). Then the Athenian expedition was really defeated. Although Thucydides does not mention the story of the captured ship(2) he reports that when the news of the disaster reached Athens, the people became angry with politicians, the oracle-mongers, prophets and all those who believed that the Athenians would conquer Sicily(3). But it seems that in spite of this misleading promise of the oracle of Ammon to Alcibiades, the Athenian faith in its responses remained strong and became familiar in Athens as the contemporary references in Aristophanes manifest its importance among the other Greek oracles of the period (4).

By the fourth century B.C. we have abundant epigraphical evidence for the increasing devotion to the cult of Ammon in Athens. The first document affirms that the treasury of Athena contained a silver phiale dedicated to Ammon about 375 B.C. (5). The next document shows that a decree was proposed for making a list of various offerings to be presented on behalf of the Athenians, dated to the year of Charicleides 363/2 B.C., dedicated to Ammon, Paralos, Athena and Hera in some sanctuary, which is identified by Dain with that of the Paralos at the Piraeus, where the offerings were deposited (6). But Woodward sees that the priority of the dedications given in the list of Ammon might indicate that it was in his sanctuary rather than in that of Paralos. So he pointed out that a shrine of Ammon was already established in Piraeus. (7).

(1) Cf. Parke, H.W., *op. cit.*, p. 216.

(2) Thucydides, 6, 50.4.

(3) *Ibid.*, 8, 1.1; see Parke, H.W., *op. cit.*, p. 216.

(4) Aristophanes, „Av, 716. Ammon is mentioned again at 618; see Parke, H.W., *op. cit.*, pp. 80—81.

(5) *IG II²*, 1415, I.617; Woodward, A.M., *ES* 27 (1962), pp. 5—6; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 217.

(6) Dain, A., *Inscriptions grecques du Musée du Bardô* (1936), no. 1, pp. 12 ff.; Woodward, A.M., *op. cit.*, p. 6; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 217.

(7) Woodward, A.M., *op. cit.*, pp. 6—7; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 217.

than the Ammonians of Libya (1). Pausanias, who recorded these remarks, does not date the foundation of the temples established in Sparta and Gytheion. It is stated that the earliest Spartan consultation to Ammon was by Lysander, when he left Sparta in the year 403/2 B.C. and went to Libya. He had a brother named Libys and this means that the connection between Lysander's family and the oasis of Ammon goes back to the mid-fifth century or a generation before that (2).

The Eleans consulted the oracle in Libya and poured libation not only to the Greek gods but also to Ammon. They dedicated altars in the temple of the god (3). Their questions, the replies of the god and the names of men, who visited the temple from Elis are engraved on these altars, which were in the sanctuary of Ammon (4). Pausanias does not assign a date for the foundation of the cult in Olympia, but the Cyrenaean victors in the Olympic games had the right to dedicate statues of themselves in Olympia as mentioned above.

The earliest Athenian enquiry from Ammon is attributed by Plutarch to Kimon in 451 B.C. during his last expedition to Cyprus (5), but the enquiry was secret and no one knows the purpose for which the men of Kimon were sent to Ammon. Kimon died when his men were performing their sacred mission. Thucydides affirms that Kimon had sent a force from his expedition to Egypt to aid insurgents against Persia (6). It is probable that this would be the reason for which Kimon tried to get the oracular support from Ammon. (7).

There is another story of the oracle of Ammon connected with the Sicilian expedition (415—413 B.C.) and its disastrous end. It is said that the Athenian sacred embassy returned with a prophecy from Ammon for Alcibiades prophesizing that the Athenians would capture all the the Syracusians (8). But the Athenians, in a raid on the great harbour at Syracuse captured an enemy ship with a list of the citizens of Syracuse written out tribe by tribe on boards were found on the

(1) *Loc. cit.*

(2) Parke, H.W., *op. cit.*, p.p. 210—211, 219 note 27.

(3) Pausanias, V, 15.2.

(4) *Ibid.* 15.11.

(5) Plutarch, *Kimon*, 18.7.

(6) Thucydides, I, 112.3.

(7) See Parke, H.W., *op. cit.*, p. 215.

(8) Plutarch, *Nic.* 13 and 14.7.

‘νῆ τὸν ἡμέτερον θεὸν τὸν Ἀμμωνα’ which means “our god Ammon” (1), asserts that the god became the principal deity in the area. When the Cyrenaeans wished to put up a dedication in Delphi, it was a statue of Ammon in a chariot(2). The chariot was dedicated by Arkesilaus IV, when the Cyrenaeans team won the chariot-race in the Pythian games in Delphi in 462 B.C. (3) which was followed by another victory in Olympia in 460 B.C. (4). The oracle was officially consulted by the Cyrenaeans and enquired for their private lives (5). Eubotas of Cyrene was foretold by the oracle, his coming Olympic victory for running and he had a portrait statue of himself made beforehand, and so was proclaimed victor and dedicated the statue on the same day in Olympia in 408 B.C. (6).

The remarkable prestige of Amun is the spread of the influence of the god to the Greek mainland. It evidently came as a result of the activity of the last two Battiad kings, who made great efforts in order to achieve closer relations with the mainland, mainly, through the trade activity and the participation in the Greek festivals, where the god became known as “Ammon of Liyba”.

The Lacedaemonians are known to have consulted the oracle of Ammon in Siwa more than any other Greeks and two of the temples of the god were known at Laconia : one was in Sparta, another was in Gytheion(7). It is said that Ammon appeared by night to Lysander, the Spartan general, while he was besieging Aphytis in Pallene and told him that it would be better for him and for the Lacedaemonians if they stopped fighting against Aphytis (8). So following the god's orders, Lysander raised the siege and bade the Lacedaemonians to offer him more sacrifices (9). The people of Aphytis also honoured Ammon no less

(1) Platon, *Polit.*, 257c.

(2) Pausanias, X, 13,5.

(3) Mitchell, B.M., *op. cit.*, p. 108.

(4) *Ibid.*, pp. 109—110.

(5) Strabo 1, 49, 56,

(6) Xenophon, *Hellen.*, 1,2,1; Diod. Sic., XIII, 68, 1; Paus., VI, 8.3. Eubotas of Cyrene is said to have won also the chariot-race at the festival, which according to the account of the Eleians was not genuine because the Arcadians presided over it; see also Chamoux, F., *op. cit.*, p. 331 and Parke, H.W., *op. cit.*, p. 212.

(7) Pausanias, III, 18.3, 21.8.

(8) Pausanias, III, 18.3,

(9) *Loc.cit.*

If we accept the supposition that Pindar visited Cyrene and realized the divine control of "Zeus Ammon" of the city on all North Africa, then one can also suppose that the poet visited Ammon of Siwa, where the famous oracle of the god and the Cyrenaeans learnt their new cult. For this, there is no evidence. So it is reasonable to suppose that Pindar derived his knowledge of Cyrenaeen politics and society, which he mentioned in his Odes, from Damophilus, the Cyrenaeen exile in Thebes and from Carrhotus the victor in the Pythian games (1). He had also commemorated Telesicrates of Cyrene, who had won in the hoplite race at Delphi in 474 B.C. before the reign of Arkesilaus IV (2).

The distinction between Zeus of Cyrene and Ammon of Siwa is clear to the classical writers and the Greek term "*Ζεύς Ἀμμων*" is not used by them, but sometimes it is wrongly attributed to Pindar and Herodotus by some modern scholars as a result of the traditional translation. (3). Pindar composed also a hymn in honour of Ammon of Libya and sent it to the Ammonians (4). The verse starts with "*Ἀμμων Ὀλύμπου δέσποτα*" which means "O Ammon, lord of Olympus" (5). The hymn was carved on a triangular slab, which was by the side of the altar dedicated by Ptolemy I to the god in his temple of Siwa. (6) it is noted here that the poet sent the hymn to the Ammonians who were in the temple of Siwa and not to the temple of Zeus in Cyrene. It is clear that Pindar honoured Ammon and placed him on the same rank as Zeus of Olympus. Moreover, he established a temple for Ammon in his native Thebes with a statue carved by the sculptor Calamis (7).

So Amun of Siwa achieved a great prestige because of his importance in the Greek colonies in Libya during the fifth century B.C. The phrase of Theodorus of Cyrene in Plato's dialogue, the Statesman :

(1) *Loc. cit.*,

(2) Pindar, Pythian IX, 1—4; see Mitchell, B.M., *loc. cit.*, p. 108.

(3) See Bates, O., *op. cit.*, p. 190; see also Tarn, W.W., *Alexander the great, II, Sources and Studies* (1948) p. 349.

(4) Slater, W.J., *Lexicon to Pindar* (1969), p. 39.

(5) *Ibid.*, Fra. 36 test.

(6) Pausanias, IX. 16.1. It is clear that Pausanias had actually visited the oasis of Siwa (cf. Parke, H.W., *op. cit.*, p. 211).

(7) Pausanias, IX., 16.1.

Ammon in North Africa (1), where he was already worshipped by the Libyan tribes. So it is clear, that Pindar distinguished between the two gods.

The Fourth Pythian Ode is considered the long and greatest Ode, produced by the poet in the honour of the victory of the king Arkesilaus IV of Cyrene in the four-horse chariot race at Delphi (2) where his brother-in-law Carrhotus had himself been the charioteer at the Pythian games in 462 B.C.(3) In fact Pindar expresses the magnificent glorification of the legendary origins of Cyrene and skilfully inserts a plea for the recall of Damophilus, a Cyrenaean exile, whom the poet had come to know in Thebes. (4). This interest in the Cyrenaean politics and society led Parke to suppose that Pindar was invited to come to Cyrene where he was acquainted with the cult of "Zeus Ammon" whose great temple was in the city and formed the picture that the whole area was in a special sense under his divine control (5).

It is true that Pindar shows his personal knowledge of the city, especially when he describes the stone-paved road and the tomb of Battus in the market place of the city(6). But it seems probable that the stone-paved road was the traditional road for the processions and was known in Cyrene. The return of Carrhotus was naturally celebrated by a triumphal procession along this road which was originally built by Battus. (7). About his knowledge of the position of the tomb of Battus in the market place, it is as in several other cities of Greece, the tomb of the founder was traditionally set in the market-place of the city (8).

(1) See Fennel, C.A.M., *op. cit.*, p. 171 and Conway, G.S., *op. cit.*, p. 107.

(2) Pindar, *Pythian IV*, 1—3., see Sandys, J.E., *op. cit.*, p. 237; Pausanias X 13,5.

(3) See Parke, H.W., *op. cit.*, p. 206.

(4) Pindar, *Pythian IV*, 288—299.

(5) Parke, H.W., *op. cit.*, pp. 206—207.

(6) Pindar, *Pythian V*, 90—95.

(7) See Conway, G.S., *op. cit.*, p. 126.

(8) *Loc. cit.*

statement at the beginning of the fourth Pythian Ode, in which he refers to the origins of Cyrene from Thera as it is clear from Medea's words: who says :

Φαμί γὰρ τὰςδ' ἐξ ἀλιπλάκτου ποτέ γὰς Ἐπάφου
Κόραν.

ἀστέων ῥίζαν φυτεύσεσθαι μελῆσιμβροτον
Διὸς ἐν Ἀμμωνος θεμέλοις (1).

The translation of which by Sandys runs: For I aver that, from this wave-washed land of Thera, the daughter of Epaphus-Libya-will, in days to come, find planted in her a root of cities that *shall be fostered of men near the foundations of Zeus Ammon*. (2). In the light of this translation, Parke states that the poet means here by the "Zeus Ammon" the 'Zeus' of the great Doric temple at Cyrene (3). But Fennel states in his explanation of this phrase that Pindar means by "Zeus Ammon" the Ammon of the temple which was at Siwa (4). The same view is also stated by Conway, who thinks that the god is "Zeus Ammon" of the temple which exists in the east of Libya (5).

It is clear that these different statements came as a result of the translation of the last phrase of the poet's statement :

Διὸς ἐν Ἀμμωνος θεμέλοις

which is translated 'near the foundations of Zeus Ammon. But there is an indefinite range of possibilities. For taken by itself the phrase would ordinarily mean in Greek "of Zeus near the foundations of Ammon". According to this the suggested literal translation of the whole statement is "For I aver that, from this wave-washed land of Thera, the daughter of Epaphus-Libya-will in days to come, find planted in her a root of cities that *shall be an object of Zeus' love to men near the foundations of Ammon*(6)". In this case, it is clear that the poet means here Zeus whose temple is built at Cyrene near or on the lands of Ammon. The word "θεμέλοις" is a general term which means here, the sacred lands of

(1) Pindar, *Pythiaon IV*, 14, 15.

(2) See Sandys, J.E., Pindar, *Pythian IV*, 14, 15, LCL (Reprinted 1968)

(3) Parke, H.W., *op. cit.*, p. 207.

(4) Fennel, C.A.M., *Pindar, the Olympian and Pythian Odes*. (1897) p. 171.

(5) Conway, G.S., *The Odes of Pindar* (1972), p. 107.

(6) It is common that so many of the princely families of Greece derive their lineage in a direct line from Zeus, "the father of gods and men", see Whibley, L., *A Companion to Greek Studies* (1906), p. 304.

Even, when Zeus Lykaïos was represented on the coinage of Cyrene, after the middle of the fourth century B.C. (PL. 9), Amun continued to be represented on the coinage, as the principal deity of the area (PL. 10) (1).

A great temple in the Doric order was built at Cyrene, dedicated to Zeus and was designed on the same scale as the temple of Zeus at Olympia (2). Stucchi states that all the dates according to the original constructions, waver between the years 540—450 B.C and it is too early to risk a preference for any of these dates (3). But it seems that the temple was built as a step in Battus IV's programme as a result of political reasons, when he decided to re-establish the Greek society for all the colonists in the area as an attempt towards close relations with their Greek mainland after a long period of cruel internal destructions (4).

Parke, neglecting Zeus Lykaïos, states that the worship of Zeus was introduced to Cyrene by building this Doric temple about the beginning of the fifth century B.C. He thinks that the Zeus of this Doric temple is the Egyptian Amun of Siwa, basing his statement on the ground that the temple was built at the same time in which the extant coinage of Cyrene represented Amun. He regards this temple as the greatest manifestation of the connection between Cyrene and Amun (5). This means, as it is clear, that the Greek colonists adopted Amun of Siwa, under the name of Zeus in Cyrene. Of this there is no evidence, and it is noted that this temple was built on the same site, which is described by Herodotus as a hill of Zeus Lykaïos, north-east of the city.

In fact, the Greek literary sources on Amun and Zeus in Libya are explained by modern scholars in different ways. The Pindar's

(1) See Robinson, E.S.G., *op. cit.*, p. ccxxxiv, pl. xiii, 31, 18, 25; see also Kraay, C.M., and Hirmer, M., *Greek Coins*, p. 380, pls., 215—216.

(2) See Stucchi, S., *op. cit.*, pp. 211—212; see also Goodchild, R., *Cyrene and Apollonia* (1970), pp. 99—100.

(3) Stucchi, S., *op. cit.*, p. 212; Chamoux (*op. cit.*, pp. 231 ff.) has argued, according to the architectural details of the temple, that it is dated to about 520—490 B.C.

(4) See Michell, B.M., *op. cit.*, p. 113; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 204.

(5) *Loc. cit.*

Cambyzes. (1). It is reasonable to suppose that the development of BMC II coins with the head of Amun came as a result of the improved technique, the increased prosperity due to the trade connections with various parts of the world and the good relations with the Libyans during the reign of Battus IV. This development does not require a political explanation as it is mentioned by Chamoux and Jenkins.

It is known that the god appeared in Egypt under two forms, one wears two ostrich plumes or the ureæus and disk, and the other with ram's head(2). But it is noted that the latter form is habitually adopted in the oases (3) and consequently in the Libyan territories of Cyrenaica. The earliest types of coins of Barca represent the ram's head of the god, because this city contained a very high proportion of native Libyans (4) But the city gave him afterwards the common type, which was adopted by Cyrene on the coins (PLs. 5,7—8), i.e. the form of a diety human-headed similar to Zeus, but with ram's horns to keep the character of Ammon through his new Hellenic type.(5).

It is clear that Apollo and Artemis were the great deities of Cyrene and the stories of the oracles of Apollo at Delphi were linked with the development of the colony in all its early stages.(6) The worship of Zeus was also introduced to Cyrene, it is mentioned by Herodotus that the Persians encamped on the hill of Zeus Lykaïos in the north-east of Cyrene while they were returning from Barca(7). There they changed their mind and decided to capture Cyrene, probably just before Darius' visit to Egypt in 518 B.C. (8). However, Amun was chosen in his Hellenic conception to be represented on their coinage.

(1) *Loc. cit.*

(2) Robinson, E.S.G., *op. cit.*, p. ccxxxiv.

(3) *Loc. cit.*

(4) *Loc. cit.*

(5) Robinson states that this Hellenic conception was presumably invented in Cyrenaica (*Loc. cit.*).

(6) Stucchi, S., "First outline of a history of Cyrenaican architecture during the Greek period", *Libya in History* (Historical Conference 16—23 March 1968) pp. 208—209; Parke, H.W., *op. cit.*, pp. 202—203.

(7) Herodotus, IV, 203; cf. Robinson, E.S.G., *op. cit.*, p. ccxxxix.

(8) The Persian forces attacked Cyrene but were recalled to return to Egypt by Aryandes; see Michell, *op. cit.*, p. 100 and Noshy, *op. cit.*, p. 77.

by the Libyans who sold it to the Cyrenaeans who in their turn exported it into the Medierranean world (1).

One of the first fruits of this new policy of the Greeks is the adoption of Amun cult and consequently the appearance of the god on the coinage, first on the coins of Cyrene and Barca and then of the other colonies. This type of coins is calassified by Robinson as BMC series I (PL. 1,1—2), which is dated to a period from 525—480 B.C., but the earliest examples of the coins of Cyrene which represent the head of Ammon are dated by him to about 500 B.C. About Barca, its earliest examples (PL.2, 1—2), PL. 3,1—2) represent the ram's head of Ammon which are dated also to about 500—480 B.C. because the silphion types on the obverses resemble the Cyrenacan coins of this period. The head of Ammon, artistically, developed after 480 and was regularly combined with the silphion on the coins (2). This refers mainly to the stability of the relations between the Greeks and the Liban tribes who played an essential role in developing the economy of the Greek colonies in the reign of Battus IV.

If we accept the statement of Robinson, then we may assume that the adoption of Ammon cult by the Cyrenaeans happened during the last ten years of the 6th century B.C., i.e. after 513 when Cyrene and the otehr colonies with the Libyan tribes became firmly under the Persian control and as a result of the growth of the relations between the Greeks and the Liybans as mentioned above.

It is suggested by Chamoux and Jenkins that Robinson BMC II type with the head of Amun (PL.4)is indicative of the liberation of Cyrene in the reign of Battus IV, about 480 B.C., because of its superiority to the earlir types minted there(3). But, Cyrene, from the beginning had been coining independently and there is no evidence of Persian influence in its issues since aobut 525 B.C. when Arkesilaus III has submmitted to

(1) Seltman, C., *Greek Coins* (1960), p. 182; Sadawaya, A., *op. cit.*, p. 95.

(2) Robinson, E.S.G., *A Catalogue of Greek Coins in the British Museum, Cyrenaica* (1927), for Cyrene see p.p. XXIII, XXXV, CCXXXIII, pl. III. 1,2; for Barca see p. XIXVII, pl. CXXIII. 4—7.

(3) Chamoux, F., *op. cit.*, pp. 166 ff; Jenkins, G.K., *Num Chron. XV* (1953), p. 150; see Mitchell, B.M., *op. cit.*, note 70 on p. 111.

phase. Darius, the great king, changed the Persian policy in Egypt and Libya : he built a temple and dedicated it to Amun in the oasis of El-Kharga and worked to win over the priests to his side(1). Egypt, generally, flourished, and its trade increased enormously when the whole Persian Empire was opened to it. Darius completed or reopened the canal connecting the Nile with the Gulf of Suez and also encouraged the trade with the interior of Africa (2). Libya, was first mentioned in the list of the provinces in old Persian inscriptions about 513 B.C. in the hieroglyphic list of Darius Egyptian canal stele (3). This means that there was a more direct Persian control not only of Egypt but also of the Greek cities in Libya and the surrounding Libyan territory(73).

Under these circumstances, a new factor began to appear in Libya, This is the good relations between the Greek colonists and the Libyan tribes under the reign of Battus IV in the same sphere of the Persian suzerainty (4). It is true that they became included within the same sphere of the Persian influence. But it is reasonable to suppose that these good relations came as a result of the importance of the trade activity in Egypt at the same time, i.e. as a reaction to the Persian policy in Egypt, when Darius developed its commerce and connected it with the eastern commercial centres. This Persian policy in Egypt necessitated the co-operation of Greek colonists with the Libyan tribes, the followers of Amun and the controllers of the caravan routes in the western oases. Cyrene and the other Greek colonies were essentially commercial centers in a position between the eastern side of north Africa and the ancient Greek world. There was also an important factor, the Libyans were the owners of the silphion, the favourite drug, which grew in the fertile and well watered plateau on the eastern side of Libya. It was gathered

(1) The site of Hibis and the earlier temple of Amun was excavated by the archaeological expedition of the Metropolitan Museum of New York in 1909—11 and the temple has been restored by the Egyptian Department of Antiquities : see *The temple of Hibis in El Khargeh Oasis*, part. I : The temple and its temenos by Winlock, H.E., with plans by Lindsley Hall, F., after Palmer-Jones, W.J., Walter Hauser and Peek, G.M., see also Sykes, R., *op. cit.*, p. 161.

(2) *Ibid.*, p. 195.

(3) Mitchell, B.M., *op. cit.*, 107.

(4) *Loc. cit.*

(5) Cf. Chamoux, f., *op. cit.*, pp. 338 ff; cf. also Parke, H.W., *op. cit.*, 203.

Cyrene (C. 527—519 B.C.) although it was insufficient(1). This means that Cambyses took from the beginning the side of the Cyrenaeans who were on bad terms with the Libyans at that time.

The Persians continued their support of the Cyrenaeans against the Libyan natives, the honest followers of Amun, by sending an expedition to avenge Arkesilaus' murder. After subduing Barca, Arkesilaus was murdered there by the native Barcaeans about the beginning of 519 B.C. (2) This expedition was sent to Barca by Aryandes, now satrap of Egypt, owing to the desire of Pheretima, mother of Arkesilaus III.(3) She went to Egypt and asked for help on the ground that her son submitted to Cambyses. Barca was captured and handed over to the Battiad faction after nine months siege. The expedition returned probably just before Darius' visit to Egypt in 518 B.C., when Aryandes was put to death by Darius as a rebel. (4)

So it is clear that the Ammonians and their neighbours from the Libyan tribes were considered by the Persians as powerful resistant natives under the protection of their famous cult of Amun, which they wanted to destroy. In the meantime, there is no evidence that the Greek colonists, till the end of Aryandes in the summer of 518 B.C., gave any attention to the cult of Amun. Arkesilaus III and the kings before him, used to go to the oracle of Apollo at Delphi, where they were given the answers to their questions, and not to the oracle of Amun in Siwa, although this oracle achieved a distinguished position among the oracles of the world. It became one of the seven famous oracles of the period, which were consulted by Croesus about 550 B.C. during the reign of the king Amasis(5)

But by Darius' visit to Egypt in 518 B.C. the area entered a new

(1) The date of Arkesilaus III's accession is fully discussed by Noshy, 1. "Arkesilaus III", *Libya in History* (Historical Conference 16—23 March 1968) and he proposed C. 527 B.C.; for the tribute of Arkesilaus III, see Mitchell, B.M., "Cyrene and Perisa", *JHS*, 68 (1966), p. 99.

(2) See Noshy, *op. cit.*, p. 277.

(3) *Loc. cit.*

(4) See Sykes, P., *A History of Persia*, Vol. I (1958), p. 161; see also Noshy, *op. cit.*, p. 77.

(5) For the seven famous oracles, see Herodotus, *Book I*, 46.

wers of the cult of Amun. So he erected a temple in the oasis, dedicated it to Amun and it became the famous temple with its oracle in the area for a long period.

During the reign of Amasis the oracle of Amun in Siwa became widely known in the Libyan desert and gradually gained a great fame in the Mediterranean world. It was considered one among the most important oracles at that time. When Croesus, King of Lydia, wanted about 550 B.C. to know the best of the oracles in the world, the oracle of Amun was considered among their best (1).

When the Persians invaded Egypt in 525 B.C. and put an end to the XXVI th Dynasty, their leader Cambyses decided to send an army against the oasis of Amun(2). The aim of this campaign is still without convincing explanation. It is stated that the oracle of Amun predicted the tragic end of Cambyses and of his rule in Egypt in a short time. For this reason, he wanted to punish the priests and at the same time to show the followers of Amun that the oracle and its priests were helpless(3).

But we may assume that Cambyses realized the great role which the Ammonians and the other Libyan tribes played in the Egyptian policy during the XXVI th Dynasty, when they supported Amasis against Apries. He, consequently, put in his consideration their powerful position and expected their dangerous resistance against the Persian invasion. So he decided to burn the temple of Amun and to take the inhabitants as prisoners. But his campaign never arrived at Siwa as it was overwhelmed by a sandstorm(4). It is also noted that Cambyses accepted at the same time a tribute from Arkesilaus III, the king of

(1) Herodotus, *Book I*, 46; cf. Fakhry, A., *op. cit.*, p.p. 27 note 4, 29.

(2) Herodotus, *III*, 17; see Fakhry, A., *op. cit.*, p. 29 and note 3.

(3) Fakhry, A., *The Oases of Egypt*, Vol. I, p. 81.

(4) Herodotus, *III*, 26. The story of the Persian army against Siwa is mentioned to Herodotus by the Ammonians. It explains the Persians' marching from Thebes to the oasis, i.e. Kharga oasis which is connected with Thebes by a caravan route. When they were crossing the sand from Kharga and about midway between Kharga and Siwa, a great, violent south wind arose and buried them in the masses of the sand which it bore; (see Fakhry, A., *Siwa Oasis*, p. 29.)

able to read the name of the king Amasis (570—526 B.C.) on the temple which is identified as the oracular shrine of Amun.(1).

The later kings of the XXVI th Dynasty gave their considerable attention to the western oases. Apries (589—570 B.C.) began to organize the oases. He built in Bahria oasis a temple of which the remains still exist(2). In fact, each oasis was a small kingdom, but the governors, who were descendants of Libyan tribes (the Mashwash) recognized the kings of Egypt as their lords.(3)

When Cyrene, during the reign of Battus II (575— ?) accepted from various parts of Greece new settlers who had been promised more land, which was probably taken by force from the Lands of Libya, the Libyan tribes appealed through their king Adicran to the king Apries of Egypt.(4) Apries considered the Greek colonists in Libya as a threat not only to the Libyan lands, but also to the oases of Egypt which became in danger of total separation from Egypt. So he sent an army to Cyrene, but this army was defeated by the Cyrenaeans.(5)

Amasis took the opportunity to carry out his ambitions and with the help of the defeated army and the inhabitants of Siwa oasis, who played a great part in supporting him, was proclaimed successor of Apries(6). That was about 570 B.C. He was more prudent than Apries when he realized the importance of Siwa oasis as a chief caravan station because of its geographical position and its inhabitants, the honest follo-

(1) The Cartouche was wrongly read by Steindorff as that of "AKORIS" (392—380 B. C.), one of the XXIX th Dynasty (*op. cit.*, p. 118); see Fakhry, A., *op. cit.*, p.28, note4, he inclines to the probability that the present temple was preceded by an earlier one, but the excavations has not asserted this opinion yet; see also Parks, H. W., *op. cit.*, p. 197.

(2) Fakhry, A.; *op. cit.*, p. 28.

(3) Fakhry, A., *The Oases of Egypt, Vol I, Siwa Oasis* p. 79.

(4) See Sadawya, A.M., "The Greek settlement in Cyrenacia, with notes on pottery discovered there" *Libya in History* (Historical Conference 16—23 March 1968) p. 96.

(5) Bates, O., *op. cit.*, p. 230; Fakhry, A., *Siwa Oasis*, p. 28, he states that the army of Apries included many Greek mercenaries and it is not surprising to say that his army was defeated.

(6) Fakhry, A., *op. cit.*, p. 28.

destruction of Thebes in 663 B.C. may have been a reason for the prosperity of the oases, the new principal home of Amun cult which gradually developed to become known with its famous oracle in Siwa during the sixth century B.C. The activity of the caravan routes across the western oases led Milne to believe that this trade activity necessitated the establishment of the Greek colonies in the eastern side of Libya near the southern coast of the Mediterranean, where Cyrene was first established in 631 B.C.(1).

The geographical position of these Greek colonies explains why the oasis of Siwa, the most northerly of the other oases became more distinguished(2). It is due to its importance as a station of the caravan commerce. It was approached directly across the Libyan desert from the Greek colonies near the coast(3) and connected at the same time by caravan routes from Memphis and Fayoum.(4) It was also approached from Paraetonium (Marsa Matruh) where the road still goes from the coast inland over the desert to the oasis(5). We can also add that Herodotus tells us about 445 B.C. that there was a route leading from the west of Siwa to Augila and then to the Garamantes of southern Libya(6). As it seems, it was from early times known as a traditional caravan route. So Siwa flourished and gradually became one of the chief caravan stations. A station, which was a link between Nubia and Thebes through the other oases and the Greek colonies in Libya and the interior of Egypt. It consequently became a rich area and its people lived in prosperity.

The oldest monuments discovered in Siwa is dated to the XXVI th Dynasty. Fakhry in his expedition to the oasis in 1938 was successfully

(1) Milne, G., *op. cit.*, pp. 177 ff.; the theory of Milne is accepted by Fakhry, (*op. cit.*, p. 27) and is rejected by Chamoux, (*op. cit.*, pp. 60, ff.)

(2) The text which deals with the seven oases in the temple of Edfu mentions the oasis of Siwa as the seventh one because they were numbered according to their distance from Edfu (see Fakhry, *op. cit.*, p. 21, note 1).

(3) Parke, H.W., *op. cit.*, p. 196.

(4) Fakhry, A., *op. cit.*, p. 27.

(5) Bevan, E., *A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, (1914) pp. 8 ff; Parke, H.W., *op. cit.*, p. 196.

(6) Herodotus, *Book IV*, 182—183; see Daniels, C., *The Garamantes of Southern Libya* (1969), p. 12.

oasis as a colonial expansion of the cult (1). The activity of Taharqa is also distinguished by the remains of a chapel in the Bahria oasis (2). Herodotus in the fifth century B.C. said that the Ammonians of Siwa were colonists from Egypt and Ethiopia who spoke a language composed of the tongues of both countries(3). This clearly means that the inhabitants of the oasis of Siwa were completely under the influence of the Egypto-Nubian culture.

It is true that by 654 B.C. the Thebans acknowledged the Assyrians' puppet ruler, Psammetichus I (664—610 B.C.) as their king and he continued to honour Amun (4). to whom he presented his daughter Nitocris to be the future god's wife and also other late rulers in the Saite period honoured the Theban with Tanite deities. (5). But it is noted that Psammetichus I erected defence-works in the Memphite area against the Libyan incursions across the desert(6). As it seems, he expected these incursions from the followers of Amun in the oases where the cult of the god became stronger than in Thebes.

The inhabitants of the oases were of Libyans, who were connected with the south lands of the Nile.(7) They were powerful tribes and spread themselves along a wide stretch in the western desert from Nubia to the North African coast for a long period of time(8). They, from earlier times, controlled a caravan route which ran from Darfur to the different oases(9). This means that they played a great role in transferring the trade from south to north across the western oases when Egypt was greatly affected as a centre of commerce during the Assyrian conquest.

So we must assume that the Assyrian conquest of Egypt and the

(1) Steindorf, G., *Durch die Lybische Wüste zur Amon oasis Siwa*. (1904), p.p. 69—70; cf. Parke, H.W., *op. cit.*, p. 196.

(2) See Kitchen, K.A., *op. cit.*, p. 390.

(3) Herodotus, *Book II*, 42.

(4) Trigger, *op. cit.*, p. 148.

(5) Kitchen, K.A., *op. cit.*, p.p. 403—404, 429—430.

(6) *Ibid.*, p. 405.

(7) About the inhabitants of the oases, see Fakhry, A., *op. cit.*, pp. 25—26.

(8) Bates, O., *The Eastern Libyans* (New impression 1970), pp. 101—102.

(9) Fakhry, A., *op. cit.*, p. 27.

deities at Kawa in Nubia(1). It is also clear that he had erected shrines in the lower Nubia, including Semna, Buhen and Qasr Ibrim(2).

In 671 B.C., Egypt was invaded by the king Esarhaddon of Assyria and the armies of Taharqa were repeatedly defeated by the better disciplined Assyrian forces. Consequently the whole land became subject to the Assyrian invaders (3). Thebes was occupied in 666 B.C., but after the Assyrians withdrew, the Nubians' governor continued to administer the city(4). In 663 B. C. the Assyrian king Ashurbanipal returned and at that time, the Assyrians plundered and looted Thebes of its treasures(5). The reverberations of this calamity sounded on the land of the Nile and echoed round the ancient world(6).

By the disaster of 663 B.C. the Nubian ruling in Egypt was at end and the Assyrian destruction had left Egypt divided, subdued and prostrate(7). A definite separation was created between the upper and lower ends of the Nile valley and consequently its position as a centre of commerce was greatly affected, especially when the united Egyto-Nubian realm became outwardly shattered (8).

So it is reasonable to suppose that it was the time in which the cult of Amun began gradually to continue its role in another area beyond the destroyed Thebes. At that time, it found a fertile land in the western oases of Egypt, where the prestige of the god began, as it seemed, to flourish during the reign of the XXV th Dynasty. A stele was erected in the oasis of Dakhla in 24th year of 'Pharaoh Py', son of Isis, beloved of Amun. 'Py', is explained as a hypocoristic version of the name Piankhy(9). It is also assumed that Taharqa occupied the oasis of Siwa and the cult of Amun must have been taken from Thebes to the

(1) *Ibid.*, p.p.38, 73, pl. 16.

(2) Trigger, B., *op. cit.*, p. 146.

(3) See Fahkry, A., *op. cit.*, p. 27.

(4) Trigger, B., *op. cit.*, p. 148.

(5) Kitchen, K.A., *op. cit.*, p. 394.

(6) *Loc. cit.*

(7) *Ibid.*, p. 395.

(8.) See Milne, J.G., "Trade between Greece and Egypt before Alexander the Great", *JEA*, 25 (1939), p. 177; see also Kitchen, K.A., *op. cit.*, p. 395.

(9) Janseen, J.J., "The smaller Dakhla stela", *JEA*, 54 (1968) pp. 165—172, pls. XXV—XXV A.; Kitchen, K.A., *op. cit.*, p. 371.

As a result of the country's divided state among a number of weak and quarrelling Libyan princes in the later period of the Libyan Dynasties, Piankhy of Napata, the native Nubian ruler and the devotee of Amun invaded upper Egypt and received the nominal submission of lower Egypt (1). The short-lived Dynasty XXIV (c. 730—715 B.C.) had been conquered by his brother Shabaka (715 B.C.) and the Nubian monarchy gave Egypt the XXVth Dynasty which ruled for about half a century (715—663 B.C.) and whose most important member was Taharqa, a later king of the Dynasty (2).

The rise of the Nubian family is traced according to the archaeological evidence dated to about 850 B.C. when the interments appear to have been made in what was to become the royal cemetery at Kurru, a few miles down-stream from Gabel Barkal(3). It is suggested that since the end of the New Kingdom, the cult of Amun have been maintained at Gabel Barkal without interruption and the priests at Gabel Barkal remained in contact with the priesthood of Amun at Thebes. (4) The upper Nubia was also inhabited by Egyptian priests, officials and traders who remained there and intermarried with the Nubians and rejected the Libyan rulers in Egypt (5). This probably explains the argument that Shosheng I invaded Nubia to secure the goods coming from the south and to take prisoners from there in order to form the Nubian troops who served him in his later Palestinean campaign (6).

At any rate, the Nubian rulers of the XXVth Dynasty achieved stability and unity in Egypt and their period was marked by special allegiance to the Theban god Amun and his cult. They renovated New Kingdom temples and erected new ones at Meroc, Gabel Barkal, Senam and Kawa. (7) Taharqa (691—666 B.C.) restored an old sanctuary of Amun, established in the XVIII Dynasty and built a new temple decorated on the exterior with reliefs of the king paying homage to various

(1) See Moorey, P.R.S., *op. cit.*, p.p. 38, 73—74.

(2) Yoyette, J. "Ethiopian Period", *A Dictionary of Egyptian Civilization*, Ed., Posener, G. (1962) pp. 81—82; Moorey, P.R.S., *op. cit.*, p. 38.

(3) Trigger, B., *op. cit.*, p. 140.

(4) Trigger, B., *op. cit.*, p. 139.

(5) *Loc. cit.*

(6) *Loc. cit.*

(7) Moorey, P.R.S., *op. cit.*, p. 38.

In fact there is no evidence that the rulers of the three Libyan Dynasties in Egypt erected buildings in honour of Amun or the other deities of Egypt in the western oases (1). It is true that these rulers paid attention to some of the oases : Shosheng I (945 — 924 B.C.), who established the XXIIInd Dynasty, sent out one of his officials to restore orders and to organize the land of the oasis of Dakhla — about 941 B.C.(2) Osorkon I (924—889 B. C.), Shosheng IV (783—777 B.C) and Osorkon III (777—749 B.C.) gave their attention to the production of the wine in the oases. (3). But they do not refer to any attempts in building temples to Amun in the area.

Shosheng I was from the beginning planning to rule the lands of the Nile and apply a policy, which was followed by most of his successors from the Libyan Dynasties : the ruling of the united Egypt from the Delta and the connecting of the Thebaid to the royal house through the appointment of the members of the royal family and its allies to leading positions in Theban hierarchy and also the marriage-alliances with notable families (4). They erected temples to Amun and the other deities in different places : in upper Egypt, the Delta where the family seat Bubastis and Tanis and in other places in the Delta and Memphis (5). but not in the oases. However, this period was generally distinguished by the absence of the major undertakings and was marked by a constant unrest and divided authority(6). It is also noted that the Theban high priests of Amun remained powerful in the south of Egypt, rebelling periodically against the the Libyan rulers(7). So it is unlikely that they gave attention to Amun and his cult in the western oases by building temples, for this, as it seems, was beyond their policy during their reign over Egypt.

(1) Fakhry, A., (*op. cit.*, p. 26,) states that the Libyan rulers restored the temples of Amenre and of the other gods as well, but he did not refer to any of the temples in the oases.

(2) See Gardiner, A., *JEA*, 17 (1933), pp. 19—30, pls. 5—7, he fully re-edited the larger Dakhla stela, which was found at Mut in Dakhla and was first published by Spiegelberg, *RT*, 21 (1899) pp. 12—21; see also Fakhry, A., p. 25 and Kitchen, K.A., *The Third Intermediate Period in Egypt* (1100—650 B.C.) (1972), p. 290.

(3) Fakhry, A., *Bahria Oasis I* (1942), pp. 19—20.

(4) See Kitchen, K.A., *op. cit.*, pp. 288 ff., *passim*.

(5) *Ibid.*, p.p. 291, 300, 303—305, 317—319, 327, 341, *passim*.

(6) Moorey, P.R.S., *op. cit.*, p. 38.

(7) Trigger, B., *Nubia, under the Pharaohs* (1976), p. 144.

between two accessible chapels in the temple of Khnosu at Karnak from the Ramesside period, was built to serve as a building-place for the priest who pronounces the oracles(1).

The two ways of giving the oracles — by actions or by words — were used in ancient Egypt, but probably one of them was used at one time, while the other was used at another time (2). We must also note that the two ways were really given by a priest who was supposed to be possessed by his god or by some one hidden in the boat to direct its carriers or in the temple to announce the spoken words(3).

The influence of the oracles was increasing and interfering in the details of the private lives of the people. A great number of ostraca questions, which reflected this influence, were discovered, they are from the time of the XIX th and XX Dynasties.(4). The question of the enquirer was written on one side of the ostrakon and was laid face down in the path of the god's procession to give his judgment. Sometimes there were some marks on the backs of the ostraca. These marks were probably, to enable each enquirer to distinguish his own one.(5).

This was the essential character of the cult of Amun and his oracles which evolved in ancient Egypt. But after the Ramesside age, the lands of the Nile were attacked from time to time by a series of serious invasions, during which the cult of Amun, the great god of Egyptian Thebes, spread as far as the western oases and his oracle became well known in his temple in the oasis of Siwa, the most northerly of the other oases. But the date in which the cult and the oracle of the god was Principally introduced to this area has not yet been made clear.

It is stated that it was, in all probabilities, under the Libyan rulers of Egypt (945—715 B.C.) who were Egyptianized and proved to be enthusiastic followers of the religion of Egypt, that the oasis of Siwa came thoroughly under the Egyptian culture and religion(6).

(1) Maspero, G., *Art in Egypt*, p. 254; Fakhry, A., *op. cit.*, p. 43.

(2) *Ibid.*, p. 41.

(3) Blackman, A.M., *op. cit.*, pp. 254—255; Fakhry, A. *op. cit.*, p. 43.

(4) *Ibid.*, p. 42, note 2.

(5) Parke, H.W., *op. cit.*, p. 195.

(6) Fakhry, A., *op. cit.*, pp. 25-26; cf. Chamoux, F., *Cyrene sur la monarchie des Battiades* (1953), p.332.

being supreme. From the XVIII th Dynasty the final official name of the god became Amun-Ra, i.e. Amūn who is also Ra, the king of the gods and lord of the throne of the kingdom.(1)

The cult of Amūn-Re began to develop a useful function under the XVIIIth Dynasty(2). It became the center of an oracle to which important questions of state could be referred. This practice became more and more established until the later Ramessides, all the more important issues were decided by responses given by the high-priests of the god (3).

The image of the god was carried in his boat on the shoulders of his priests, whom he directed by nods as to where to turn their steps. The enquiry was laid on the ground before the priestly bearers and the god would indicate his approval if they advanced towards it and his disapproval if they recoiled.(4) The enquirers here did not ask their god to provide them with prophecies foretelling the future, but they asked him to give them his judgment, whether the contents of their enquiries would please the god or not (5)

The god did not give his answers by actions only as it is recently stated(6), but the Egyptian literary sources clear that the oracles were given also by words.(7). It is suggested that the crypt, near the ceiling

(1) Engelbach, R., *Introduction to Egyptian Archaeology* (1946), p.p. 64, 180, he states that the god Amun of Thebes and the god Re of Heliopolis were combined in the Middle Kingdom to form Amen-Re, who remained the god of Egypt until the latest times; Otto, E., *Egyptian Art and the Cults of Osiris and Amon* (1966), p. 81.

(2) Parke, H.W., *op. cit.*, pp. 194—195.

(3) Fakhry, A., *Siwa Oasis, its history and antiquities* (1944), p. 41.

(4) Parke, H.W., *op. cit.*, p. 195.

(5) *Loc. cit.*

(6) Parke states that the god gave his answers only by actions (*Loc. cit.*) This is obviously the influence of the story of carrying the statue of the god in his boat so as to be directed by his priests.

(7) Blackman, A.M., "Oracles in Ancient Egypt." *JEA* XI (1925), pp. 254—255, he states that the text of Papyrus 10335 of the British Museum manifests that the statue of the god gave his answers not only by nodding but also by saying this or that.

THE HISTORICAL BACKGROUND OF AMUN AND HIS CULT IN THE WESTERN OASES AND IN THE LIBYAN GREEK COLONIES BEFORE ALEXANDER THE GREAT.

By

AHMED GHAZAL

The subject of this study is Amūn and his cult when this cult was greatly affected and its calamity was sounded on the land of the Nile by the Assyrians' destruction of Thebes in 663 B.C. The god found a fertile land in the western oases and his oracle gradually achieved a great fame in his temple in the oasis of Siwa. The Greeks of Libya learnt to know him there and he became known as "Ammon of Libya" in the ancient Greek world(1). This study will mainly cover this period till the famous visit of Alexander the Great to the temple of the god in Siwa in 331 B.C.

From the early times, Amūn was originally a local god of the twon of the Egyptian Thebes and was worshipped as a god of fertility. Thus he was thought of as a ram, who was the male procreator of the universe(2). In the Middle kingdom, the god emerged as a supreme deity and came to have a dominant position over all the deities(3). When Thebes became the capital of the whole Nile valley, consequently its local god was equivalent to Ra, the sun god, already recognized as

(1) The term "Ammon of Libya" which is used in this study is mentioned by classical authors as an indication to Amun of Egypt in Siwa. The origin of Ammon of Libya from the Egyptian Thebes is attested by Herodotus : "the dove which came to Libya- from Thebes in Egypt-bade the Libyans (so they say) to make an oracle of Ammon' (Book II, 55). He also says : "the Ammonians are colonists from Egypt and Ethiopia who speak a language formed from the tongues of both countries", (Book II, 42). This may possibly ascertain the fact that "Ἀμμων" is a local Siwan spelling for "Ἀμὼν" of Thebes.

(2) Parke, H.W., *The Oracles of Zeus, Dodona, Olympia, Ammon* (1967), p. 194.

3. *Loc. cit.*; Moory, P.R.S., *Ancient Egypt, the Ashmolean Museum* (1970), p. 61.

- BESSMERTNY-HERMAN (B.)**, "L'Histoire des sciences dans l'Encyclopédie", in *Archeion*, 1937, vol. 19.
- BEYER (Charles)**, "Du cartésianisme à la philosophie des lumières", in *Romanic Review*, 34, February 1943.
- FAGUET (Emile)**, "L'Encyclopédie", in *Revue des Deux Mondes*, 15 février 1901.
- HAHN (R.)**, "The application of science to society", in *Studies on Voltaire* ..., 1963, XXV.
- HEALEY (F.G.)**, "The enlightenment view of 'Homo Faber'", in *Studies on Voltaire*, 1963, XXIV/XXVIII.
- KAFKER (F.)**, "Diderot's Encyclopédie", in *Historians*, XXV, 1963.
- LEROY (M.)**, "L'Encyclopédie et les Encyclopédistes", in *Revue de synthèse*, janvier-février 1951.
- PAPPAS (P.)** "Diderot, d'Alembert et l'Encyclopédie", in *Diderot Studies*, IV, Genève, 1963.
- ROMERO (F.)**, "Antecedentes e incitaciones para la Encyclopédie", in *Cursos Conferencias*, juillet-septembre 1951.
- Roosbroeck (G.L.)**, "Who originated the Plan of the Encyclopédie"?, in *Modern Philology*, February 1930.
- ROSENGARTEN (W.)** "Diderot und das Wohlüberlegte Wortebuch der Wissenschaften, Kunste und Handwerke", in *Antares*, 1955, no. 8.
- SCHWAB (R. N.)** "The Chevalier de Jaucourt and Diderot's Encyclopédie", in *Modern Language Forum*, June 1957.
- WATTS (G.B.)**, "The Encyclopédie and the description of Arts et Métiers", in *French Review*, may 1952.
- b) *Numeros spéciaux de revues* :
- Annales de l'Université de Paris*, numéro spécial à l'occasion du 2^e Centenaire de l'Encyclopédie française, octobre 1952.
- Revue d'Histoire littéraire de la France*. juillet-septembre 1951.
- Revue d'Histoire des Sciences*, juillet-décembre 1951 et janvier — mars 1952.

BIBLIOGRAPHIE

I. ETUDES

ALEMBERT (Jean Le Rond d'), *Oeuvres Complètes*, Paris, Belin, 1821, 5 volumes.

— *Discours Préliminaire de l'Encyclopédie*

— *Eléments de Philosophie*

BACON (Francis), *Works*, London, James Spedding, 1870.

— *Interpretation of Nature*

— *Of Proficiency and Advancement of Learning*

CASINI (P.), *Diderot "philosophe"*, Bari, 1962.

CASSIRER (Ernst), *Die Philosophie der Aufklärung*, Tübingen, 1932.

CONDILLAC (Etienne), *Oeuvres Philosophiques*, Paris, G. Le Roy, 1947, 2 volumes.

— *Essai sur l'origine des connaissances humaines*

— *Traité des sensations*

— *Traité des systèmes*

DESCARTES (René), *Regulae ad directionem ingenii*, éd., et trad G. Le Roy, Paris.

DIDEROT (Denis), *Oeuvres complètes*, Paris, Assézat et Tourneux, 1875—1877, 20 volumes.

— Article "Art"

— Article "Autorité publique"

— Article "Encyclopédie"

— *Pensées sur l'interprétation de la nature*

— *Pensées philosophiques*

(**DIDEROT, d'ALEMBERT** ..), *Encyclopédie ou Dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers*, Paris, 1751—1765. Articles : Alphabet (Dumarsais), Cartésianisme (abbé Pestré), Caractère (D'Alembert), Langage (Jaucourt), Système (D'Alembert)

MORNET (Daniel), *Diderot, l'homme et l'oeuvre*, Paris, Boivin, 1941.

— *La pensée française au XVIII^e siècle*, Paris, Colin, 1947.

— *Les origines intellectuelles de la Révolution*, Colin, 1930.

— *Les sciences et la nature au XVIII^e siècle*, Colin, 1911.

LE GRAS (Joseph), *Diderot et l'Encyclopédie*, Paris, Malferi, 1928.

LOCKE (John), *An Essay concerning human understanding*, Oxford, Frazer, 1894, 2 volumes.

PROUST (Jean), *L'Encyclopédie*, Paris, Colin, 1965.

QUINTILIEN, *De Institutione Oratoria*, Paris, Forville, 1890.

II — ARTICLES

a) *Articles isolés* :

“Ces sortes de principes ne nous apprennent rien à force d’être vrais et leur évidence palpable et grossière se réduit à exprimer la même idée par deux termes différents; l’esprit ne fait alors autre chose que tourner inutilement sur lui-même sans avancer d’un seul pas. Ainsi les axiomes, bien loin de tenir en philosophie le premier rang, n’ont pas même besoin d’être énoncés”. (1)

N’oublions pas, non plus, l’importance que les Encyclopédistes accordent aux sciences biologiques, telles que l’anatomie, la physiologie et la médecine, auxquelles Bacon ne s’était pas particulièrement intéressé. Cette idée pourrait être développée, mais cela dépasserait les cadres de notre exposé.

Concluons, en soulignant l’importance de la conception de nos auteurs dans l’histoire des idées. La classification baconienne est le premier essai qu’on ait tenté pour organiser l’ensemble du savoir humain d’après un plan encyclopédique. La conception des Encyclopédistes y ajoute un nouvel élément, car Diderot et d’Alembert considèrent le développement des sciences, non pas comme une simple accumulation de plus en plus vaste du savoir humain, mais comme une méthodologie de l’idée de la connaissance même.

(1) D’Alembert, *Eléments de Philosophie*, p. 131. Cf. *Discours Préliminaire*, pp. 31—32.

nécessité, soit de convenance et d'agrément, soit même d'usage et de caprice". (1)

D'Alembert ajoute que, dans ce système, l'esprit humain pressé par ses besoins, s'engage dans une voie, puis dans une autre et qu'il en résulte une discontinuité et un certain désordre.

Il revient à la généalogie des connaissances humaines dans ses *Elements de Philosophie*. Mais cette fois, il suit un nouvel ordre de classification, en partant de l'objet de la science au lieu de l'esprit et de ses facultés. Son idée maîtresse est la suivante : plus l'objet envisagé est simple, plus il est facile d'établir la science. On y trouve l'influence de Descartes, chez qui la "natura simplex" servait de point de départ pour la connaissance scientifique. Chez d'Alembert, la géométrie, qui ne tient compte ni de la couleur ni du son, qui détache certaines propriétés fondamentales de l'objet par abstraction, est la plus simple des sciences avec l'algèbre. Les sciences se succèdent par degré de complication.

Revenons à l'ordre encyclopédique et à la division baconienne qu'adoptent Diderot et d'Alembert. Leur dette envers Bacon est-elle aussi grande qu'ils veulent bien nous le faire croire ? En premier lieu, leur ordre de succession des facultés est autre. Ils placent la raison avant l'imagination car, d'après d'Alembert, ils ont suivi dans le système encyclopédique :

"l'ordre métaphysique des opérations de l'esprit plutôt que l'ordre historique de ses progrès depuis la naissance des lettres". (2)

Chez les Encyclopédistes, l'imagination est une faculté créatrice. Aussi doit-elle suivre la raison, conformément au progrès naturel des opérations de l'esprit qui, "avant de songer à créer, commence par raisonner sur ce qu'il voit et ce qu'il connaît". (3)

En second lieu, si la division des Encyclopédistes ressemble dans ses grandes lignes à celle de Bacon, elle s'en sépare souvent dans les détails. Alors que Bacon recommandait l'étude de la philosophie première, d'Alembert dit :

(1) D'Alembert, *Discours Préliminaire*, p. 42. Cf. Diderot, Article "Art".

(2) *Ibid.*, p. 65.

(3) *Ibid.*, p. 47.

signes qui nous permettent de communiquer avec les autres. Selon d'Alembert, la langue a une origine naturelle et, par conséquent, l'idée de son origine divine est attaquée indirectement. Dans l'article "Langage" de l'*Encyclopédie*, Jaucourt admet l'origine divine du langage, mais ce n'est qu'une précaution. L'hypothèse de la formation naturelle est formulée dans divers articles, par exemple, dans "Caractère" par d'Alembert et "Alphabet" par Dumarsais.

La morale également a une origine "acquise", dans le *Discours Préliminaire* de l'*Encyclopédie*. Elle n'est point innée, ni révélée. D'Alembert constate que dans les premiers rapports avec les autres, les forts oppriment les faibles. Ces derniers souffrent d'autant plus qu'ils voudraient avoir la même part aux privilèges et d'Alembert affirme qu'ils en ont le droit légitime.⁽¹⁾ De là, la notion de l'injustice et, par suite, du bien et du mal moral. "C'est ainsi", - dit d'Alembert, — "que le mal que nous éprouvons pour les vices de nos semblables produit en nous la connaissance réfléchie", — entendons indirecte, — "des vertus opposées à ces vices".⁽²⁾ La morale dalembertienne repose sur des idées négatives, à savoir l'injustice et le vice.

Dans l'ordre généalogique des connaissances, d'Alembert se sert de deux principes : le besoin et la curiosité. Il affirme que la recherche du bien-être est le but de l'homme. Les premières connaissances, nées du besoin, sont l'agriculture et la médecine. D'autre part, selon d'Alembert, quand les hommes se sentent impuissants d'acquérir de nouvelles connaissances nécessaires à leurs besoins, ils en ont du dépit. D'où naît la curiosité, à laquelle nous devons un grand nombre de connaissances et dont la recherche devient un plaisir en soi. C'est ainsi que l'esprit humain rencontre la physique. Nous tenons dès lors le principe de l'enchaînement :

"Les premières manières dont notre esprit opère sur les objets, et les différents usages qu'il tire de ces objets mêmes, sont le premier moyen qui se présente à nous pour discerner en général nos connaissances les unes des autres. Tout s'y rapporte à nos besoins, soit de

(1) Cf. Diderot : "Aucun homme n'a reçu de la nature le droit de commander aux autres", in Article "Autorité publique", T. XIII. p. 392.

(2) D'Alembert, *Discours Préliminaire*, p. 30.

causes qui ont dû les faire naître et les caractères qui les distinguent; en un mot, de remonter jusqu'à l'origine et la génération de nos idées". (1)

Pour d'Alembert, comme pour Locke, nos connaissances sont directes ou réfléchies, les directes étant celles que nous recevons immédiatement, sans aucune opération de notre esprit; les réfléchies, celles que l'esprit acquiert en opérant sur les directes. Selon d'Alembert, nos connaissances directes sont des sensations; c'est donc à nos sensations que nous devons nos idées. D'Alembert rejette les idées innées. Il déclare que nos sensations nous apprennent d'abord notre existence, puis celle des objets extérieurs. Il note qu'un sentiment irrésistible, "une espèce d'instinct, plus sûr que la raison même", (2) nous fait croire à la réalité de ces objets. Relevons ici que le XVIII^e siècle est un siècle positif : il croit à l'existence du monde extérieur.

Parmi les objets qui nous frappent par leur présence, c'est notre propre corps qui nous sollicite le plus, au dire de notre philosophe : "Sujet à mille besoins ... il (notre corps) serait bientôt détruit, si le soin de sa conservation ne nous préoccupait". (8) Est-ce que tous les corps extérieurs nous font éprouver des sensations désagréables ? Non, "mais la douleur est en nous le sentiment le plus vif; le plaisir nous touche moins qu'elle". (4).

Cette enquête dalembertine porte essentiellement sur des concepts pragmatiques, tels que le besoin, la conservation de notre être et la douleur, suivis de l'idée d'utilité.:

"La nécessité de garantir notre propre corps de la douleur et de la destruction nous fait examiner parmi les objets extérieurs ceux qui peuvent nous être utiles ou nuisibles, pour chercher les uns et fuir les autres". (5)

C'est alors que nous découvrons des êtres semblables à nous, sujets aux mêmes besoins : d'où il résulte que nous trouvons avantage à nous unir à eux. Nous sommes par suite amenés à l'invention des

(1) *Discours Préliminaire*, p. 18.

(2) *Ibid.*, p. 20.

(3) *Ibid.*, P. 35.

(4) *Ibid.*, p. 21.

(5) *Ibid.*, loc. cit.

“Nous avons choisi une division qui nous a paru satisfaire tout à la fois le plus qu’il est possible à l’ordre encyclopédique de nos connaissances et à leur ordre généalogique”.(1)

On pourrait croire, d’après ces lignes, que d’Alembert s’en est toujours tenu au même choix, en maintenant une juste balance entre les deux ordres. En fait, il hésite à plusieurs reprises. Suivons-le d’abord dans son exposé sur l’ordre encyclopédique. Ce dernier se distingue de l’ordre généalogique, car il comprend la plupart des sciences qui, sans avoir été inventées les premières, renferment les principes de toutes les autres. Il consiste à rassembler les sciences dans un petit espace pour que le philosophe puisse

“apercevoir à la fois les sciences et les arts principaux; voir d’un coup d’œil les objets de ses spéculations et les opérations qu’il faut faire sur ces objets: distinguer les branches générales des connaissances humaines, les points qui les séparent ou qui les unissent et entreprendre même quelquefois les routes secrètes qui les rapprochent”.(2).

D’Alembert compare l’ordre encyclopédique à une “mappemonde qui doit montrer les principaux pays, leur position et leur dépendance mutuelle, le chemin en ligne droite qu’il y a de l’un à l’autre”.(3).

En suivant cet ordre, il divise l’entendement en trois parties, Mémoire, Raison et Imagination auxquelles correspondent trois sciences : l’Histoire, la Philosophie et la Poésie.

Toutefois, d’Alembert n’est pas sûr de son choix, concernant l’ordre encyclopédique. Il semble fasciné par l’ordre généalogique. Il s’ensuit qu’il nous donne une explication génétique des connaissances humaines. C’est ainsi qu’il examine :

“la généalogie et la filiation de nos connaissances, les

(1) D’Alembert, *Discours Préliminaire*, T. 1, p. 46.

(2) *Ibid.*, p. 45.

(3) *Ibid.*, p. 45.

tyrans ignorants, oisifs et dédaigneux". (1) Maintenant, c'est-à-dire au milieu du XVIII^e siècle, il faut reconsidérer les arts mécaniques, indiquer l'origine de chaque art et en suivre pas à pas les progrès. Diderot cherche à recueillir sur le vif cette force qui porte l'homme à créer des instruments nécessaires à la vie même. Il s'adresse aux plus habiles ouvriers de la France et se rend dans les ateliers pour les interroger. Et, quand les réponses ne sont pas claires ? Eh bien ! Diderot se transforme en apprenti, se mettant lui-même à l'ouvrage, pour divulguer tous les secrets. Dans l'*Encyclopédie*, des gravures et des planches présenteront les formes concrètes du travail.

L'*Encyclopédie*, conçue comme une oeuvre de diffusion, conforme à la volonté de l'époque des lumières, ne doit pas être "un livre de l'Etat", (2) mais un livre du peuple. La description des arts est destinée à transformer en patrimoine du peuple ce qui était réservé à des catégories déterminées, aux privilégiés sociaux et politiques.

D'Alembert se rend bien compte, comme Diderot, du sens historique de son époque. "Pour peu que l'on considère avec des yeux attentifs le milieu du siècle où nous vivons", on aperçoit sans peine, dit-il, "qu'il s'est fait à plusieurs égards un changement bien remarquable dans nos idées".(3) Selon d'Alembert, la raison, après plusieurs siècles de barbarie, manifeste enfin "son réveil et son action par des efforts réitérés et puissants".(4) D'Alembert voudrait fixer ces révolutions de l'esprit humain, ces progrès de la philosophie au moment où le siècle de la philosophie, par excellence, prend conscience de son propre effort.

Il admet qu'il est difficile de "renfermer dans un système qui soit un, les branches infiniment variées de la science humaine"(5) Remarquons qu'il condamne, dans le *Discours Préliminaire* de l'*Encyclopédie*, l'amour du système en soi ou l'esprit de système, cependant il ne renonce pas à l'esprit systématique.(6) Aussi trouve-t-il un système qui offre le plus grand nombre de liaisons et de rapports entre les sciences :

(1) *Ibid.*, loc. cit.

(2) Article "Encyclopédie", p. 493.

(3) D'Alembert, *Oeuvres*, éd. Belin, Paris, 1821, *Elements de Philosophie*, T.I, p. 119.

(4) *Ibid.*, loc. cit.

(5) *Op. cit.*, *Discours Préliminaire* de l'*Encyclopédie*, T. I, p. 188.

(6) Cf. Condillac qui, par sa critique pénétrante de la notion de système, en renouvelle le sens, dans le *Traité des systèmes*.

dans la conception encyclopédique des connaissances. Diderot ajoute qu'il faut s'imposer la loi de tout définir sans exception et de rapporter la langue vivante à une langue morte. Qu'on emploie, de préférence, le latin, et le grec comme "supplément à la disette du latin".(1).

L'étude d'une langue comprend aussi l'orthographe et la prononciation :

"Il faut absolument se faire un alphabet raisonné, où un même signe ne représente pas des sons différents, ni des signes différents un même son, ni plusieurs signes une voyelle ou un son simple. Il faut ensuite déterminer la valeur de ces signes par la description la plus rigoureuse des différents organes de la parole dans la production des sons attachés à chaque signe".(2)

En somme, c'est un programme de phonétique à laquelle Diderot ajoute une grammaire générale raisonnée qui interprète l'usage, le combat ou le justifie.

Terminologie, etymologie, phonétique et grammaire complètent le cercle des connaissances à transmettre aux générations futures.

En outre, Diderot exalte les arts mécaniques. Il considère bien fondée la distinction des arts en libéraux et mécaniques, mais il constate que cette séparation a des conséquences néfastes :

"en avilissant des gens très estimables et très utiles, et en fortifiant en nous je ne sais quelle paresse naturelle, qui ne nous portait que déjà trop à croire que donner une application constante et utile à des expériences et à des objets particuliers, sensibles et matérielles, c'était déroger à la dignité de l'esprit humain, et que de pratiquer ou même d'étudier les *arts mécaniques*, c'était s'abaisser à des choses dont la recherche est laborieuse, la méditation ignoble, l'exposition difficile, le commerce déshonorant, le nombre inépuisable". (3)

Diderot traite ceux qui rabaissent le travail manuel de raisonneurs orgueilleux, de "contempleteurs inutiles" et, élevant le ton, de "petits

(1) Article "Encyclopédie", p. 436.

(2) *Ibid.*, p. 440.

(3) Article "ART", T. XIII, p. 361.

soit étendu jusqu'aux termes particuliers, qui seront comme les feuilles et la chevelure de l'arbre". (1)

Les branches particulières de l'arbre seront reliées par des renvois qui entrelacent la branche au tronc. L'enchaînement encyclopédique devient ainsi une circonscription sévère qui marque les limites d'une matière, comme la méthode géométrique, et forme un ensemble serré, aussi lié et aussi continu que la géométrie.

Dans son article "Encyclopédie", Diderot examine attentivement les problèmes de la langue. Il y a un lien étroit entre l'importance qu'il accorde à cette dernière et sa propre conception de l'*Encyclopédie* considérée comme un moment présent, transmettant à la postérité les connaissances du passé et du présent — conception dont nous avons déjà parlé. Comme les Encyclopédistes veulent mettre à l'abri les connaissances des siècles passés et les faire passer aux générations futures, il faut que la langue soit "fixée et transmise à la postérité dans toute sa perfection", (2) sinon ces mêmes connaissances risquent de rester incertaines. Diderot rattache ensuite le vocabulaire aux connaissances et à l'idée de progrès :

"La langue d'un peuple donne son vocabulaire, et le vocabulaire est une table assez fidèle de toutes les connaissances de ce peuple : sur la seule comparaison du vocabulaire d'une nation en différents temps, on se formerait une idée de ses progrès".(3).

En fin de compte, la langue devient une arme dans le but révolutionnaire des Encyclopédistes. Puisque l'*Encyclopédie* veut tout examiner, tout remuer et, par conséquent, changer la façon commune de penser, il est absolument nécessaire qu'elle emploie les mots appropriés et qu'elle nomme avec précision toute chose, pour mieux la saisir et aussi pour saisir les relations entre les choses. Aussi Diderot voudrait qu'on se serve avec discernement de toutes les expressions consacrées aussi bien à la peinture, à l'architecture, à la sculpture qu'aux belles-lettres. La terminologie joue, de la sorte, un rôle essentiel

(1) Article "Encyclopédie", p. 457.

(2) *Ibid.* :, p. 429.

(3) *Ibid.*, p. 430.

La conception de la nature comme un tout est une idée cartésienne. Dans les *Regles pour la Direction de l'Esprit*, Descartes dit :

“Il faut bien se convaincre que toutes les sciences sont tellement liées ensemble qu'il est plus facile de les apprendre toutes à la fois que d'en isoler une des autres”.

Diderot insiste sur l'importance de l'ordre encyclopédique qui permet de passer imperceptiblement d'une science à une autre. La liaison entre les différentes branches de la connaissance doit rester étroite et même indissoluble. Diderot distingue nettement ce qui sépare l'*Encyclopédie* d'un Dictionnaire :

“Un article omis dans un Dictionnaire commun, le rend imparfait. Dans une *Encyclopédie*, il rompt l'enchaînement et nuit à la forme et au fond”.(2).

Dans l'ordre encyclopédique, comment Diderot entend-il l'ordonnance à la fois générale et particulière des matériaux qui constituent une *Encyclopédie* ? Comment, par exemple, détermine-t-il l'étendue relative des différentes parties ?

“Il faut admettre sans exception”, —dit-il—“out ce qu'une science comprend : abandonner chaque matière à elle-même, et ne lui prescrire d'autres limites que celles de son objet”. (3).

Dans quel ordre faut-il exposer la distribution particulière à chaque partie ? C'est un ordre qui n'est pas entièrement arbitraire, car les racines de “l'arbre” en seront les premiers principes :

“Il faut que cet arbre se ramifie le plus qu'il sera possible; qu'il parte de l'objet général comme d'un tronc; qu'il s'élève d'abord aux grandes branches ou premières divisions; qu'il passe de ces maîtresses branches à de moindres rameaux, et ainsi de suite, jusqu'à ce qu'il se

(1) Descartes, *Regulae ad directionem ingenii*, éd. et trad. G. Le Roy Paris, p. 7.

(2) *Prospectus*, p. 5.

(3) Article *Encyclopédie*”, p. 455.

“de rassembler les connaissances éparses sur la terre; d'en exposer le système général aux hommes avec qui nous vivons et de le transmettre aux hommes qui viendront après nous, afin que les travaux des siècles passés n'aient pas été des travaux inutiles pour les siècles qui viendront”.(1)

C'est à la postérité que les Encyclopédistes transmettront les sciences et les arts :

“Qu'elle (la postérité) dise à l'ouverture de notre dictionnaire; Tel était alors l'état des sciences et des beaux-arts; qu'elle ajoute ses découvertes à celles que nous avons enregistrées... Que l'Encyclopédie devienne un sanctuaire où les connaissances des hommes soient à l'abri des temps et des révolutions”. (2)

Diderot ajoute avec orgueil que lui et ses collègues seront flattés d'avoir posé les fondements de cette oeuvre. Il considère le présent comme un moment qui passe, aussi faut-il

“se résoudre à ne travailler que pour les générations futures, parce que le moment où nous existons passe, et qu'à peine une grande entreprise sera-t-elle achevée, que la génération présente ne sera plus”. (3).

On retrouve cette même perspective temporelle dans les lettres que Diderot adresse au sculpteur Falconet. (4)

Diderot se propose de faire sentir, dans son *Encyclopédie*, les secours mutuels que les sciences se prêtent, d'indiquer toutes les liaisons qui se trouvent dans la nature et de

“montrer, par l'enchaînement des racines et par celui des branches, l'impossibilité de bien connaître quelques parties de ce tout, sans remonter ou descendre à beaucoup d'autres”. (5)

(1) *Ibid.*, p. 415.

(2) *Prospectus*, p. 4.

(3) *Ibid.*, p. 5.

(4) Cf. *Oeuvres Complètes*, T. XVIII, pp. 97 — 98.

(5) *Prospectus*, p. 1.

sera opérante pour assurer et favoriser la vie de l'homme". (1)

Diderot a placé en tête du premier volume de l'*Encyclopedie* l'arbre des connaissances humaines de Bacon. Dans quelle mesure s'est-il inspiré des principes du philosophe anglais ?

L'*Encyclopédie*, au dire de Diderot, "ne pouvait être que la tentative d'un siècle philosophe" qui, seul, était capable de tenter un ouvrage exigeant "plus de hardiesse dans l'esprit qu'on n'en a communément dans les siècles pusillanimes de goût" et "ce siècle était arrivé". (2) Diderot veut faire l'inventaire du connu. Aussi se donne-t-il comme tâche de "tout examiner, tout remuer sans exception et sans ménagement". (3) L'*Encyclopédie* est ainsi conçue comme une histoire critique et explicative qui compare les opinions, balance les raisons, propose des moyens de douter ou de sortir du doute, détruit les erreurs et les préjugés, foule aux pieds les vieilles puérilités. C'est un rôle que Bacon ne lui avait point assigné. Comme l'*Encyclopédie* doit suppléer à toutes les branches de la connaissance humaine, elle ne s'exécutera, selon Diderot, "que par une société de gens de lettres et d'artistes épars, occupés chacun de sa partie". (4) Avant l'*Encyclopedie*, il y avait déjà en Europe, sans aucun doute, des précurseurs de l'âge des lumières, qui cherchaient à répandre les connaissances. Mais le point important de la conception de Diderot, c'est l'idée de l'organisation d'un groupe de penseurs, groupe anonyme, chargé d'influencer l'opinion publique.

Diderot, à l'opposé de Bacon, s'intéresse autant à l'avenir qu'au passé. Il cherche à les relier. Il conçoit l'*Encyclopédie* comme un moment présent qui offre à la postérité les connaissances du passé et du présent. En effet, quel est le but de l'*Encyclopedie* ? C'est, dit Diderot,

(1) "The use of history mechanical is of all others the most radical and fundamental towards natural philosophy; such natural philosophy as shall not vanish in the fume of subtle, sublime or delectable speculation but such as shall be operative to the endowment and benefice of man's life", *Advancement of Learning*, pp. 332 — 333.

(2) *Op. cit.*, Article "Encyclopédie", T.XIV. p. 474.

(3) *Ibid* : p. 473.

(4) Article "Encyclopédie", p. 420.

différente. A la science des axiomes, Bacon réserve le nom de "philosophie première", à celle des causes, celui de "métaphysique", et à celle de Dieu, celui de "théologie". Les axiomes baconiens sont des notions assez universelles pour s'appliquer également aux choses divines, humaines et naturelles.

Selon Bacon, la philosophie première fera, d'autre part, des recherches sur les conditions adventices des êtres, sur "le peu" et "le beaucoup", "le semblable" et "le divers", "le possible" et "l'impossible". Il ne s'agit pas d'une liste de catégories comme dans la philosophie traditionnelle, car Bacon déclare que ces questions doivent être traitées "comme étant efficaces dans la nature, et non logiquement", (1) c'est-à-dire d'après la méthode de la physique et non d'après les procédés de la logique. Sans se préoccuper de définir "le peu" et "le beaucoup", "le semblable" et "le divers", il s'agit d'expliquer pourquoi dans la nature, certaines choses sont en si grande abondance et d'autres, en si petite quantité. La physique occupe une place privilégiée dans la classification baconienne des connaissances. Quant aux mathématiques, elles deviennent les humbles servantes de la physique.

Notons d'autre part l'intérêt que Bacon porte aux arts mécaniques dont il dresse une liste qui fait penser, par avance, à l'*Encyclopedie* de Diderot. Il observe la nature modifiée et transformée par la main de l'homme. Il admire tous ceux qui enchaînent la nature, la soumettent à leur joug et lui imposent la production d'oeuvres qui n'eussent jamais été créées sans leur intervention. Bacon considère que l'étude des arts mécaniques permet seule d'arracher les masques, de lever le voile qui couvre les choses. Il ne sépare pas cette étude des simples techniques et de celle de toutes les pratiques et recettes que présente l'expérience la plus courante et qui ne relèvent pas d'un art constitué. Il préconise l'étude des sciences efficaces et utiles :

"L'emploi de l'histoire des arts mécaniques, parmi toutes les autres sciences, est la plus radicale et la plus fondamentale pour la philosophie naturelle; une philosophie naturelle qui ne devrait pas s'évanouir dans les fumées de la spéculation subtile, sublime et delectable, mais qui

(1) "as they have efficacy in nature, and not logically", in *Advancement of Learning* Vol. III, pp. 366 — 367.

besoin de la géométrie pour fortifier une place; mais je veux dire cet emploi direct au moyen d'éclaircissements et d'informations que les exemples particuliers à une science présentent, pour encadrer et corriger les axiomes d'une autre, dans leur vérité profonde et leur notion même".(1).

Ainsi se crée une interaction d'une science à l'autre. Bien plus, Bacon voudrait désigner une science qui fût le réservoir des axiomes communs à plusieurs sciences, car il constate que la nature a imprimé des caractères absolument identiques à différentes matières. A son dire, il ne faut pas que les divisions de sciences soient comme des lignes qui coïncident en un seul point, mais plutôt comme des branches d'un arbre, qui se réunissent en un seul tronc. C'est pourquoi une science universelle, une "Philosophia Prima", mère de toutes les sciences, est nécessaire. Bacon insiste, à la fois, sur l'idée d'unité et sur celle de continuité :

"Et généralement que ceci soit une règle, que l'on accepte toutes les répartitions des connaissances plutôt comme des lignes et des veines que des sections et des opérations; et que l'on préserve la continuation et l'intégralité des connaissances, car le contraire a rendu certaines sciences stériles, superficielles et fausses, quand la fontaine commune ne les a pas nourries et maintenues"(2).

Chez Aristote, la philosophie première ou métaphysique était à la fois science des axiomes, science des causes et science de Dieu. On retrouve tous ces éléments chez Bacon, mais disposés d'une manière

(1) "For I mean that use which one science hath of another for ornament or help in practice, as the orator has of knowledge of affections for moving, or as military science may have use of geometry for fortifications, but I mean it directly of that use by way of supply of light and information which the particulars and instances of one science yield and present for the framing and correcting of the axioms of another science in their very truth and notion". in *Interpretation of Nature*, Vol. III, p. 228.

(2) "And generally let this be a rule, that all partitions of knowledge be accepted rather for lines and veins, than for sections and operations; and that the continuance and entireness of knowledge be preserved. For the contrary hath made particular sciences to become barren, shallow and erroneous, while they have not been nourished and maintained from the common fountain", in *Advancement of Learning*, Vol. III, P. 357.

“Dans certaines sciences, nous voyons que si les hommes se mettent à subdiviser leur travail, pour être un oculiste en médecine ou un avocat parfait dans une branche du droit, ou les cas similaires, ils pourront se montrer habiles ou subtils, mais ils ne seront ni profonds ni suffisamment préparés dans le sujet auquel ils s’appliquent particulièrement, à cause de cet accord qui rattache leur sujet au reste. Et c’est dissenter sur la chaîne des sciences que de montrer comment ces dernières se lient les unes aux autres. puisque les Grecs, qui avaient des mots à volonté, l’ont pourvue du nom de *Cercle des Connaissances*”. (1).

Bacon se propose de réorganiser ce cercle des connaissances et de le reconstruire, en fondant sa classification sur la distinction des facultés mises en oeuvre par les principales disciplines :

“Les différentes parties des connaissances humaines se rapportent à trois parties de l’Entendement de l’Homme, qui est le centre intellectuel : L’Histoire à sa Mémoire, la poésie à son Imagination et la Philosophie à sa Raison”.(2).

Bacon ne conçoit pas le cercle des connaissances de la même façon que les Grecs et Cicéron :

“Car je ne veux pas dire cet usage qu’une science fait d’une autre pour orner et seconder sa pratique, comme l’orateur emploie sa connaissance des émotions pour toucher le public ou comme la science militaire peut avoir

(1) “In particular sciences we see that if men fall to subdivide their labour, as to be an oculist in physic, or to perfect in some one title of the law, or the like, they may prove ready and subtle, but not deep and sufficient, not in that subject which they do particularly attend; because of that consent which it has with the rest. And it is a matter of discourse of the chain of sciences how they are linked together, inasmuch as the Grecians who had terms at will, have fitted it of a name of *Circle Learning*”, in Bacon, *Interpretation of Nature*, Vol. III, p. 228.

(2) “The parts of human learning have reference to the three parts of Man’s Understanding, which is the seat of learning : History to his Memory, Poetry to his Imagination and Philosophy to his Reason”, in *Of Proficiency and Advancement of Learning*, Vol. III, p. 329.

Ces autres arts que l'élève doit apprendre, avant la rhétorique, sont la musique, la géométrie et le théâtre. Selon Quintilien, un orateur n'est parfait que s'il a une culture générale. Il veut d'autre part rattacher la philosophie à la rhétorique, en enrichissant cette dernière de toutes les connaissances auxquelles les philosophes font appel, en habituant l'élève à se servir des procédés de discussion qu'emploient les philosophes. De même Cicéron affirme, dans *De Oratore*, que l'on ne saurait être éloquent, sans être philosophe, car la philosophie prête un appui fort utile à la rhétorique.

Mais avant Francis Bacon, personne n'avait parlé avec autant d'éloquence de la valeur de la connaissance et de la dignité des sciences. Le titre même d'un de ses ouvrages est fort significatif : *De Dignitate et Augmentis Scientiarum*. Pour indiquer les moyens de faire avancer les sciences, Bacon passe en revue les diverses branches des connaissances humaines. C'est un classement des sciences, destiné à indiquer celles qui manquent encore :

“J'essaierai maintenant d'examiner les connaissances d'une manière générale et fidèle en cherchant les parties nouvelles que l'industrie de l'homme n'a point améliorées et converties, afin qu'un tel domaine, tracé et enregistré par la mémoire, serve à la fois à éclaircir toute désignation publique d'un mot et à susciter de nouvelles tentatives de recherches”. (1).

Bacon s'intéresse à l'avenir plus qu'au passé. Il s'agit pour lui de préciser les lacunes afin de les combler.

Comme Quintilien, Bacon considère que, pour être compétent dans une science particulière, il faut être versé en d'autres sciences, car tout se tient :

(1) “I will now attempt to make a general and faithful perambulation of learning, with an enquiry what parts lie fresh and waste, and not improved and converted by the industry of man, to the end that such a plot made and recorded to memory both minister light to any public designation, and also serve to excite endeavors”. in Francis Bacon, *Works*, ed. James Spedding, London, 1870, *Of Proficiency and Advancement of Learning*. Vol. III, p. 228.

LA CONCEPTION DE L'IDEE DE L'ENCYCLOPEDIE CHEZ BACON, DIDEROT ET D'ALEMBERT

Docteur DAWLAT EL ARAB

Diderot définit l'*Encyclopedie* au début du *Prospectus* et de l'article "Encyclopédie" :

"Ce mot signifie *enchaînement des sciences*; il est composé de la préposition grecque "ag", "*en*, et des substantifs "kuklos", *cercle*, et "paideia", *institution, science, connaissances*" (1).

L'emploi de "kuklos" au singulier, au lieu de "kukloi" au pluriel, soulignant l'idée de rassembler en un seul cycle toutes les connaissances humaines, se trouve, pour la première fois, chez Quintilien dans *De Institutione Oratoria*, traité de rhétorique et d'éducation. Dans le premier Livre de son ouvrage, Quintilien examine les notions élémentaires, utiles à la formation d'un orateur. En ce qui concerne les études proprement dites, il recommande de débiter par la langue grecque que la latine doit suivre à court intervalle. Quand l'enfant saura lire et écrire, on le mettra entre les mains des grammairiens. Après l'analyse des études grammairiennes, Quintilien ajoute :

"Maintenant les autres arts dont je suis d'avis qu'on instruisse les enfants avant de les mettre entre les mains des rhéteurs, afin de faire ce cercle de doctrines — ou sciences-que les Grecs nomment Encyclopédie"(2).

(1) *Prospectus*, paru en 1750, daté de 1751, p. 1 et *Oeuvres Complètes*, éd. Assézat et Tournoux, Paris, 1875—1877, T. XIX, pp. 414—415.

(2) "Nunc de ceteris artibus, quibus instituendos, priusquam rhetori tradantur, pueros existimo, strictam subjugam, ut efficiatur orbis ille doctrinae quem Graeci *agkulkos paideia* vocant", in Quintilien, *De Institutione Oratoria*, éd. Fierville, Paris, 1890, T. I, pp. 128—129.

comme nous l'avons déjà démontré, est antimanichéen et que la volonté de puissance de Ferral équivalait au rêve de déité de Kyo, cependant, la distinction est sensible entre le triomphe de Kyo, de Katow et de Hemmerich et l'échec de Tchen, de Ferral et de Clappique, Car les héros positifs du roman tentent de dominer la Condition humaine au lieu de la subir. Cette tension permanente entre l'Homme et le destin témoigne de l'humanisme tragique de Malraux. Et Pierre de Boisdeffre déclare avec juste raison :

"Malraux a su exprimer les fatalités de notre temps; mais il ne les a pas résolus. Son humanisme reste voué au désespoir s'il ne s'ouvre pas vers des vérités plus hautes"(1).

Or Malraux refuse de chercher sa vérité en Dieu. Ses héros, incapables de la trouver dans un monde qui ne saurait la leur donner, sont contraints de la trouver en eux-mêmes dans cette "part divine" qu'ils recèlent.(2).

Nous nous rallions pour notre part aux études faites d'un point de vue religieux, celles de Joseph Hoffmann et de Pierre de Boisdeffre, et nous concluons avec ce dernier que si Malraux n'est pas parvenu à "relier l'homme à l'infini"(3) c'est parce qu'il persiste à refuser l'existence de Dieu. Il divinise l'Homme et l'Histoire mais ne les accorde jamais. Pour que l'Homme se réconcilie avec son destin, il faut tout d'abord qu'il s'y soumette. Or, selon Malraux, le destin est une fatalité aveugle, alors que le croyant, au contraire, fonde sa vocation sur "la perspective d'un salut commun"(4).

1. Pierre de Boisdeffre, *Andre Malraux*, Editions universitaires (classiques du XX^e siècle). 1952. p. 119.

2. J. Hoffmann op.cit., pp. 369, 370.

3,4. Pierre de Boisdeffre, op. cit., pp. 118 — 119.

lorsque l'auteur écrit " Résurrection ! (1) cela signifie : "cyanure".

CONCLUSION

Au terme de notre étude sur *la Condition humaine*, nous sommes amenés à conclure que ce roman de Malraux, comme toute son oeuvre, est essentiellement "humaniste". L'homme en est le personnage central, et tous ses écrits tendent à répondre à cette question fondamentale :

"Ecrivain, par quoi suis-je obsédé depuis dix ans, sinon par l'homme ? "(2).

En effet, tous les écrits de Malraux consistent à exprimer le tragique de la condition humaine et les fatalités de notre temps. Mais ce romancier qui a pleinement pris conscience des problèmes de l'homme les a-t-il résolus ?

La critique existentialiste oppose l'oeuvre de Malraux à celle de Jean-Paul Sartre et elle s'efforce de démontrer la cohérence de la philosophie sartrienne et l'indétermination de celle de Malraux. Selon Jeanne Delhomme, alors que la pensée de Sartre „progressse de la contingence originelle à l'action libératrice, du non-sens à la signification, de l'existence à l'essence, la réflexion d'André Malraux suit le chemin inverse, — des voix du monde aux voix du silence, de l'absurdité de l'existence à l'incertitude première de l'être" (3). Et J. Delhomme poursuit qu'il n'y a pas chez Malraux "de hiérarchies de destin" "pas de hiérarchies des attitudes " et "pas de hiérarchies des actions" (4). Le monde d'oubli de Gisors est aussi valable que la recherche de l'Instant de Tchen, et Clappique "tient" en face de Kyo. C'est pourquoi les romans de Malraux sont "sans solution objective ou éthique"(5) car leur auteur "ne privilégie rien, ni personne". Et la critique existentialiste déplore qu'il n'y ait pas de réponse à l'interrogation métaphysique de Malraux si ce n'est l'angoisse de l'homme en proie au destin.

Toutefois nous devons reconnaître que ce point de vue existentialiste est trop catégorique et trop excessif. Il est vrai que le romancier,

1. p. 259.

2. André Malraux, *Les Noyers de l'Altenburg* p. 29.

3. J. Delhomme, op. cit., p. 245.

4. Ibid., p. 246.

5. Cf. J. Delhomme op. cit., p. 247 et p. 262.

surabondance de sifflets, de sirènes, de klaxons, de coups de canons, de salves, de sonneries du téléphone, de cris humains de douleur résonnent comme les voix du destin. Tous ces sons se détachent immanquablement sur un fond silencieux.

Dès la première page du roman, ce contraste est nettement marqué "quatre ou cinq klaxons grincèrent à la fois" (1). Puis "la vague de vacarme retomba"(2) et la scène se déroule dans un silece stupéfiant.

Cette alternance constante de monotonie et de frénésie caractérise tout le roman et lui donne son rythme haletant et saccadé. La contradiction est encore plus frappante lorsqu'elle est soulignée à l'intérieur d'une même phrase :

"Le silence — la foule chinoise est d'ordinaire une des plus bruyantes — annonçait une fin du monde(3).

Et ailleurs : "Dans le silence commencèrent à tinter des notes de guitare"(4).

Pour terminer cette bipartition que nous pourrions poursuivre très longuement, notons les nombreux contrastes qui existent au niveau du style. Car la dualité qui caractérise le fond, se répercute sur la forme et l'antagonisme des thèmes se reflète sur la composition dichotomique du roman. Signalons les nombreuses notations binaires qui scandent les pages du roman : "Abandon et silence"(5); „Solitude et humiliation totales"(6) "Silence, sauf la douleur"(7). Notons aussi les nombreuses antithèses toujours très riches de sens : "Kyo mourait parmi ceux avec qui il aurait voulu vivre"(8). May devant le cadavre de son mari, lui dit: "ma vie..."(9); "il y avait d'abord la solitude, la solitude immuable derrière la multitude mortelle"(10); Katow "se sentait rejeté à une solitude d'autant plus forte et douloureuse qu'il était entouré des siens"(11) et

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 9.

2. Loc. cit.

3. Ibid., p. 77.

4. Ibid., p. 163.

5. Ibid., p. 15.

6. Ibid., p. 238.

7. Ibid., p. 252.

8. Ibid., p. 256.

9. Ibid., p. 262.

10. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 49.

11. Ibid., p. 257.

maisons floues”(2); “les lumières troubles des villes de brume”(1). L’atmosphère brumeuse est quasi permanente et s’adapte parfaitement aux circonstances : “le ciel jaunâtre et chargé de brume rendait blêmes” (3) Tchen et ses deux camarades qui venaient de manquer leur attentat contre Chang-Kaï-Shek. Et plus loin : “le ciel était gris il régnait là une lumière plombée comme celle qui précède les orages” (4). Phrase à double tranchant, car c’est précisément à ce moment que Tchen prend la résolution de commettre un attentat-suicide.

En contraste avec cet éclairage tamisé, confus et toujours sinistre, la brutalité des éclairages sera toujours significative. Lorsque les révolutionnaires s’apprêtent à attaquer le vaisseau shan-Tung, ils risquent d’être repérés par des croiseurs :

“les faisceaux des projecteurs ramenés à toute volée du ciel sur le port confus se croisaient comme des sabres”(5)

Il importe également de souligner l’importance du soleil qui apparaît si rarement dans le roman. Il signifie la victoire des insurgés; mais une victoire “provisoire” qui ne durera que le temps de cette éclaircie :

“La rue s’emplit de soleil (...) Kyo regardait confusément le trottoir qui brillait sous le soleil provisoire” (6)

Enfin le dernier éclairage est capital :

“(Gisors) contemplait la baie magnifique, saturée du soleil”(7).

Ainsi, ce roman brumeux et souvent ténébreux se termine sur une note lumineuse et laisse entrevoir une lueur “d’espoir”.

De même que l’éclairage du roman de Malraux est une alternance d’obscurité et de lumière, signalons également la succession des bruits et des silences qui ne valent également que par contraste. La

1. Ibid., p. 149.

2. Ibid., p. 197.

3. Ibid., p. 150.

4. Ibid., p. 156.

5. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 63.

6. Ibid., p. 108.

7. Ibid., p. 284.

la nuit "s'immobilisa et, dans la déchirure des nuages, des étoiles s'établirent"(1).

Nous pourrions poursuivre cette étude à l'infini ... Mais nous nous contenterons de signaler les exemples qui, à notre avis, sont les plus révélateurs de ce génie du contaste.

Lorsque Malraux nous présente pour la première fois Kyo, métis de mère japonaise et de père français, l'auteur souligne, grâce à l'éclairage, les caractéristiques de ces deux races qui se partagent le visage du héros.

"La porte refermée fit osciller la lampe (...) en passant au-dessus de sa tête, la lampe marqua fortement les coins tombants de sa bouche d'estampe japonaise; en s'éloignant elle déplaça les ombres et ce visage de métis parut presque européen. Les oscillations de la lampe devinrent de plus en plus courtes : les deux visages de Kyo reparurent tour à tour, de moins en moins différents l'un de l'autre"(2).

Peinture si prenante qu'elle ne va pas sans nous donner une impression de vertige.

Signalons toutefois la prédominance de l'obscurité. Presque toutes les scènes se déroulent dans l'ombre et nous devinons la présence des personnages bien plus que nous ne les voyons :

"cet ami à peine visible"(3); "des visages à peine visibles dans l'ombre"(4)"l'ombre ne permettait pas de voir l'expression des visages"(5); l'ombre de Tchen" se détachait confusément"(6). A peine si ses deux camarades le voyaient encore, l'auteur ajoute une courte phrase qui dit bien plus qu'un long développement :

"et, pourtant il emplissait la pièce"(7)

Le décor est toujours aussi estompé que les personnages : "des

1. Loc. cit.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 16.

3. Ibid., p. 129.

4. Ibid., p. 132.

5. Ibid., p. 133.

6. Ibid., p. 157

7. Loc. cit.

n'importe quelle oeuvre romanesque. Et *l'Espoir* est un livre tour à tour ocre, vert sombre et rouge sang"(1)

En effet, dans *La Condition humaine*, ce qui frappe avant tout le lecteur, c'est ce contraste systématique de lumière violente, souvent même éblouissante, et de clair-obscur sur lequel se profilent des ombres chinoises.

Dès la première scène du roman, l'auteur dépeint "un corps moins visible qu'une ombre"(2), et comme seule lumière "un grand rectangle d'électricité pâle"(3). Mais une fois ces premières indications données, l'auteur les reprend plusieurs fois par la suite, au cours du même chapitre en insistant à chaque fois sur le contraste clarté-obscurité : "rectangle de lumière, immobile(s) dans cette nuit" (4); il fallait (...) entrer dans la lumière, laisser passer sur le lit son ombre trapue" (5)' "le sang (...) noir dans cette fausse lumière"(6).

Même pour l'expression des sentiments, le romancier a recours à des métaphores empruntées au domaine de l'éclairage :

"cette nuit écrasée d'angoisse n'était que clarté"(7).

Après le meurtre, la luminosité de la pièce se modifie et le nouvel éclairage est parfaitement conforme au bouleversement profond de Tchen "dans la lumière immobile et trouble" (8).

D'autres images sont plus significatives encore :

"Secouée par son angoisse, la nuit bouillonnait comme une énorme fumée noire pleine d'étincelles"(9).

Et au furet à mesure que la respiration haletante de Tchen s'apaise,

1. Gaetan Picon, "Liberté de l'Esprit" avril et mai 1949. Ce texte a été repris dans *L'Usage de la lecture*, Mercure de France, 1960.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 9.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 9.

4. Loc. cit.

5. Ibid., p. 10.

6. Ibid., p. 11.

7. Ibid., p. 10.

8. Ibid., p. 12.

9. Loc. cit.

“Quand je suis allé en Europe, j’ai vu les musées. Plus vos peintre font des pommes, et même des lignes qui ne représentent pas des choses, plus ils parlent d’eux. Pour moi, c’est le monde qui compte”(1).

Mais c’est surtout à Gisors que l’auteur prête “son sens si pur de l’art”(2). Lorsque le vieux philosophe regarde Tchen dont le nez est très écrasé”mais avec une légère arête, comme un bec”(3),il se souvient “d’un épervier, de bronze égyptien, dont Kyo avait conservé la photo par sympathie pour Tchen”(4).

Les assimilations aux oeuvres d’art sont nombreuses dans le roman : “la Chine rongée par le sang comme ses bronzes à sacrifices”(5) Un sous-officier chinois a “tous les traits du visage en longueur et le corps légèrement courbé en avant, comme les personnages en ivoire qui épousent la courbe des défenses”(6). Une solide servante blonde fait penser Clappique à “un Rubens (...) mais pas parfait” (7).

Ainsi, Malraux annonce, dès *la Condition humaine* sa célèbre conception de l’art qui est, pour lui un “antidestin”au même titre que l’héroïsme, que les révolutions libératrices et fraternelles. Il affirmera par la suite que c’est le plus haut moyen de l’homme de se dépasser lui-même, sans violence, en appelant la communion avec chacun dans une création inlassable.

Ce grand artiste est doué d’une sensibilité aigue aux jeux de lumière. Gaetan Picon a noté son regard merveilleusement attentif au langage des couleurs :

“Chacun de ses livres a une couleur, un éclairage. Il y a une tonalité des *Conquerants*. qui n’est pas celle de *la Voie Royale*. *La Condition humaine* nous laisse le souvenir d’un heurt tragique d’ombres et de lumières qui l’apparente aux *Desastres de la guerre* de Goya plus qu’à

1. Ibid., p. 161.

2. Ibid., p. 60.

3. Ibid., p. 14.

4. Ibid., p. 51.

5. Loc. cit.

6. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 135.

7. Ibid., p. 208.

Cette harmonie parfaite entre les sexes commande les rapports du peintre japonais Kama et de sa femme(1). Toutefois, Malraux, qui semble faire ici l'apologie du couple oriental, est parfaitement conscient de certains excès contraires. May dénonce l'asservissement des femmes chinoises et rapporte chaque soir des suicides de fiancées. Une pauvre jeune fille qui avait essayé de se tuer avec une lame de rasoir dans le palanquin du mariage a été sauvée de justesse. Lorsque la mère apprend que sa fille ne mourra pas, elle s'écrie :

"Pauvre petite ! Elle avait pourtant eu presque la chance de mourir"(2).

Réflexion qui en dit long sur la condition des femmes de l'époque.

Ce contraste entre l'Orient et l'Occident est surtout très manifeste dans le domaine des sensations, Malraux s'avère par là un peintre puissant de l'exotisme. Il excelle dans la reproduction du pittoresque et dans l'évocation des caractéristiques de la Chine qu'il a si bien connue. Ce romancier, dont le sens olfactif est aussi aigu que celui de Baudelaire et de Proust, distingue les odeurs spécifiques de l'Asie de de l'Europe. Kyo évoque les "steppes de lavande brûlée"(3) et hume à Han-Kéou" les odeurs camphrées de la nuit, le parfum des vergers"(4). Quant à Clappique qui est contraint de quitter l'Asie et qui appréhende de rentrer en Europe, c'est par l'odorat qu'il se remémore en tout premier lieu ce continent :

"Le parfum des buis et des fusains mouillés monta du jardin.

Ce parfum amer c'était l'Europe" (5).

Toutefois, il ne faut jamais perdre de vue en étudiant *la Condition humaine* que l'auteur, aussi profondément engagé qu'il soit dans les débats idéologiques, demeure avant tout, un grand artiste. Cet amateur d'art commente par la bouche du peintre japonais Kama la distinction entre l'individualisme de la peinture occidentale et l'universalisme de l'art d'extrême-orient.

1. Cf. Ibid., p. 162.

2. Ibid., p. 42.

3. Ibid., p. 12.

4. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 129.

5. Ibid., p. 202.

Signalons également l'un des thèmes majeurs de l'oeuvre de Malraux : l'antagonisme entre l'Orient et l'Occident. Malraux illustre cette opposition à travers l'angoisse du pasteur luthérien et son horreur de la civilisation rituelle de la Chine(1). Inversement, l'oncle de Tchen, un confucianiste, met en garde son neveu contre l'enseignement des missionnaires et surtout contre l'idée de l'enfer dont il se méfiait. A l'inquiétude intense du pasteur, que ce dernier essaye de vaincre par la charité, Malraux oppose la sérénité et la sagesse des penseurs de l'Orient.

Dans *La Condition humaine*, c'est Gisors, le vieux philosophe français, qui incarne cette mystique chinoise. Car le romancier veut souligner par là ce que la confrontation de deux civilisations en lutte peut faire naître en un homme. Pour Gisors, l'opium est le moyen d'atteindre ce détachement de soi et cette communion avec l'univers qui est l'essence même de la sagesse orientale.

“Il Regardait les êtres avec bienveillance et le monde comme une infinité de possibles”(2).

Cette séparation notoire entre l'Orient et l'Occident s'affirme constamment dans le roman de Malraux. En amour, comme dans tous les autres domaines, la distinction est frappante. La soumission traditionnelle de la femme orientale s'oppose à la révolte de Valérie contre l'esprit de domination de Ferral. “L'amour intellectuel et ravagé”(3) qui unit May et Kyo, même après la mort de ce dernier, est totalement étranger à Gisors.

“Lui avait aimé une Japonaise parce qu'il aimait la tendresse, parce que l'amour à ses yeux n'était pas un conflit mais la contemplation confiante d'un visage aimé, l'incarnation de la plus sereine musique — une poignante douceur”(4).

1. Cf. Ibid., p. 57.

2. Ibid., p. 60.

3. A. Malraux. *La Condition humaine* p. 280.

4. Loc. cit.

s'entrechoquer pour composer de leurs divers tintements le sens de son livre, à dégager par le lecteur" (1).

De là l'extrême densité de l'oeuvre riche en contrastes. L'affrontement des deux grands antagonistes : l'Homme et le Destin, commande l'oeuvre tout entière et cette tension fondamentale constitue les deux grands pôles du roman.

Cette dichotomie se poursuit tout au long de *la Condition humaine* et s'exprime sur tous les plans. Le corps du roman est constitué par une antinomie profonde entre la Révolution et la contre-Révolution. Si l'on se place du point de vue de l'idéologie révolutionnaire, de l'effort de libération des masses chinoises auquel des héros comme Tchen, Kyo, Katow... ont consacré toutes leurs énergies, Clappique et surtout Ferral sont des ennemis. Ce dernier est un capitaliste un financier dont les intérêts puissants sont menacés par l'insurrection.

Nous avons déjà évoqué au cours de notre étude la contradiction entre les nombreux thèmes du roman. Le sentiment de l'incommunicabilité, de la solitude, de la séparation absolue des êtres, est compensé par l'amour que Kyo retrouve pour May et surtout par la communion solennelle des frères de combat. L'indignité et l'humiliation profondes qui avilissent et dégradent les êtres sont surmontées par la lutte pour l'affirmation de la dignité. D'autant plus bouleversante, par contraste, est la peinture de la révolte contre la dégradation de l'homme, d'autant plus violente et plus acharnée est leur confiance en un univers meilleur.

Cette bipartition qui existe au niveau des principaux thèmes, se retrouve également à un autre niveau, celui de la psychologie des personnages. La mythomanie de Clappique, ce moyen de nier l'existence et de réduire la réalité en nuée, s'oppose nettement à la quête d'absolu qui hante les héros du roman et à leur recherche de valeurs éternelles qui donneraient un sens à leur existence. Signalons également l'incompatibilité du monde de Kyo et celui de Ferral, l'antagonisme irréductible des idées de ce dernier et des conceptions de ceux du Kuomintang. Ce dualisme est aussi manifeste au sein même du camp des révolutionnaires. La simplicité du personnage de Kyo est le contrepied de la complexité de Tchen. Gisors prend conscience de l'opposition radicale de ces deux héros, il évoque leurs destinées respectives et les confronte (2).

1. Claude — Edmonde Magny, art. cit.

2. Cf. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 59.

C'est là une évidence irréfutable. Et Gisors de répondre par une vérité aussi irréfutable :

“Il est très rare qu'un homme puisse supporter comment dirai-je ? sa condition d'homme...” (1).

STRUCTURE BINAIRE DU ROMAN

L'ART DES CONTRASTES CHEZ A. MALRAUX

Dans l'introduction de son livre *Forme et Signification*, Jean Rousset écrit :

“Il n'y a de forme saisissable que là où se dessine un accord ou un rapport, une ligne de force, une figure obsédante, une trame de présences ou d'échos, un réseau de convergences; j'appellerai” structures “ces constantes formelles, ces liaisons qui trahissent un univers mental et que chaque artiste réinvente selon ses besoins”(2).

En partant de cette définition, nous avons étudié la structure binaire de *la Condition humaine* qui s'impose avec une telle évidence dans l'oeuvre de Malraux qu'elle apparaît comme une constante obsédante. Nous avons également tenu compte dans notre analyse de la méthode appliquée par Lucien Goldmann dans son étude des oeuvres de Malraux”.

“Une pareille étude supposerait en effet (...) la mise en lumière d'un certain nombre de structures significatives, susceptibles de rendre compte au moins en grande partie du contenu et du caractère formel de ses écrits”(3).

Il y a un parallélisme fondamental dans *la Condition humaine*. Nous avons déjà signalé cette alternance constante de la réflexion et de l'action.

“Certes il ne s'agit pas là d'un simple artifice, et la portée du roman se trouve accrue au-delà du simple récit par ce heurt des épisodes que l'auteur fait pour ainsi dire

1. Loc. cit.

2. Jean Rousset, *Forme et Signification*, Essais sur les structures littéraires de Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI — XII.

3. Lucien Goldmann, *Pour une sociologie du roman*, Gallimard, (Collection Idées) 1964 p. 1964. p. 61.

aucune existence propre. Ils ne figurent dans l'oeuvre qu'en fonction des héros auxquels ils s'opposent et n'ont d'autres rôles que celui de repoussoir.

Quant à Ferral qui appartient au camp adverse et qui combat les révolutionnaires, l'auteur le dépeint avec impartialité et objectivité. Malraux a même le mérite de juger avec bienveillance et compréhension ce personnage que, pourtant, il condamne.

Contrairement aux écrivains engagés contemporains, Malraux refuse de mépriser ou d'accabler l'ennemi. Alors que dans les romans d'Aragon, l'auteur prend fermement parti et oppose souvent des caricatures à des images d'Epinal, Malraux, en revanche, justifie Ferral et lui accorde certaines qualités : l'intégrité, le sens de l'action, la force de caractère(1). Si le manichéisme du microcosme d'Aragon est manifeste, tous les héros de Malraux sont, par contre, dépeints d'une manière séduisante qui les justifie. Car nul n'est plus antimanichéen que l'auteur de *la Condition humaine*. Dans *l'Espoir* il affirme :

“Le grand intellectuel est l'homme de la nuance, du degré, de la qualité, de la vérité en soi, de la complexité. Il est par définition, par essence, antimanichéen” (2).

Malraux prête à Ferral la même intelligence brillante qu'il attribue aux révolutionnaires. Lorsqu'un dialogue s'engage entre Ferral et Gisors, les points de vue contraires qu'ils échangent sont également valables. Si bien que l'on peut affirmer que ces conversations n'aboutissent jamais à une solution concluante, chacun des interlocuteurs restant à la fin sur ses positions. Claude — Edmonde Magny compare ces conversations aux scènes violentes et forcées de l'action :

“Des cliquetis de dialogues où des points de vue antagonistes, inconciliables, se croisent comme des épées (3).

Lorsque Ferral dit à Gisors :

“Ne trouvez-vous pas d'une stupidité caractéristique de de l'espèce humaine qu'un homme qui n'a qu'une vie puisse la perdre pour une idée ?”(4).

1. Cf. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 76.

2. Id., *L'Espoir* p. 279.

3. Claude — Edmonde Magny, “Malraux le fascinateur” *Esprit*, octobre 1946.

4. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 193.

est uniforme et toujours dans le même sens : tous luttent contre l'écrasement de l'homme. Cette "évidente monotonie" (1) s'explique aisément. Les personnages de Malraux ne sont en quelque sorte que la projection de la personnalité de l'auteur lui-même. Les caractéristiques de ce type de héros créé par Malraux en qui s'unissent "l'aptitude à l'action, la culture, la lucidité" (2) ne sont que les qualités foncières de l'auteur lui-même. C'est l'esprit de Malraux que nous retrouvons dans ses personnages et dans leurs conversations. Si ses héros se ressemblent tous entre eux, c'est parce qu'ils ont des traits qui appartiennent en propre à leur créateur. Ils ont ce goût de la réflexion dans l'action qui est le caractère dominant de Malraux.

Comme les créations romanesques de l'auteur ne sont que le reflet de lui-même, il ne dépeint, par suite, que les personnes qu'il est susceptible d'approuver ou qui ressentent des sentiments qu'il est capable d'éprouver. Car "Malraux comprend plus qu'il ne représente" (3). Une telle attitude interdit à l'auteur de composer des personnages qu'il désavoue ou qui lui sont totalement étrangers. Et, comme l'a clairement analysé Gaetan Picon, si Clappique, Gisors ou Ferral présentent certains aspects que l'auteur dénonce, Malraux ne les a si lucidement décrits que parce qu'il a lui-même connu à certains moments de son existence des sentiments communs : la mythomanie de Clappique, l'apaisement par l'opium de Gisors, le goût de l'action pour la puissance de Ferral. Car il y a toujours entre l'auteur et ses personnages l'invincible complicité du vrai créateur et de ses créatures : la compréhension.

Cette même compréhension, Malraux l'adoptera également à l'égard de ses contemporains. "Il n'a jamais signé qu'une critique de l'admiration" (4). Il n'a guère parlé que des auteurs qu'il estimait : Nietzsche, Laclos, Faulkner, Gide, Bernanos ...

Etant donné que Malraux se refuse de dépeindre des êtres qu'il ne saurait comprendre, l'ennemi, par suite, n'est jamais représenté. Tchen, Kyo, Katow, Hemmerlich... tous les révolutionnaires de la Condition humaine se débattent farouchement contre une entité abstraite, contre des ombres qui ne sont jamais nettement dépeintes. Les soldats de Chang — Kai — Shek et les tortionnaires de Kyo et de Katow n'ont

1. G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 49.

2. A. Malraux, *Les Conquerants*. Grasset 1928, Postface 1949.

3. G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 35.

4. Ibid., p. 30.

darité, fraternité virile des combattants qui luttent et souffrent pour l'affirmation de leur dignité.

On reproche également à Malraux les longs dialogues et les réflexions de ces héros qui épiloguent entre eux sur le sens de la Révolution et de la destinée, ainsi qu'une série de discours abstraits d'idéologues qui s'interrogent sur la valeur de leurs mobiles et de leurs actes.(1) Et Henry de Montherlant, qui admire pourtant l'intelligence et la profondeur de l'oeuvre de Malraux, confirme :

"A ces entretiens, je reprocherais plutôt de friser parfois l'invéraisemblance, Une armée d'intellectuels, comme dans ces pièces d'avant-guerre où tous les personnages sans exception avaient de l'esprit" (2).

Montherlant déplore que Malraux n'ait présenté dans son oeuvre qu'une humanité supérieure et qu'il ait négligé les inférieurs. Alors que dans la guerre, comme dans la vie, on ne choisit pas les êtres que l'on cotoie et, par suite, on rencontre inévitablement des "imbéciles" ou des compagnons qui ne partagent pas forcément les mêmes opinions que nous.

Ce commentaire de Montherlant rappelle sensiblement la célèbre remarque de Gide adressée à Malraux :

"Il n'y a pas d'imbéciles dans vos livres".

Et Malraux de répliquer :

"Je n'écris pas pour m'embêter. Quant aux idiots, la vie suffit"(3).

Aussi devons-nous reconnaître que *La Condition humaine* conformément à son titre, étudie profondément les questions les plus pressantes et les plus angoissantes qui se posent à l'homme, toutefois elle ne nous donne pas comme chez Balzac, Tolstoï ou Dickens par exemple, une représentation de la diversité humaine. Tous les personnages de Malraux sont d'une même trempe. "Tous se ressemblent par la même terrible passion et le même terrible désenchantement"(4). Leur choix

1. Cf. Louis Gillet, art. cit.

2. H.de Montherlant, op. cit.

3. Cité en marge du texte de G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 44..

4. Robert Brascillach, art. cit..

La scène célèbre du don du cyanure et celle des camarades de combat dans le préau de l'école demeurent le plus grand symbole du triomphe de la fraternité.

Contre l'incommunicabilité irréductible entre les êtres, Malraux dresse "la plus étroite complicité"(1) qui s'établit entre Kyo et May grâce à l'affirmation de leur amour. L'anxiété de Kyo due à son douloureux sentiment de méconnaître May est tempérée par cette affirmation:

Je ne la connais que dans la mesure où je l'aime (2).

Cette communion est bien plus émouvante lorsqu'elle cimenter l'unité des révolutionnaires. C'est à travers l'adhésion à un même idéal, à des sentiments identiques que Katow et Hemmelrich se rencontrent:

"Il faut que tu comprennes sans que je dise rien, dit (Katow). Il n'y a rien à dire"(3).

Toute l'œuvre de Malraux consiste à écrire "une légende du prolétariat" (4). La Révolution est l'occasion la plus prodigieuse de créer aux hommes des raisons héroïques de vivre, un système de valeurs capables de transformer et d'ennobler l'existence. Ce thème de la Révolution est un des plus riches de l'œuvre de Malraux. Car en lui tous les autres thèmes se rejoignent. Pour les insurgés de *la Condition humaine*, la Révolution est le moyen même de la libération de l'homme. C'est dans le combat que les héros seront affrontés aux diverses figures du destin : l'absurde, l'angoisse, le danger, la mort ... Ils devront, par suite, manifester leurs vertus humaines : la volonté, le courage, l'esprit de sacrifice : tels Kyo et Katow qui, pour le triomphe de leur cause, font avec simplicité le don de plus que leur vie.

Le grand mérite de l'auteur de *La Condition humaine* est d'avoir admirablement concilié l'action et l'intelligence, Débats idéologiques et combats violents alternent constamment. Si dans *les Conquérants* et *la Voie royale*, l'action décelait chez Malraux, une tension purement intellectuelle parfois nietzschéenne, dans *La Condition humaine* la pure action héroïque, quasi gratuite, s'humanise. Il ne s'agit plus d'agir pour agir. Les hautes valeurs morales animent tout le récit : volonté, soli-

1. Ibid., p. 50

2. Ibid., p. 51.

3. Ibid., p. 178.

4. Louis Gillet art. cit.

l'épouvante était là — pas la peur, la terreur, celle des bêtes, des hommes seuls devant l'inhumain"(1).

Et Kyo éprouve jusqu'à "l'envie de vomir l'humiliation que ressent tout homme devant un homme dont'il dépend"(2).

PERSONNAGES EXCEPTIONNELS

On a souvent reproché à Malraux le caractère exceptionnel de ses personnages. Sans doute ses héros nous apparaissent ils comme des hommes qui cherchent constamment à se dépasser eux-mêmes et qui, par l'exercice de leur liberté réussissent à se hausser au dessus de leur condition. Jean Guéhenno déclare à propos de *la Condition humaine* :

"Tous les personnages qui y paraissent sont de quelque manière exceptionnels, et l'on y apprend peut-être plutôt comment on devrait vivre que comment on vit"(3).

Joseph Hoffmann renchérit :

"Il reste qu'on pourra toujours se demander si le destin de ces héros n'est pas plus exceptionnel qu'exemplaire"(4)

Ce que Malraux veut exprimer dans ses œuvres ce sont la valeur et la grandeur possibles de l'homme et sa volonté d'instaurer une humanité meilleure. De là l'extrême densité de son œuvre riche en scènes d'héroïsme, et où foisonnent les exemples de générosité, de dévouement du culte de la fraternité... Toutes les grandes scènes de son œuvre sont bien, comme l'a dit Gaetan Picon "des apothéoses de la fraternité"(5) Alors que le sentiment de l'isolement individuel est un des plus grands drames de l'œuvre, la victoire de Kyo, de Katow, de Hemmelrich, de Pei, de May est dans leur solidarité avec le misérable peuple chinois. A l'action solitaire et à la mort quasiment vaine de Tchen l'auteur oppose le triomphe de l'héroïsme de Kyo :

"Mort saturée de ce chevrottement fraternel, assemblée de vaincus ou des multitudes reconnaîtraient leurs martyrs, légende sanglante dont se font les légendes dorées !"(6).

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 250.

2. Ibid., p. 236.

3. Jean Guéhenno, "Le Tragique et le quotidien", *Europe* 15 juin 1933.

4. J. Hoffmann, op. cit., p. 373.

5. G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 93.

6. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 256.

Pour le héros de *la Condition humaine*, comme pour Malraux, son choix politique est uniquement conditionné par la valeur morale qu'il prête à l'action révolutionnaire. Lutter dans le camp des insurgés ne signifie pour lui que "conquérir ici la dignité des siens"(1). Et toute l'oeuvre de Malraux n'est qu'un chant émouvant à la gloire de la dignité humaine.

"Sa vie avait un sens, et (Kyo) le connaissait : donner à chacun de ces hommes que la famine, en ce moment même, faisait mourir comme une peste lente, la possession de sa propre dignité"(2).

Ce terme, qui revient souvent sous la plume de l'auteur, scande presque chaque page du roman. Nous pouvons relever de nombreuses formules qui révèlent la primauté de ce Thème. Kyo dit aux ouvriers :

"Et crever pour crever, autant que ce soit pour devenir des hommes"(3).

Et le principe fondamental de Kyo est le suivant :

"Tout ce pourquoi les hommes acceptent de se faire tuer, au delà de l'intérêt tend plus ou moins confusément à justifier cette condition en la fondant en dignité"(4).

Pour mieux faire ressortir cette confiance de l'homme en l'homme, son aspiration à une existence meilleure, Malraux doit nous révéler, par contraste, l'écrasement et la détresse de tous ceux qui endurent l'ignominie humaine. Cette descente en enfer est indispensable à une meilleure compréhension de la vaste et irrépressible protestation des révolutionnaires contre les oppresseurs. La sordide laideur des prisons, la détresse des incarcérés, l'atroce abjection des êtres traqués, Malraux, au moyen de son art aigu, "nous en impose le spectacle jusqu'à la hantise"(5)

"Pourtant, de quelque façon qu'elle fût transmise,

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 42.

2. Ibid., p. 59.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 132.

4. Ibid., p. 193.

5. Rachel Bepaloff, *Cheminements et Carrefours*, Vrin, 1938.

gèrent résolument aux côtés des communistes. Ils participèrent aux grandes manifestations de l'époque, apportèrent leur prestige et leur influence au camp révolutionnaire et mirent parfois leur plume au service du P.C.F. Cette pléiade de grands écrivains, tout en étant sensible à l'attrait du communisme ne s'engagea qu'à pas mesurés et prudents dans cette voie et sans jamais adhérer officiellement au parti. Plusieurs même, (dont Malraux en 1939), abandonnèrent le parti en désaccord sur sa ligne de conduite et sur ses conceptions culturelles.

Il importe de signaler ici que l'oeuvre de Malraux, qui traite pourtant de la Révolution communiste en Chine, ne peut être aliénée par aucun parti ni de droite ni de gauche. Et son roman *les Conquérants* avait été interdit en Russie soviétique comme en Italie fasciste, c'est même ainsi que les Editions Grasset faisaient la publicité du livre. On pourrait appliquer à *la Condition humaine* cette réflexion de Louis Gillet sur *l'Espoir* :

"On est étonné dans ce livre d'inspiration communiste de l'absence totale des affaires, d'intérêt, des questions de salaires, bref de tout l'attirail de la pensée marxiste" (1).

Le personnage de Tchen est très explicite. Si ce jeune homme participe à l'action révolutionnaire, c'est pour des raisons purement personnelles. S'il entreprend de tuer Change Kaï Shek c'est parce que ce meurtre est absolument nécessaire pour *lui seul*. Ainsi, la signification politique et sociale de son acte s'estompe totalement. Il ne voit dans son attentat que l'accomplissement d'une action héroïque indispensable pour combler le vide douloureux d'une âme altérée d'absolu. Il semble bien que Tchen ait trouvé dans l'instant de sa mort cette plénitude d'être à laquelle il aspirait, et pourtant nous avons l'impression d'un échec indéniable : il s'est détruit vainement. Car son acte débouche sur le néant et par sa mort sa solitude demeurera irréductible.

Les seules actions positives sont celles où la révolution prend le pas sur le terrorisme, celles où le salut du peuple chinois l'emporte sur l'idéal individuel.

1. Louis Gillet, art. cit.

la plus humiliante : celle qu'on se méprise d'éprouver"(1). Mais il parvient à surmonter sa jalousie et à "retrouver" son amour pour sa femme.

"Métis, hors caste, dédaigné des Blancs et plus encore des Blanches" (2) sa conversion au communisme est exclusivement une question d'honneur, "une volonté de dignité"(3). Il ne s'agit pas pour lui d'organiser le monde, mais d'être noble ou de mourir(4). Kyo explique ainsi à Konig son adhésion au parti des révolutionnaires :

"Je pense que le communisme rendra la dignité possible pour ceux avec qui je combats" (5).

Ce passage des intellectuels dans le camp des travailleurs est le problème fondamental de tous les écrivains autour de 1933. Un grand nombre d'entre eux ont été séduits par le marxisme et se rapprochèrent du P.C.F. pour des raisons différentes et en des circonstances très diverses. Anatole France, prix Nobel de littérature en 1921, apporta son appui au P.C.F. et prôna l'idéal internationaliste et pacifiste du communisme. Les jeunes intellectuels qui dirigeaient la revue *Clarté*, orientèrent la revue vers la dénonciation de la guerre et de la culture bourgeoise. La protestation contre les valeurs bourgeoises et le désir d'une révolution totale Conduisirent les surréalistes à adhérer au parti communiste. C'est surtout la menace du fascisme qui encouragea de nombreux intellectuels à adhérer à ce parti alors qu'ils ignoraient tout du marxisme. En effet, la menace du fascisme et plus tard le succès du Front populaire, la guerre civile espagnole, la Résistance, la lutte contre la guerre d'Algérie... tous ces événements contribuèrent à donner au parti une large audience dans les milieux intellectuels. Sous la pression de l'actualité, André Gide, André Malraux, Jean-Paul Sartre, Jean Giono, Jean Guéhenno, pour ne citer que les plus grands, s'enga-

1. Ibid., p. 45.

2. Ibid., p. 59.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 225.

4. Cf. Louis Gillet art. cit.

5. *La Condition humaine* p. 242.

Charles Péguy loue "cette race laborieuse"(1). Aragon prône également "la religion du travail"(2).

Malraux voit en l'homme un être social qui se crée par son activité. Le héros de *La Condition humaine* affirme :

"Il n'y a pas de dignité possible, pas de vie réelle pour un homme qui travaille douze heures par jour sans savoir pourquoi il travaille. Il fallait que ce travail prît un sens, devint une patrie"(3).

Alors que les animaux s'adaptent à la nature, les hommes la transforment eux-mêmes. Karl Marx écrivait dans le *Capital* :

"Le travail est de prime abord un acte qui se passe entre l'homme et la nature"(4).

"Cet acte entre l'homme et la nature a été maintes fois illustré par Malraux qui, dans *La Condition humaine* comme dans *Les Noyés de l'Altenburg*, développe le thème de "la force humaine en lutte contre la Terre" (5).

Conformément à l'enseignement marxiste, Peï, un jeune communiste de la Condition humaine, affirme que le rôle de l'ouvrier moderne se fonde essentiellement sur son travail. En mettant au service de l'humanité une vie toujours plus laborieuse, plus forte et plus rayonnante, il prend conscience de son rôle de créateur :

"Une civilisation se transforme lorsque son élément le plus douloureux — l'humiliation chez l'esclave, le travail chez l'ouvrier moderne -- devient tout à coup une valeur, lorsqu'il ne s'agit plus d'échapper à cette humiliation, mais d'en attendre son salut, d'échapper à ce travail, mais d'y trouver sa raison d'être" (6).

La réaction contre l'humiliation est d'un tout autre ordre chez l'intellectuel. Kyo, blessé par la trahison de May, souffre de la douleur

-
1. Charles Péguy
 2. Aragon, *les Beaux Quartiers* p. 383.
 3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 59.
 4. K. Marx, *Le Capital*, voir thèse p. 482.
 5. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 278.
 6. Ibid., p. 277.

soumettre, de la contraindre, de l'humilier. Mais ridiculisé par Valérie, il rêve à des scènes de sadisme, de viol, de flagellations qu'il aurait voulu lui infliger et il aspire à la possession de la première courtisane venue afin de se délivrer de "l'orgueil sexuel bafoué qui le ravageait"(1).

A ces réactions négatives et condamnables qui, au lieu de délivrer les êtres, les dégradent et les aliènent de plus en plus, l'auteur oppose de nombreux exemples positifs illustrant la volonté de dignité.

Si Hemmerlich participe avec tant de fougue au combat révolutionnaire, c'est parce qu'il s'agit surtout pour lui, d'une révolte de la dignité humaine, d'une injure à laver. En attaquant l'ennemi, il déclare avec fureur :

"Ils nous auront tous fait crever toute notre vie, mais celui-là l'essuiera, il l'essuiera ..." (2).

Ayant réussi à échapper à la répression de Chang Kai Shek, il travaille dès lors comme monteur à l'usine d'électricité. C'est grâce à ce nouvel emploi que Hemmerlich découvre enfin le sens de son existence :

"C'est la première fois de ma vie que je travaille en sachant pourquoi, et non en attendant patiemment de crever..." (3)

Pour Malraux, le travail constitue l'essence de l'homme, l'acte par lequel il évolue constamment. Cette harmonie parfaite entre la nécessité du travail et l'épanouissement de ceux qui l'accomplissent est un thème cher à Pascal :

"Heureux, ceux qui avec une liberté entière et une pente invincible de leur volonté, aiment parfaitement et librement ce qu'ils sont obligés d'aimer nécessairement".

Que de fois Zola a exalté et glorifié le travail qui est, pour lui, l'unique loi du monde :

"Je n'ai eu qu'une foi, qu'une force, le travail" (4).

1. Ibid., p. 186.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 233

3. Ibid., p. 277.

4. Emile Zola, Discours prononcé le 18 Mai 1893,

travail. L'usine : manoeuvre. Mauvais esprit; au régiment, toujours en taule. Et la guerre. Gazé. Pour qui, pourquoi ? Pour son pays ? Il n'était pas Belge, il misérable"(1).

De même que dans la lutte contre l'obsession de la mort, les personnages de *La Condition humaine* Suivent des lignes de conduite très diverses et souvent opposées, dans le combat contre l'humiliation, chaque personnage s'engage dans la voie qui lui est propre.

La réaction de Koning est des plus cruelles et des plus méprisables. En Sibérie, il avait d'abord servi, dans l'armée blanche puis, lorsqu'il fut pris par les communistes, ces derniers lui infligèrent d'horribles tortures. Ils lui enfoncèrent un clou dans chaque épaule et il a pleuré devant eux. Il ne pourra jamais plus oublier cette humiliation. Depuis il n'est entré dans le kuomintang que pour prendre sa revanche en tuant le plus de communistes possible. Comme s'il eût pu par ses meurtres "gratter jusqu'au sang l'humiliation sans limites qui le torturait"(2).

Clappique reconnaît que la réaction violente et farouche de Koning est des plus courantes chez tous ceux qui ont subi une profonde humiliation."

"Il avait vu assez d'épaves des guerres civiles de Chine et de Sibérie pour savoir quelle négation du monde appelle l'humiliation intense; seul, le sang opiniâtrement versé, la drogue et la névrose nourrissent de telles solitudes"(3).

Car "solitude et humiliation totales"(4) sont deux thèmes interdépendants de *la Condition humaine* et l'auteur souligne, à maintes reprises, leur lien étroit.

Ferral a besoin de mépriser les autres pour s'affirmer lui-même. "Il se sentait dépendant de toutes les forces du monde. Mais il y avait (Valérie) dont il ne dépendait pas"(5). Il décide, par la suite, de la

1. Ibid., p. 153.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 226.

3. Ibid., p. 227.

4. Ibid., p. 238.

5. Ibid., p. 181.

Dans *les Mouches*, Oreste lance à Egisthe entre deux coups d'épée :

"Il est juste de t'écraser, immonde coquin, et de ruiner ton empire sur les gens d'Argos, il est juste de leur rendre le sentiment de leur dignité" (1).

Bien que chez Malraux nous soyons loin de la conception marxiste de la lutte de classes, sa vision présente, cependant, certains points communs avec celle de nombreux intellectuels de gauche sinon communistes. Pour Malraux, la lutte des révolutionnaires est, avant tout, une lutte pour la dignité bien plus qu'une conquête du pouvoir, une revanche des consciences longtemps humiliées qui ne peuvent plus tolérer le mépris. Les combattants de Shangaï, précise-t-il dans *la Condition humaine*", allaient à la conquête de leur pain et de leur dignité" (2).

Parallèlement à la peinture de la misère et de l'humiliation des militants communistes, l'auteur dépeint la déchéance d'une russe blanche, danseuse professionnelle au "Black cat". Indépendamment de tout parti pris politique, l'auteur déplore chez cette femme comme chez les malheureux combattants, la dégradation humaine.

"Mon arrière-grand-père (dit-elle) avait aussi de belles terres... Nous sommes parties à cause des communistes, n'est-ce pas ? Pour ne pas être avec tout le monde, pour être respectées : ici nous sommes deux par table, quatre par chambre ... Et il faut payer le loyer. Respectées.." (3).

Aussi loin qu'Hemmerlich remonte dans ses souvenirs, il reconstruit avec amertume que sa vie n'a été qu'une suite d'humiliations.

"Mauvais élève à l'école : absent un jour sur deux — sa mère, pour se soûler tranquille, lui faisait faire son

1. Jean-Paul Sartre, *Les Mouches*, Gallimard, 1943. p. 106.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 79.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 30.

flige pas seulement une souffrance et une déchéance physiques, mais ses conséquences sont plus profondes et plus graves : elles atteignent l'être même qu'elles dégradent tant matériellement que moralement. L'auteur dépeint "ceux des filatures, ceux qui travaillent seize heures heures par jour depuis l'enfance, le peuple de l'ulcère, de la scoliose, de la famine" (1). La misère des révolutionnaires évoque „la cour des Miracles, mais sous l'uniforme de la haine et de la décision"(2).

Malraux qui, en 1933; était encore dans sa période communisante, semble traiter ici un thème inspiré de Karl Marx. Dans la lutte des classes, les prolétaires ne cherchent pas uniquement à s'approprier des biens dont ils sont privés, ils essaient également d'obtenir une indépendance dont la privation les diminue.

Marx écrit dans *les Manuscrits* de 1844 :

"Une augmentation de salaires (...) n'est rien d'autre que le paiement de salaires meilleurs à des esclaves et elle ne conquiert pas pour l'ouvrier sa destination et sa dignité humaine" (3).

La dignité, sans laquelle il n'est pas d'existence vraiment humaine, est aussi indispensable aux hommes que les biens matériels. Cette notion de dignité qui est un but essentiel de la révolution a été hautement revendiquée par les nombreux intellectuels qui se sont intéressés aux problèmes sociaux. Roger Martin du Gard affirmait :

"Il faut rendre à l'individu, non seulement sa part matérielle des bénéfices du travail, mais cette part de liberté, de loisir, de bien-être, sans laquelle il ne peut se développer dans sa dignité d'homme"(4).

Aragon condamne violemment le système capitaliste qui ne réserve aux démunis que "la mort, la douleur et l'indignité"(5).

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 21.

2. Ibid., p. 79.

3. Karl Marx, *Manuscrits* de 1844. Cité par Roger Garaudy. *Qu'est-ce que la morale marxiste ?* p. 120.

4. Roger Martin du Gard, *Oeuvres complètes*, Tome II. *L'ETE* 14 p. 371.

5. Louis Aragon, *Les Beaux Quartiers*, Denoel et Steele 1936 p. 319.

Révolution. Car si son destin est la mort, il faut pour le dominer — faute d'une éternité en laquelle Tchen et son créateur ne croient pas — s'assurer d'une durée autre que celle de l'existence individuelle. La victoire de Tchen sera de mourir sous le témoignage de Peï :

“Toi qui écris, dit-il à Peï, tu expliqueras” (1).

Les personnages de Malraux ne sont pas des têtes-brûlées ou de simples aventuriers, ils désirent toujours mourir d'une belle mort héroïque qui ressemble à leur vie (2). Kyo, détenu en prison et se sachant condamné à mort, n'a qu'une solution : vouloir la mort au lieu de la subir : car “mourir est passivité, mais se tuer est acte” (3). Et le héros avale la tablette de cyanure que tout militant conserve dans la boucle de sa ceinture.

Katow après avoir généreusement donné son cyanure à deux camarades épouvantés, affronte avec un admirable courage l'horrible mort qui lui sera infligée par ses tortionnaires. L'héroïsme de cet émouvant personnage consiste à vouloir la mort au lieu d'attendre la déchéance.

Cette vaillance extraordinaire rappelle dans une certaine mesure celle de Kyo qui ne peut tolérer de voir un fou cruellement fouetter par le gardien de la prison et détourne la sauvagerie de ce dernier sur sa propre personne. Pour Kyo, comme pour Katow, le principe est le même : vouloir la mort mais non l'humiliation. Et nous abordons là un des thèmes fondamentaux de l'œuvre de Malraux : celui de la dignité humaine.

L'AFFIRMATION DE LA DIGNITÉ HUMAINE

Pour mieux exprimer la volonté de dignité il a fallu que Malraux commence tout d'abord par dépeindre le tréfonds de l'humiliation que l'homme peut infliger à son prochain. Dans *la Condition humaine* les causes de l'humiliation sont multiples.

La misère n'est jamais évoquée pour elle-même. L'auteur s'attache à montrer ses répercussions sur l'existence humaine. Elle n'in-

1. Ibid., p. 158.

2. Cf. Ibid., p. 255.

3. Ibid., p. 255.

et la nouveauté de l'oeuvre de Malraux consistent à reprendre ces mêmes valeurs en dehors de toute religion et à leur donner une explication et une justification nouvelles. Car une vertu morale n'a de prix qu'en fonction de la sincérité et de la passion de l'être qui l'exprime.

L'auteur a lui-même dégagé avec clarté et précision l'unité profonde, "la permanence" de son oeuvre et de sa pensée. Il affirme que le problème qui est sous-jacent à tout ce qu'il écrit est :

"Comment faire prendre conscience à l'homme qu'il peut fonder sa grandeur, sans religion, sur le néant qui l'écrase" (1).

Comme jadis Nietzsche, Malraux tente de trouver, en dehors de toute croyance religieuse, le moyen pour l'homme de se dépasser, de réintégrer la notion du sacré. *La Condition humaine* illustre parfaitement cette quête de l'absolu, cette recherche de ce qui est au-dessus de l'homme, c'est-à-dire sa raison de vivre qui n'est autre d'ailleurs que sa raison de mourir.

Voilà pourquoi Malraux confronte constamment ses héros avec la mort. Mais s'il n'y a pas d'au-delà, pourquoi l'homme serait-il prêt de risquer sa vie ? Et le héros de *la Condition humaine* répond à cette question fondamentale :

"Qu'eût valu une vie pour laquelle il n'eût pas accepté de mourir" (2).

Le cas de Tchen est particulier. Il nous apparaît en premier lieu comme un héros qui risque sa vie pour la cause de la Révolution. Nous découvrons par la suite les motifs qui le poussent à tuer : il est obsédé par le meurtre. Le terrorisme devient pour lui une fascination. Tchen essaye, cependant, d'échapper à cette fatalité tragique, en tachant de "mourir le plus haut possible" (3). Ce personnage complexe "âme d'ambitieux, assez lucide, assez séparé des hommes ou assez malade" (4), tente de sublimer son acte. Il décide de sacrifier sa vie à la cause de la

1. A. Malraux, Lettre à A. Hoog, citée par J. Hoffmann op. cit., p. 369

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 2576.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 55.

4. Loc. cit.

saisi la première fois qu'il était entré dans la foule chinoise" (1).

Il n'y a donc pas de salut possible dans l'évasion hors de sa condition. Les mondes de Ferral, de Gisors, de Clappique ne tardent pas à révéler leur faille. Erotisme ou débauche ne sont que des "paradis artificiels".

Le rapprochement avec Pascal s'impose ici une nouvelle fois. Cet effort constant et désespéré pour échapper à sa condition est le thème fondamental du divertissement.

"La seule chose qui nous console de nos misères est le divertissement, et cependant c'est la plus grande de nos misères. Car c'est cela qui nous empêche principalement de songer à nous et qui nous fait nous perdre insensiblement." (2).

Malraux ne s'arrête pas à cette phase désespérée, il affirme qu'un salut est toujours possible "si l'homme est capable de surmonter sa vie dans son destin, la fatalité dans la liberté d'être soi" (3).

Et à l'encontre des dérivatifs sans issue, des fausses solutions, l'auteur oppose des valeurs réelles et éternelles. Pour vaincre la tentation du désespoir, il ne suffit pas de rémoigner de la volonté de vivre. Car la vie pour la vie n'a pas de sens. L'auteur montre qu'il ne s'agit pas seulement de vivre mais de surmonter et de vaincre tout ce qui est susceptible d'accabler l'homme : la solitude, l'humiliation, la défaite ...

Mais le sentiment d'une humanité condamnée, de la fatalité de l'échec, loin de faire rejeter à Malraux toute valeur morale, l'incite à reconnaître l'héroïsme, la générosité, la fraternité, la dignité, le culte du dévouement... Bien entendu, ces valeurs éternelles sont à la base de la Religion et trouvent leur expression la plus éclatante dans de nombreuses expériences mystiques. Mais précisément l'importance

1. Ibid., p. 248..

2. Blaise Pascal, *Pensées* (1966). Opuscules et Lettres. Henri Plon éditeur. 1873. p. 190.

3. J. Delhomme op. cit., p. 206.

Le vieux philosophe pense qu'il faut oublier cette angoisse dans la drogue ou l'érotisme.

"Il faut s'intoxiquer (dit-il) : ce pays a l'opium, l'Islam le haschich, l'Occident la femme... Peut-être l'amour est-il surtout le moyen qu'emploie l'Occidental pour s'affranchir de sa condition d'homme..." (1).

L'auteur démontre la vanité de ces expédients. Nous avons déjà analysé à travers Ferral l'échec de l'érotisme qui ne réussit pas à détourner le personnage de lui-même et qui n'est qu'un désir d'humilier la femme. C'est pour se sentir lui-même que Ferral cherche à posséder un autre être. Il demeure, par suite, enfermé dans sa solitude.

La drogue est une autre échappatoire à "la fascinat du néant". Mais ce moyen de se soustraire au réel n'est qu'une illusion et non une véritable évasion. Lorsque Gisors a recours à la drogue pour le délivrer de lui-même et pour dissiper sa douleur, il déclare :

"Il est des mondes de contemplation — avec ou sans opium où tout est vain" (2).

Un autre faux-fuyant est le jeu auquel s'adonne Clappique. En y risquant sa vie et surtout "celle d'un autre" (3) il s'enivre de sensations intenses qu'il ne réussit pas à trouver dans sa médiocre existence. L'auteur condamne la lâcheté de ce moyen qui n'expose pas le joueur à un danger réel et n'est, par suite, "qu'un suicide sans mort" (4).

La mythomanie de Clappique est également un moyen de nier son existence. Pour pouvoir supporter la vie, il lui faut être absent de "sa" vie. Tout lui est bon pour cela : l'alcool, la trahison, le changement d'état civil ...

"Non, les hommes n'existaient pas, puisqu'il suffit d'un costume pour échapper à soi-même, pour trouver une autre vie dans les yeux des autres. C'était en profondeur, le même dépaysement, le même bonheur qui l'avaient

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 193.

2. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 280.

3. Ibid., p. 206.

4. Ibid., p. 206.

L'angoisse de tous les Personnages de *la Condition humaine*. n'est pas de mourir, mais d'être limités en tout, dépendants et aliénés. Ce qui désespère les soldats du train blindé, ce n'est pas tant la mort que la rage de ne pouvoir se défendre, le sentiment d'être paralysés comme dans une camisole de force(1).

On peut, comme le vieux Gisors, accepter et même vouloir sa propre mort, mais non celle des êtres qu'on aime, celle de ses enfants par exemple. C'est par Kyo que Gisors était rattaché aux hommes(2), relié à la vie (3). Après la mort de son fils, il sombre dans une cruelle détresse :

"Il était désormais rejeté à lui-même. Le monde n'avait plus de sens"(4).

Ainsi, selon Malraux, l'homme enfermé dans un monde absurde, sans aucune échappée sur l'éternité, perdrait toute sa raison d'être dans le désespoir. Mais Malraux, homme d'action, ne sombre pas dans le pessimisme. Il entreprend d'agir, il élabore une oeuvre positive qui tend à dominer le destin. Il semblait à Kyo, comme à son créateur, que "s'il n'eût été maître de sa mort, il eût rencontré là l'épouvante"(5).

Malraux refuse farouchement qu'on se résigne à la mort et toute son oeuvre n'est que la volonté de dominer les obsessions de la mort et du destin, Gaetan Picon écrivait :

"Sans-doute Sartre a-t-il raison de dire que, pour Malraux comme pour Heidegger, l'homme est un être pour la mort "(6).

Et Malraux rectifie en marge :

"Et si au lieu de dire *pour*, on disait *contre* ? Ce n'est la même chose qu'en apparence"(7).

Signalons tout d'abord les fausses solutions qu'expose Gisors.

1. Ibid., pp. 112 — 113.

2. Ibid., p. 279.

3. Ibid., p. 264.

4. Ibid., p. 264.

5. Ibid., p. 238.

6. G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 75.

7. Loc. cit.

La mort est omniprésente dans *La Condition humaine*. L'ouvrage s'ouvre sur le crime commis par Tchen et s'achève par l'exécution des révolutionnaires. Tous les personnages de Malraux sont obsédés par la mort. Et ce thème apparaît avec une telle puissance dans le roman qu'il figure même dans de nombreuses métaphores : Kyo est troublé par un sentiment sans nom, aussi destructeur que le temps ou la mort⁽¹⁾ Et plus loin l'auteur renchérit "la seule chose en lui qui fût aussi forte que la mort" (2). Ces images chargées de sens donnent son relief au récit et soulignent la primauté de ce thème dans le roman.

Ce qu'il y a de terrible dans la mort, c'est qu'"elle transforme la vie en destin". A partir d'elle rien ne peut être compensé. Cette formule célèbre de *L'Espoir* est clairement définie par un personnage du roman :

"La chose capitale de la mort, c'est qu'elle rend irrémédiable ce qui l'a précédé, irrémédiable à jamais : la torture, le viol suivis de la mort, ça c'est vraiment terrible..."(3).

La mort est L'Irrémédiable. En mettant un terme définitif à l'existence sans aucune possibilité de retour, elle donne un visage d'éternité à ce qui était en sursis.

Mais la mort ne résout rien. Elle n'est ni une solution au tragique de la condition humaine, ni la clef d'une recherche sur la valeur de la vie, ni une réponse à l'interrogation de l'être. (4).

Si la vie de l'homme était éternelle, son existence serait-elle plus supportable ? Non, répond Gisors, car l'homme souhaite la toute puissance (5) et non l'immortalité. La mort n'est qu'une des faces du destin. Or, c'est ce dernier qui nous écrase : à côté de la mort il y a également la solitude, l'humiliation, la souffrance, la torture"... C'est moins la mort que la solitude qui obsède Kyo.

"Il est facile de mourir quand on ne meurt pas seul" (6).

1. Ibid., p. 47.

2. Ibid., p. 50.

3. A. Malraux, *L'Espoir*

p. 226 Cette phrase a inspiré tout le *Huis-clos* de Sartre.

4. Cf. J. Delhomme, op. cit., p. 117.

5. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 194.

6. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 256.

ductible entre ces deux grands penseurs. Alors qu'il est aisé à Pascal de surmonter son angoisse parce qu'il est assuré de Dieu, Malraux, qui refuse la foi religieuse, sombre dans un désespoir profond. Gisors, après la mort de Kyo, ne peut surmonter sa douleur et songe à "la chance abjecte des autres, avec leurs prières, leurs fleurs funèbres"(1). Selon le vieux philosophe :

"Tout au fond, l'esprit ne pense l'homme que dans l'éternel, et la conscience de la vie ne peut être qu'angoisse"(2).

De là la terrible angoisse de Kyo "de n'être qu'un homme"(3). Conformément à la théorie de "la volonté de puissance" de Nietzsche qui élève l'homme jusqu'au surhomme (*Ainsi parlait Zarathoustra*), Malraux affirme que toute personne rêve "d'échapper à la condition humaine"(4), "d'être plus qu'homme dans un monde d'hommes..." c'est la volonté de déité : tout homme rêve d'être dieu"(5). D'où l'absurdité de l'existence(6). Car dès le moment où un être a éprouvé l'angoisse de n'être qu'un simple mortel "— cette souffrance d'être homme"(7) il comprend, dès lors, que toute recherche est illusoire. Quelle que soit sa volonté d'atteindre l'absolu, ses efforts sont condamnés par la finitude de l'être.

Si la condition de l'homme semble insupportable, c'est parce que ses entreprises comme son être sont voués à la mort. L'homme est le jouet des fatalités qu'il pensait dominer. Car il ne peut rien contre la mort. Gisors reconnaît :

"On peut tromper la vie longtemps, mais elle finit toujours par faire de nous ce pour quoi nous sommes faits"(8).

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 263.

2. Ibid., p. 282.

3. Ibid., p. 127.

4. Ibid., p. 194.

5. Loc. cit.

6. Il est intéressant de noter que ces analyses de Malraux se rencontrent dans des œuvres écrites avant *Le Mythe de Sisyphe* et bien antérieures à l'irruption massive de la philosophie de l'absurde dans la littérature française.

7. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 264.

8. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 280.

Mais cette étrange révélation continue à obséder Kyo, il s'en souvient une nouvelle fois en quittant May et s'explique alors pourquoi l'homme est douloureusement seul : jamais on ne saurait être pour l'autre celui que l'on est pour soi-même. Il y a en tout être "l'étranger" (1) (Terme qui fera fortune avec Camus) le non-connu et le non-connaissable, ce qui ne peut pas communiquer et ce que nous ne pouvons pas communiquer. Par suite, la communication des consciences est impossible, il n'y a pour l'homme aucun moyen d'être compris.

On ne connaît jamais l'autre. C'est une constante de la pensée de Malraux. L'auteur affirme lui-même en marge du texte de Gaetan Picon :

"Le mot connaître appliqué aux êtres, m'a toujours fait rêver. Je crois que nous ne connaissons personne" (2).

L'univers romanesque de Malraux est un monde sans communication. Les nombreux dialogues qui recouvrent l'œuvre ne sont, en fait, qu'une succession de monologues où chaque personnage parle à soi-même, pour soi-même, sans tenir compte de l'interlocuteur qui, d'ailleurs, n'est jamais ébranlé (3).

Kyo s'aperçoit anxieusement que "May lui échappe complètement" (4). Gisors certifie âprement que "personne ne connaît plus personne" (5). Et lorsque, pour la première fois, la phrase qu'il avait si souvent répétée "il n'y a pas de connaissance des êtres" (6) s'applique à la personne de son fils, une terrible angoisse se saisit de lui. Ce douloureux sentiment étreint tous les personnages de *la Condition humaine*. Tout au long de l'œuvre et jusqu'à sa mort, Tchen ne parvient pas à se guérir de "l'angoisse primordiale" (7) qui le poursuit jusque dans ses rêves.

Malraux, si proche de Pascal par tant de points, diffère sensiblement de lui, quant aux solutions inconciliables que chacun d'eux propose au problème de l'angoisse. C'est là qu'intervient la divergence irré-

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 191.

2. A. Malraux, in G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 48.

3. Cf. Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Paris, Editions Universitaires, 1955, p. 117;

4. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 47.

5. Ibid., p. 60.

6. Ibid., pp. 56 et 191.

7. Ibid., p. 130.

dans la visite chez la prostituée chinoise, Ferral se heurte constamment à sa propre personne.

“En somme il ne couchait jamais qu’avec lui-même, mais il ne pouvait y parvenir qu’à la condition de n’être pas seul (...) mais n’eût-il de sa vie possédé une seule femme, il avait possédé, il posséderait à travers cette Chinoise qui l’attendait, la seule chose dont il fut avide : lui-même”(1).

Contrairement à l’avis de Henri Dumazeau qui affirme que “chez tous les hommes sauf chez Clappique il ya la douleur, la solitude” (2), nous avons détecté chez ce personnage, au même, titre que chez tous les autres héros du roman, le sentiment poignant d’un isolement moral. Clappique qui avait réussi à échapper à tout ce sur quoi les hommes fondent leur vie — l’amour, la famille, le travail — ne parvient pas à se soustraire à la peur.

“Elle surgissait en lui, comme une conscience aigue de sa solitude”(3).

Même Katow est seul dans la générosité et dans la fraternité (4). Mais c’est surtout à propos de Kyo que l’auteur présente l’illustration la plus frappante de la solitude : lorsque Kyo ne reconnaît pas sa propre voix enregistrée sur un disque. Car “On entend la voix des autres avec ses oreilles, la sienne avec sa gorge(5), Et Kyo se demande avec angoisse : “Mais moi, pour moi, pour la gorge, que suis-je ?” (6). Le tragique de la condition humaine éclate dans la révélation soudaine du mystère que nous sommes nous-mêmes, et Kyo prend conscience de sa propre étrangeté. Cette expérience le tourmente profondément et il y revient à plusieurs reprises. Quand il fait part à son père de son trouble, celui-ci lui répond :

“Il m’est arrivé de me trouver à l’improviste devant une glace et de ne pas me reconnaître (7).

1. A. Malraux, *La Condition Humaine* pp. 196—197.

2. Cf. H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

3. A. Malraux, *La Condition Humaine* p. 218.

4. Cf. Ibid. pp. 257, 258.

5. Ibid., p. 49.

6. Loc. cit.

7. Ibid., p. 41.

Il y avait donc "un monde du meurtre"(1) qu'il ne pouvait plus partager avec les autres. Même lorsqu'il retrouve ses camarades, Tchen demeure "extraordinairement seul"(2). Quand il se rend chez Gisors, son maître, dans l'espoir de trouver auprès de lui un certain réconfort, le vieux philosophe ne peut lui être d'aucun secours. Ce dernier déplore combien "le meurtre est solitaire"(2). Mais ce que Gisors ne comprend pas, c'est que Tchen qui avait revu "les siens", ses complices du crime, "semble si loin d'eux"(3). Mais cette incompréhension apparaît soudain comme évidente à Tchen qui dit à Gisors :

"Vous n'avez jamais tué personne n'est-ce pas! (4).

La solitude de Tchen après le meurtre, sa séparation et sa différence ne sont pas d'un autre ordre que la solitude de tout homme. Quelle que soit la profondeur de l'amour que Gisors porte à son fils Kyo, Gisors est seul devant cet amour :

"Cette solitude totale même l'amour qu'il avait pour Kyo ne l'en délivrait pas "(5).

Comme pour Tchen, mais sur un autre plan que lui, la mort de Kyo pour Gisors sera une véritable "rupture"(6), un arrêt total sans au-delà Il ne savait pas à quelle "métamorphose" celle ci peut contraindre un homme (7). "Le monde n'avait plus de sens, n'existait plus"(8). Et plus loin Gisors renchérit :

"La mort de Kyo ce n'est pas seulement la douleur, pas seulement le changement, c'est ... une métamorphose"(9).

Ferral est seul, enfermé dans sa "vie individuelle, isolée, unique" (10) Rien ne peut vaincre les barrières de cette conscience qui ne connaît que soi et son corps. Dans les rapports de Ferral et de Valérie, ou

1. Ibid., p. 52.

2. Ibid., p. 56.

3. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 52.

4. Ibid., p. 53.

5. Ibid., p. 61.

6. Cf Jeanne Delhomme, op. ci., p. 63.

7. *La Condition humaine* p. 264.

8. Loc. cit.

9. Ibid., p. 279.

10. Ibid., p. 105.

Pour Hemmelrich, l'action révolutionnaire est "la seule chose qui, dans sa vie actuelle, eût un sens" (1). Ferral, comme tous les personnages du roman "médite le sens de sa vie" (2). Selon le vieux peintre Kama : "on peut communier même avec la mort... C'est le plus difficile, mais peut-être est-ce le sens de la vie" (3). Et le philosophe Gisors, qui est le porte-parole de Malraux conclut :

"Il est très rare qu'un homme puisse supporter (...) sa condition d'homme" (4).

En essayant de percer le secret de la condition humaine, Malraux fait surgir toutes les figures du destin, c'est-à-dire tout ce que nous subissons : la solitude, l'absurde, l'angoisse, la mort.. Ce sont là les thèmes obsédants de *La Condition humaine* qui hantent tous les personnages et qui scandent toutes les pages du roman.

Malraux reprend, dans cet ouvrage, le peintre d'une humanité condamnée qu'il avait déjà représentée dans *Les Conquérants* et *La Voie Royale*. Même légende âpre, sanglante sur la souffrance, l'échec, la destinée... Tous les personnages de *La Condition humaine* éprouvent une douloureuse solitude. L'être est enfermé en lui-même, impuissant à communiquer avec les autres. Tchen avant de commettre son meurtre ne savait pas et ne pouvait pas prévoir ce qui l'attendait (5). Il se préparait à accomplir un acte comme les autres, un peu plus important peut-être, mais qui, de toute façon, faisait partie de l'ensemble des choses qu'il avait faites jusque là. Il pensait qu'il serait "après" ce meurtre comme "avant" comme s'il n'avait accompli qu'un geste banal. Mais "l'inconnu" l'attendait. Cet acte ne pouvait plus entrer dans la série des actes accomplis auparavant.

"Ce n'était pas la peur, c'était une épouvante à la fois atroce et solennelle qu'il ne connaissait plus depuis son enfance : il était seul avec la mort, seul dans un lieu sans hommes, mollement écrasé à la fois par l'horreur et par le goût du sang" (6).

1. Ibid., p. 153.

2. Ibid., p. 75.

3. Ibid., pp. 162, 163.

4. Ibid., p. 193.

5. Cf Jeanne Delhomme, *Temps et Destin, Essai sur André Malraux*, Paris, Gallimard, 1955. p. 62 et Sq.

6. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 12.

équivoque où doit être cherchée l'unité profonde et la signification de *la Condition humaine*"(1).

Ainsi, selon le propre témoignage de Malraux, l'élément fondamental de *La Condition humaine*, n'est pas "le cadre"(2), mais, "l'essentiel est l'élément pascalien"(3). Car le drame de Malraux est surtout métaphysique. Son oeuvre illustre, telle que l'a exprimée Pascal, la misère de l'homme sans Dieu. Et Malraux souligne à maintes reprises l'influence du grand classique sur ses écrits. Dans les dernières pages des *Noyers de l'Altenburg*, il rappelle le fameux texte de Pascal :

"Qu'on s'imagine un grand nombre d'hommes dans les chaînes et tous condamnés à mort dont les uns étant chaque jour égorgés à la vue des autres, ceux qui restent voient leur propre condition dans celle de leurs semblables ... C'est l'image de la condition des hommes" (4).

Exemple qui rappelle sensiblement une scène capitale de *la Condition humaine* celle des prisonniers dans le préau de l'école. Tout comme chez Pascal, l'absurdité de l'univers, l'angoisse au regard de la condition humaine et l'obsession de la mort constituent le fond de l'oeuvre de Malraux.

Tous les personnages du roman s'interrogent sur le sens de leur vie. Tchen qui a d'abord reçu une éducation chrétienne s'est converti, sous l'influence de Gisors, au marxisme. Mais la passion politique en se substituant à la passion religieuse laisse en lui un grand vide. Et le jeune homme se demande avec anxiété :

"Que faire d'une âme, s'il n'y a ni Dieu ni Christ" ? (5).

Gisors, méditant sur le sens de l'existence, compare la douloureuse inquiétude de Tchen aux convictions héroïques de Kyo. Alors que le premier est désespéré par le non sens de la vie, pour Kyo, au contraire, l'action politique "donnait un sens à sa solitude (...) sa vie avait un sens" (6).

1. Joseph Hoffman op. cit., p. 158.

2. Cf supra p. 5.

3. André Malraux, Lettre à Gaétan Picon 1934. Cf supra p. 3.

4. Id., *Les Noyers de l'Altenburg*

5. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 58.

6. Ibid., p. 59.

Si May dans *La Condition humaine* échappe à l'érotisme et dépasse ce stade de la femme possédée et humiliée, c'est parce qu'elle participe avec son mari à la lutte révolutionnaire. Cette femme à "demi-virile" (1) s'oppose nettement à l'épouse d'Hemmelrich et à la petite ouvrière de Katow. Elle n'a nullement besoin de la protection masculine : "Ai-je vécu comme une femme qu'on protège?" (2), demande-t-elle à Kyo. Elle est l'égal de l'homme et l'union des conjoints se cimente dans le combat viril.

L'ELEMENT PASCALIEN : LA MISERE DE L'HOMME SANS DIEU

La force et la beauté de *La Condition humaine* résident en ce que l'oeuvre se développe sur plusieurs plans à la fois : d'une part, le thème politique et l'on comprend que ce chef-d'oeuvre soit considéré avant tout comme un roman révolutionnaire, d'autre part l'humanité profonde des discussions. A tout moment et dans les pires excès de leur violence, les héros s'interrogent anxieusement sur le tragique de leur condition.

C'est cette dimension métaphysique qui donne à l'oeuvre son unité profonde et qui donne tout leur sens aux personnages. Gisors, vieux philosophe français, est la clé de voûte du roman. C'est auprès de lui que tous les personnages se rendent pour discuter du sens de leur existence. Tchen éprouve le besoin de le voir après son meurtre. Kyo lui confie son angoisse. Ferral recherche la compagnie de Gisors et admire sa "grande culture" et son "intelligence toujours au service de son interlocuteur" (3). Il semblait à Ciappique que "Gisors était le seul homme qui le comprit" (4). Quant au vieux philosophe lui-même, il se regardait et il se jugeait comme tous ceux qui venaient à lui.

Joseph Hoffman compare le rôle de Gisors à celui du choeur dans la tragédie antique, car c'est lui qui se charge de dégager la signification profonde des actes et des paroles de tous les protagonistes.

"Ce personnage, tout comme les moments de contemplation, indique d'une manière qui exclut toute

-
1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 280 cf. aussi p. 22.
 2. *La Condition humaine* p. 172.
 3. Ibid., p. 190.
 4. Ibid., p. 220.

Mais alors que dans *la Voie Royale* et *Les Conquérants*, Malraux ne met en scène que des hommes qui n'ont pas d'enfants et ne veulent pas en avoir, et pratiquement pas de femmes (à l'exclusion de l'évocation de Sarah, Mme Klein et des prostituées), dans *La Condition humaine* deux seuls personnages féminins sont représentés : May et Valérie. Toutefois elles n'existent qu'en fonction de leurs partenaires masculins : Kyo et Ferral. Et comme le souligne Henri Dumazeau : "cas unique dans l'oeuvre de Malraux"(1) Kyo aime May et il en est aimé. Mais humain, trop humain, Kyo ne peut tolérer la liberté pour chacun des sexes de disposer de son corps, principe très en faveur dans les milieux révolutionnaires de l'époque. Il se découvre par là, mâle possesseur et jaloux comme les autres (2),

Quant au personnage de Valérie, ainsi que toutes les figures de courtisanes qui apparaissent dans l'oeuvre, ils soulignent l'importance qu'accorde Malraux à l'érotisme et la distinction fondamentale qu'il qu'il fait entre ce sentiment et l'amour(3). Valérie n'est pour Ferral que le sexe opposé. L'auteur souligne à maintes reprises l'antagonisme des deux sexes dans leurs rapports :

"Se donner pour une femme, posséder pour un homme"(4)

"elle n'était que l'autre pôle de son propre plaisir"(5)

Ferral ne voit en Valérie que dépendance, soumission et humiliation (6). Et, selon lui, "vouloir connaître une femme c'est toujours une façon de la posséder ou de se venger d'elle"(7).

Tchen éprouve également un profond mépris pour le sexe féminin et il s'enorgueillit de ne pas être une femme"(8).

Ainsi la distinction est nettement marquée entre les deux sexes. Pourtant Malraux connaît et aime les femmes. Il s'est marié trois fois, et à des femmes de valeur; mais dit-il "La femme est pour moi un être si différent, — je parle de différence non d'infériorité, — que je n'arrive pas à imaginer un personnage féminin"(9).

1. H. Dumazeau op. cit., p. 28.

2. Cf. A. Malraux, *La Condition humaine* pp. 45 — 46.

3. Cf. Ibid., p. 101.

4. Ibid., p. 103.

5. Ibid., p. 105.

6. Ibid., pp. 181 et 196.

7. Ibid., p. 191.

8. Ibid., p. 54.

9. Malraux à d'Astier de la Vigerie, *L'Evenement*, août 1967, p. 60.

Or, si le sujet apparent de *la Condition humaine* est, en effet, la Révolution chinoise, le sujet profond est la peinture de la condition tragique de l'homme en face de son destin : le mystère de l'existence, le sentiment profond de la solitude et de la dépendance des êtres, l'obsession de la mort... Par suite, l'ouvrage répond parfaitement à son titre car il représente une humanité complexe, actuelle et vivante.

Toutefois certaines réserves devraient être faites à propos de l'univers particulier de Malraux. L'auteur dépeint un monde essentiellement viril où la femme tient peu de place. May déclare à juste titre :

"Kyo, comme ce sont des idées d'homme..."(1).

En effet, ce sont des réflexions, des problèmes et des méditations d'hommes qui constituent le fond des oeuvres d'André Malraux.

L'univers viril était déjà l'une des caractéristiques du roman stendhalien(2). Malgré l'intervention de la passion romantique, Barrès et Montherlant ont également illustré l'énergie masculine. Ernest Psichari dans *Le Voyage du Centurion* (1916) est le précurseur du monde de l'action que T.E. Lawrence connaît en Arabie, Ernst Junger dans la guerre et l'aventure, Saint-Exupéry dans les premiers vols des pionniers de l'aviation.

A l'instar de ses devanciers, Malraux utilise l'action comme point de départ de la recherche d'une loi morale et du sens de la vie. Son univers humain est limité à celui de l'acte et de l'intelligence virile(3). Gaëtan Picon souligne l'absence d'enfant et la rareté et la maladroise des figures de femmes dans l'oeuvre de Malraux. En effet, on a souvent noté que les héros de Malraux n'ont ni femmes ni enfants. Dans *La Condition humaine*, Hemmelrich souffre d'avoir une épouse et un fils malade à protéger. Ces liens familiaux lui interdisent le "bonheur d'être libre"(4) et l'empêchent de participer à l'action révolutionnaire. Aussi, la mort des siens sera-t-elle pour lui une véritable délivrance. Katow découvre également en lui une sourde joie : "pas de femme, pas d'enfants"(5) pour entraver sa liberté.

1. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 46. Cf aussi P. 43, "C'est peut-être une idée masculine".

2. Cf R.M. Albérés op. cit. p. 253.

3. G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 49.

4. A. Malraux, *La Condition humaine* p. 152.

5. Ibid., p. 254.

"Le monde s'est mis à ressembler à mes livres"(1).

En effet même après une quarantaine d'années, *La Condition humaine* demeure un roman d'une actualité brûlante. Le Tiers — Monde, la Révolution, la guerre, le communisme, le conflit sino-soviétique, le problème de la liberté sont toujours au premier plan de nos préoccupations. Et dans cette "oeuvre prophétique"(2), certaines déclarations de l'auteur préfiguraient l'avenir. Dès 1933, Malraux proclamait que "le destin de la Chine était entre les mains du Parti communiste"; "Trois cents millions de Chinois se sont éveillés en sursaut d'un sommeil de trente siècles dont ils ne se rendormiront pas" (3).

L'auteur, bien des années à l'avance, a prévu les dissidences entre le Parti communiste Chinois et l'Internationale. Enfin, il a annoncé que de ce Parti dépendait peut-être le destin de l'Occident.

UN UNIVERS VIRIL

Certains critiques vont jusqu'à dénier au roman de Malraux le titre même de *La condition humaine* qu'ils considèrent comme abusif. Un critique soviétique, Ilya Ehrenbourg affirme que ce qui intéresse Malraux ce ne sont pas les Chinois, ni même la ville de Shangai, mais ce qui est arrivé à quatre ou cinq hommes dans cette ville au printemps 1927. Ehrenbourg ajoute que ce roman de Malraux n'est pas un ouvrage sur la Révolution, ni une épopée, mais "une radioscopie de l'auteur lui-même fragmentée en plusieurs héros"(4).

Edmond Jaloux, dans un article très élogieux déclare aussi :

"*La Condition humaine* est la condition spéciale d'un type humain, particulier à M. André Malraux, que l'on retrouve dans tous ses ouvrages et que l'on pourrait appeler l'aventurier intellectuel"(5).

1. A. Malraux, cité par Dumazeau op. cit., p. 24.

2. Ibid., p. 4.

3. *La Condition humaine* p. 279.

4. Ilya Ehrenbourg "La Condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans *Vus par un écrivain d'U.R.S.S.* Editions Gallimard, 1934.

5. Edmond Jaloux : "Une puissance extraordinaire", *Les Nouvelles Littéraires*, 16 décembre 1933.

gent complètement, à l'image de leur créateur, dans des actions et des luttes réelles à Canton (*Les Conquérants* 1928), à Shanghai (*La Condition humaine* 1933), en Allemagne (*Le Temps du mépris* 1935), en Espagne (*L'Espoir* 1937), en France (*La Lutte avec l'ange* 1943).

On a souvent reproché à Malraux, et en l'occurrence à *La Condition humaine*, "l'effroyable carnage" (1), "le goût du sang et des supplices (...) le goût malsain de l'héroïsme" (2). Et André Malraux a répondu à ces critiques par ces lignes très explicites :

"Je n'ai pas eu à choisir la sauvagerie, car je l'ai rencontrée. Tout homme tire ses valeurs de la vie qui lui a été donnée, et je revendique les unes et l'autre"(3)

Mais bien plus que les détails d'ordre biographique, ce qui caractérise surtout le roman de Malraux, c'est l'Histoire qui est étroitement mêlée au récit. Chang Kai Shek, qui était alors à la tête de la fraction modérée du Kuomintang et Borodine qui était à cette date le conseiller soviétique du gouvernement chinois, prennent part à l'action romanesque. Kyo joue le rôle de Chou-En-Laï, mais, bien entendu, la vie privée et la mort du héros sont de l'invention de l'auteur. C'est la première épouse de Malraux, Clara Goldschmidt, qui lui aurait inspiré la scène de l'aveu de trahison (4). Malraux a pu songer à André Gide pour le personnage de Gisors, à André Berthelot pour Ferral. Enfin, dans *Les Antimémoires*, l'auteur dépeint l'original de Clappique, bien inférieur au personnage du roman (5).

Mais alors que chez de nombreux romanciers et plus précisément chez Malraux, l'oeuvre n'est qu'un reflet de la vie, nous pouvons affirmer qu'en ce qui concerne notre auteur, la réciproque est également vraie. Et souvent même ce processus inverse a lieu. Malraux lui-même affirme :

1. Jean Guéhenno, "Le Tragique et le quotidien" *Europe*, 15 juin 1933.

2. Robert Brasillach "Le goût malsain de l'héroïsme" *L'Action française*, 10 août 1933.

3. André Malraux, "Réponse à Robert Brasillach". Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les *Oeuvres complètes de Robert Brasillach*, Club de l'Honnête homme, Tome VII.

4. Cf. Clara Malraux, *Le Bruit de nos pas*, Grasset...

5. Malraux, *Les Antimémoires* p. 376.

l'optique des différents héros, selon qu'il s'agit de Tchen ou de Kyo, de Gisors ou de Ferral, de Hemmelrich ou de Clappique ... Et Malraux affirme :

"Le cadre n'est pas essentiel (...) mais le cadre n'est pas non plus accidentel. Je crois qu'il y a dans une époque assez peu de lieux où les conditions d'un héroïsme se trouvent réunis", (!)

La qualité primordiale des romans de Malraux est leur actualité. Le romancier se lance dans les combats du moment et essaye de les faire vivre aux lecteurs. Ses oeuvres, jusqu'en 1945, étaient si proches des événements que certains critiques n'y voyaient que des reportages fidèles des faits contemporains. Il est vrai que si Malraux a écrit *Les Conquérants* et *La Condition humaine* c'est parce qu'en 1925, il s'était rendu en Chine qui était alors en pleine guerre civile. Il y a assuré quelque temps, semble-t-il, les fonctions de Commissaire suppléant du Kuomintang, chargé de la propagande, auprès de Borodine, représentant de l'Union soviétique au Comité central du Parti communiste chinois.

L'oeuvre de Malraux est sans aucun doute la transcription de ses expériences et de ses rencontres. C'est "l'accent du vécu" (2) qui distingue les images littéraires et impersonnelles des premiers écrits de Malraux de ses ouvrages ultérieurs. Dès 1926 (*La Tentation de l'Occident*), l'oeuvre de Malraux ne sera que "les mémoires imaginaires" (3) de ses propres aventures. Un de ses personnages déclare :

"Comment veux-tu qu'on comprenne les choses autrement que par les souvenirs" (4).

En effet, la plupart de ses héros, aventuriers ou politiques, s'enga-

1. Lettre de Malraux à Gaëtan Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de *Malraux par lui-même* de G. Picon, Paris, Editions du seuil (Editions récentes).

2. G. Picon, *Malraux par lui-même* p.14.

3. Georges Mounin, "Les Chemins de Malraux", *Les Lettres Françaises*, 7 juin 1946.

4. André Malraux, *La Condition humaine*, Paris, Gallimard, 1933, in- 16, 493 p. Edition consultée Gallimard, Collection Folio, 1946; p. 176.

"Tout art est un système d'ellipses" (1).

On a souvent comparé la technique de Malraux à une vision nettement cinématographique. (2) Le roman revêt la forme d'une série de tableaux dont la succession et la variété donnent une impression de vérité de profusion (3). L'oeuvre oscille constamment entre les scènes d'action et les scènes de réflexion, le reportage et la philosophie. On passe sur un déclic de l'état d'insurrection à l'état de recueillement. Tchen, après avoir effectué son meurtre s'interroge sur le sens de son acte, sur la valeur de la vie humaine... Le dialogue entre Kyo et May discutant à propos de l'amour est brusquement interrompu par l'intervention de Clappique rapportant un document pour le vol de munitions sur un bateau. A peine avons-nous quitté Gisors qui méditait sur le sens de la vie, le recours à l'opium, ses sentiments pour son fils, que nous tombons abruptement sur des révolutionnaires qui attaquent un navire.

PARALLELISME DE L'OEUVRE ET DE LA VIE

Alors que *la Voie Royale* et *les Conquérants* ne mettaient en scène que deux ou trois protagonistes, *la Condition humaine*, comme son titre l'indique, fait revivre un monde vivant et actuel celui de la Chine en 1927. La scène se passe essentiellement à Shanghai parmi les groupes d'insurgés qui préparent la Révolution. L'intrigue est fort complexe et l'on pourrait même dire qu'il y a autant d'intrigues que de personnages principaux (4). La Révolution chinoise varie suivant

1. Cité par Henri Dumazeau, *La Condition humaine* de Malraux Paris, Hatier, Collection "Profil d'une oeuvre", 1970. p. 68.

2. *La Condition humaine* devait être filmée par Eisenstein, avec musique de Chostakovitch, mais la dictature stalinienne empêche la réalisation du projet. Une adaptation de Han Suyin devait être tournée en 1970 par Fred Zinnemann mais elle resta sans suite. Meyerhold voulut adapter le roman pour le théâtre avec musique de Prokofiev. Ce projet ne s'est pas réalisé non plus. En France, *La Condition humaine* a été adaptée par le théâtre en 1954 par Thierry Maulnier et Marcelle Tassencourt. La dernière scène a été écrite par Malraux lui-même.

3. Georges Pompidou, *Pages choisies d'André Malraux*, Classiques illustrés, Vauboudolle, Librairie Hachette, 1955.

4. Joseph Hoffmann, *l'Humanisme de Malraux*, Paris, Librairie Klincksieck, 1963. p. 157.

"Ce livre, qui, en revue m'apparaissait touffu à l'excès, rebutant à force de richesse et presque incompréhensible à force de complexité... il semble, à le relire d'un trait, parfaitement clair, ordonné dans la confusion d'une intelligence admirable et, malgré cela (je veux dire : malgré l'intelligence) profondément enfoncé dans la vie, et pantelant d'une angoisse parfois insoutenable". (1)

Car le roman est morcelé en divers épisodes qui se succèdent sans transitions et sans explications. Il n'y a pas de liaison narrative explicite entre les différentes scènes. Seulement quelques indications de date et d'heure qui, loin de renseigner le lecteur, témoignent au contraire d'une négligence délibérée des liaisons. En recopiant ces indications, on pourrait établir ce qui semble être le plan du livre :

Première partie : 21 mars 1927 : minuit et demi; une heure du matin; 4 heures du matin; 4 heures et demie du matin.

Deuxième partie : 22 mars : Il heures du matin; 1 heure après midi etc.

Puis brusquement la troisième partie le 29 mars; les quatrième, cinquième et sixième parties le 11 avril. La septième partie nous transporte à Paris en juillet et l'Épilogue se déroule à Kobé.

Ainsi à la classique continuité du récit se substitue une juxtaposition de chapitres mettant en scène des personnages différents en des lieux divers. On passe sans préambule d'un épisode à l'autre. Et les critiques affirment que l'oeuvre de Malraux a véritablement amorcé "une conception révolutionnaire de la littérature", "un sur-roman" "qui ne serait plus de consommation pure, mais réaliserait comme une coopération, dans la production de l'écrivain et du public, celui-ci étant invité à contribuer par un effort de prolongement et de reconstruction à la création de l'oeuvre"(2).

Malraux lui-même rend parfaitement compte du discontinuisme fondamental de ses oeuvres dans cette formule lapidaire :

1. André Gide. *Journal*, 10 avril 1933. *La Condition Humaine* fut d'abord publiée en revue, donc par parties séparées, dans les numéros de la *Nouvelle Revue Française* du début 1933. Le roman parut en volume aussitôt après.

2. Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur". *Esprit*, octobre 1933.

IDEOLOGIE ET STRUCTURE DANS "LA CONDITION HUMAINE DE MALRAUX"

AZZA HEIKAL

UNE REVOLUTION EN LITTERATURE

Le XX^e siècle rompt avec la tradition du roman artificiellement agencé où les événements se succèdent de manière cohérente. Les routines du roman d'analyse et du roman de mœurs sont mises en procès. A la psychologie conventionnelle et à la description rigoureuse s'oppose une nouvelle forme de roman qui n'est pas une peinture exhaustive mais une énigme. R. — M. Albérés déclare avec juste raison :

"Un roman de Flaubert ou de Zola était *conté*. *La Condition humaine* est *vécue*".(1)

Alors que Balzac, Flaubert ou Zola commentaient et expliquaient l'évolution psychologique des personnages en fonction d'une conclusion qu'ils connaissaient déjà, dans l'oeuvre de Malraux ces commentaires sont sous-entendus. Nous ne savons rien de plus que ce que voient, sentent et pensent les héros et l'auteur n'intervient jamais dans le récit pour les élucider.

Dans *la Condition humaine*, les personnages ne se dégagent jamais avec netteté. Ils se composent graduellement, se déforment, se reforment, gardent toujours leur mystère, tout à fait comme, dans la vie, les personnes que nous rencontrons et que nous ne pourrions jamais connaître réellement. Car il ne s'agit plus de présenter des êtres dont il faudra, en fin de compte, trouver une explication rationnelle, mais un réseau d'indéterminations, un monde relativiste et discontinu.

La Condition humaine qui est reconnu à l'unanimité comme étant le plus célèbre roman de Malraux, parut en 1933 et obtint le Prix Goncourt. L'action y est dense et fortement concentrée dans le temps. Le caractère touffu de l'oeuvre est nettement souligné par cette déclaration célèbre d'André Gide :

1. R. — M. Albérés, *Histoire du roman moderne*. Paris, Editions Albin Michel, 1962, p. 130.

- Seager, W., *Paideia*, Oxford, 1938.
- Sedgefield, W. J., *Boeth. Cons. Phil.* (Alfred's Transl.), Oxford, 1900.
- Skeat, Walter W., *The Complete Works of Geoffrey Chaucer*, 7vols., Oxford, 1897.
- Smith, J. C., & De Selincourt, E., *The Poetical Works of E. Spenser*, O.U.P. London, 1940.
- Speath, J. D., *Old English Poetry*, Phoenix, Princeton, 1922.
- St. Augustine, *De Doctrina Christiana*, transl., Dr. Marcus Dods, 15 vols., Eding
- St. Hieronymus, *Epistles*, ed. J.K. Fotheringham, 1923.burgh, 1880.
- Talbot, E., *Oeuvres Completes de Plutarque*, Paris, 1912.
- Tertulian Quintus, *Ad Nationes*, transl. Clark's Ante-Nicene Christian Library
- Tickner, F. J. *A Shorter Milton*, London, 1938.
- Zeller, E., *Phil. der Griechen*, Tubingen, 1875.

BIBLIOGRAPHY

- Allen, T. W., *Homeric Hymns*, London, 1904.
- , *Homer*, London, 1924.
- Atwood, E. B., *Dares and Dyclys*, "The Rawlinson Excidium Troiae", in *Speculum*, 9, 1934.
- Blake, N. F., *The Phoenix*, Manchester & N.Y., 1964.
- Bryce, A. Hamilton, *The Works of Virgil*, London, 1930.
- Bush, D., *Mythology and the Renaissance Tradition in English Poetry*, Minneapolis & London, 1932.
- Chapman, G., *Homer's Iliads and Odysseys*, ed. R.H. Shepherd, London, 1924.
- Clark, W. G. & Wright, W.A., *The Works of William Shakespeare*, Macmillan London & Cambridge, 1867.
- Dante, *Divina Commedia*, transl. & annotated ed. of Grandgent, Boston, 1913.
- De Boer, C., *Ovid Moralise*, Amsterdam, 1915.
- Donaldson, E. T., *Chaucer's Poetry : An Anthology for the Modern Reader*, N.Y., 1958.
- Gerig, J. L. & Van Roesbroeck, C. L., "Unpublished Letters of Pierre Bayley", *The Romantic Review*, 1933.
- Grant, M., *Roman Readings*, Penguin, 1967.
- , *Greek Literature in Translation*, Pelican, London, 1973.
- Griffin, N. E., *Historia Destructionis Troiae*, Cambridge, Mass., 1936.
- Hubau, J. & Leroy, M., *Le Myth du Phenix dans les Litteratures Grecque et Latin*, Paris, 1939.
- Langlois, E. *Origines et Sources du Roman de la Rose*, Paris, 1891.
- Lotspeich, H. G., *Classical Mythology in the Poetry of E. Spenser*, "Princeton Studies in English", Princeton, 1932.
- Meres, Francis, *Polladis Tamia*, 1598.
- Murray, A. T., *Homer : The Iliad (with a transl.)*, London, 1957.
- Patch, H. R., *The Tradition of Boethius*, N.Y., 1933.
- Peacock, L., *Works*, ed. H.F.B. Brett-Smith & C.E. Jones, London, 1934.
- Rebie, J. C., *Suetonius, The Lives of the Caesars*, N. Y. 1914.

The poem *Rhododaphne* is a tale of love and magic in a Greek setting. In it there is abundance of feeling for the picturesque, for the beauties and charms of the ancient mythology and ancient superstition.

The feeling of regret for the silenced voice of mythology found expression in the German poetry of the period. The German writers of the Eighteenth Century admitted the power of Greek myth and poetry. Johann Christoph Friederich Schiller (1759—1809) was profoundly impressed by the vigor and vitality of Greek legends. His ballads *The Ring of Polycrates* and *The Cranes of Ibycus* and several of his odes to hypostatized ethical and emotional principles, are in some degree extracted from Greek thought patterned on the deified abstractions of the Greek Pantheon.

The Gods of Greece, written in 1788, is Schiller's most relevant poem. It is a passionate expression of grief for the dead Hellenic gods and goddesses, who have ceased to live only because something within the soul of man has passed away. Once, nature was throbbing with life and the entire world was corporealized deities. Within the vegetable kingdom there was a living dryad. The bird-song in the bush was the painful cry of Philomela. The sun, which is described to us now as a mass of burning gas, was then an aureate vehicle guided by Phoebus, calm and majestic sovereign of the sky. The world now, exclaims Schiller, is nothing but substance. For the Hellenes it was substance instilled with pneuma. Then it signified something; now it signifies nothing. Then it was both human and humanly divine. Now it is sub-human, an object in a hylic and kinetic energy, as the oscillating pendulum. It has neither life, nor beauty, nor divinity.

It is very rare indeed for a poet like Wordsworth to use names of mythical figures in this way, with the kind or resonant rhetoric which had been natural only to poets like Spenser and Milton.

In *Laodamia* Wordsworth treats a mythical subject; the theme of the wife of Protesilaus who was slain by Hector in Troy. Laodamia implores Jove to restore her slaughtered husband to her sight. Her prayers are answered and she is visited, by the Spectre of her dead husband who is led by the winged Hermes:

Forth sprang the impassioned Queen her Lord to clasp:
But unsubstantial Form eludes her grasp.
As often as that eager grasp was made..¹

She prays him to "confirm the vision with a voice". And as she could not part with it for another time, she followed it to the "Shades". This is really one of Wordsworth's rare classical poems. However, the hostile attitude towards mythology was beginning to melt away.

Mythology, the robe of Graeco-Roman imagery, and once the garment of genius was for the time "outworn". But soon, it was revived and resuscitated by the great poets and artists of the Nineteenth Century. The love of Greek and Roman mythologies becomes in some degree a common element in the poets of the period.

Reading the ancients with an awakened imagination, Thomas Love Peacock (1785—1866) found a world of romantic charm that had been hidden from the previous century. He feels nostalgia for the loss of mythology, which he expresses in the following lines :

In Ocean's cave no Nereids dwells :
Nor Oread walks the mountains dwells :
The streams no sedge-crowned Genii roll
From beauteous urn; Great Pan is dead :
The Life, the intellectual soul
Of Vale, and grove and streams, has fled
For ever with the creed sublime
That nursed the muse of earlier time ².

1. *Laodamia*, The English Parnassus, Oxford, 1940.

2. *Rododaphne*, cant III

Obviously this was in line with the poet's own theory expounded in his *Lyrical Ballads* in 1798, but he held less closely to it in his later years.

In a poem entitled *The World is too much with Us* written in 1806, and in a mood of hostility towards contemporary materialism, Wordsworth could not refrain from expressing his suppressed enthusiasm for the mythical past.

In the poem he taunts his contemporaries for destroying their own souls. They think of nothing, he says, but making money and spending it; and in exchange for it they have given away their hardened and worthless hearts. They are incapable of feeling the grandeur of nature; the moonlit sea, the winds and the calm. They are out of tune and in a sudden fit of exultation he shouts :

Great God. I'd rather be
A Pagan, suckled, in a creed outworn;
So might I, standing on this pleasant lea,
Have sight of Proteus rising from the sea;
Or hear Old Triton blow his wreathed horn

He would rather be a "Pagan" believing in the deities of Hellas, for the Hellenes not only felt the beauty of the external world but peopled it with spirits.

To wish to be a "Pagan" is however, instantly checked by the realization that, however consoling, the belief in paganism, would be "outworn", credible only for one born to it, and "suckled" in it but of not deep comfort to a man like himself. Yet he goes on to imagine what it might be like to hold such a belief. "Great God" is an utterance of regret and nostalgia rather than a violent protest.

The spot where the poet is standing grows "pleasant" at the thought or vision, though beheld only in "glimpses" and grows on him to a kind of half-belief after all. However, it ends with the reverberating climax which is almost like full-belief in the old deities of the sea, Proteus, and Triton.

1. *The World is too much with us*, ll., 9-14 *Fifteen Poets*, Oxford, 1941.

However, during the Eighteenth Century the poets had acquired the habit of letting the Greek and Roman legends perform the function of creation for them. Instead of composing something new, instead of directing their eyes to the world with an examining and attentive eye, the poets of the period were very often satisfied with the use of ready-made mythological images already hackneyed. For instance, instead of giving a graphic sketch of a moonlit garden with its nightingales, they would say that the pleasant and nectareous effect of Diana fell over the groves of the semi-divine maidens, who were still and quiet, hearkening at the heart-burning complaint of Philomela.

Now, the mythical nymphs and moon-maidens and the myth of Philomela are strong romantic fancy-led stimuli, and have been inspiring good poetry for nearly three thousand years. But legends, however beautiful, are not sufficient to produce a poetry without fresh imagination; and in that period too many writers were inventive imitators lacking imagination.

Against this bad effect of the influence of mythology in literature, there was a reaction, particularly in England. The reaction was not really against the classics and mythology as such, but against the lack of imagination characteristic of the age, particularly against the conventional practice of utilizing mythological clichés, as bee-lines to fanciful expression.

This is referred to by Lord Macaulay in his essay on 'Frederick the Great' where he speaks of mythology as a frippery and he likens the discarded use of mythical figures and legends to a robe tossed by the genius to mediocre poets. This habit, Macaulay maintained, had been abandoned.

The same idea also occurs in Wordsworth's note on his return to classical mythology in the *Ode to Lycoris*, 1817. "No doubt", Wordsworth states :

the hacknied and lifeless use into which mythology fell towards the close of the seventeenth century, and which continued through the eighteenth century, disgusted the general reader with all allusion to it in modern verse; and though, in deference to this disgust, and also in a measure participating in it; I abstained in my earlier writings from all introduction of pagan fable, surely even in its humble form, it may ally itself with real sentiment.

ideas — Dante's *Comedy* and Milton's *Paradise Lost*. In them all the Christian creed is the indispensable operating element. But in none of them could Christianity have been so well enunciated or so definitely stated without the heathen vehicles of mythology and epic.

Dante hit upon no Christian instructor able to lead him through the terrors of the inferno and the disciplines of 'Purgatory' towards his spiritual love, Beatrice in heaven. He was guided by the pagan Vergil. At the start of his *Paradise Lost* and again later in the poem, Milton summoned the aid of Heavenly Muse, who was really the spirit of Christianity, but embodied in a pagan shape. There are no Muses in the Old Testament. They originally come from mythology.

Greek and Roman mythology as presented by art and literature may act as a restraining force. This was another argument put forward by the upholders of the classical tradition. It is welcomed as such, they stated, because mythology is very rarely as grotesque and ignoble as much medieval art. This becomes apparent if we draw a comparison between the chastiment of the damned souls in the Graeco-Roman underworld and the more vulgar and undignified cruel inflictions of the severe bodily pains on the damned souls in Dante's Hell.

Therefore, this paradigm can aid contemporary people to reject or reduce to a minimum the baseness which is deeply rooted in every human nature, at the apparent loss of individuality, in order to achieve nobleness. The psychologists, with their subtle ways of thinking have realized that properly utilized mythology, will purify the heart and raise the soul.

Despite the resistance of the moderns in the works of the various artists during the Seventeenth and Eighteenth centuries Greek and Roman mythology did play an important part. It supplied themes, which ranged all the way from tragic stories, to small decorative motifs on a vase, a wall, or a cabinet. Racine's greatest heroine was a pre-historic Greek princess 'Iphigenia' who was to be sacrificed to appease the wrath of Diana. The goddess however, moved by her innocence bore her away to Taures and entrusted her with the care of the Temple. The greatest English composer of the Seventeenth Century Purcell composed one of the finest operas about *Dido and Aeneas*, in which Aeneas, by order of the gods, forsakes Dido who eventually kills herself.

One of the arguments against them was that the early history and myths of Greece and Rome, when perused at without historical and imaginative perspective, are found to contain many incongruous or illogical paralogsms and incompatibilities. In an epoch of legends, when an unusually courageous individual or an exceptionally good-looking woman becomes well-known, narratives from the lives of other people are soon spun together with the names of the hero or heroines in question, whether they are in accord with the other facts or not. Local gods and goddesses are, through time, treated with other well-known deities indistinguishably as one, and then they gain variagated paradoxical characteristics. When all the myths are written down some of them are manifestly contradictory. It is not difficult for a clear-headed reasonable individual to reach the conclusion that they are all nonsense. Pierre Bayle, (1647-1706) the critic of religion and legend, was amongst those who took this view.¹

Another argument was that the Greek and Roman writers were silly because one of their dramatic conventions was the introduction of gods into human conflicts. Lucan, the Roman poet, thought so as early as the first century A.D. and composed an epic which made no use of deities.

These were not the only ones to fight the gods of Greece and Rome in literature. It will be remembered that the forger who had brought Dares Phrygius before the public stated that his work of art was genuine because no deities made their appearance or intervened in the actions of men.

Still, it is not easy to write on sublime themes without inserting the supernatural, and in a critical epoch the appearance of tangible and audible divinities can always be made to look ludicrous.

However, William Wotton, an important Cambridge man at the time was one of the authorities concerned with the dispute. In his *Reflections Upon Ancient and Modern Learning* (1694) he opines that it is to the advantage of the Christian creed to utilize the best of heathen mythological literature in order to transform and transcend it. Two of the greatest modern heroic poems are all amalgamations of Pagan and Christian thought and mythology, with an ascendancy of Christian

1. See J.L. Gerig and G. L. van Roosbreck, "Unpublished letters of Pierre Bayle" (section 10). *The Romantic Review*, 24, (1933), 211.

It is true that this art has been misused. Many poets have employed "imitation" and "allusion" as props to uphold an unsatisfactory structure of imagination or as a display of erudition made specifically to decorate the commonplace. Yet, when suitably utilized, the art is wonderfully impressive. It is not different from the art of imagery. When a poet presents his allusion he adds something to it, and for the alert reader it evokes a scene more graphically, exhibits more clearly all the power of the incident, and ennobles both the poet and his creation.

Generally speaking, these allusions give profundity to the significance, and add a fresh charm or magic: the charm of recalling the past. They replace poignant utterances, and have the adscititious magic power of reminiscence: for the reader who knows his mythology experiences a novel sentiment. Another chord pulsates in his heart as he identifies the figure or the incident. The significance is also enhanced with variations without any more direct description other than the laconic allusion to the legendary hero. He makes us live in a climate of agony, heart-ache, forboding, failure or success.

In addition to power and richness, the allusion achieves its highest effect with its variegated imagination or deep philosophical content. It extends far back into the bygone and has the future in prospect. It operates on the feelings, makes use of many arts, embraces the achievements of several ages and nations, in order to project the potentialities, vigorousness and complexity of human life.

The poets have recognized this intrinsic power of the old legends and have felt in particular the authority of Graeco-Roman myth. They have known all along the splendour of Graeco-Roman poetry which embodied the art of mythology, and they have realized that the myths of Greece and Rome, so far from being lifeless fossilized palaeontology, are much of a living past throbbing with life, of which the Western world is a continuum and therefore they have enriched their own heritage by emphasizing that continuity.

A PERIOD OF CONTROVERSY

When the famous dispute commonly known as "The Battle of Books" broke out in the Seventeenth and Eighteenth Centuries, it created agitation in literature and classical scholarship. The question was this — Ought modern writers to admire and imitate the Greek and Latin works of art with their deeply-rooted mythological paraphernalia ?

garden from which Milton could not omit the Greek nature-spirits of mythology :

Pan,

Knit with the Graces and the Hours in dance,
Let on the eternal Spring. Not that fair field
Of Enna, where Proserpine gathering flowers,
Herself a fairer flower, by gloomy Dis
Was gathered-which cost Ceres all that pain
To seek her through the world-nor that sweet grove
Of Daphne, by Orontes and the inspired
Castalian spring, might with this Paradise
Of Eden strive¹.

Myths and legendary figures have been employed as a medium of reminiscence and evocation. Thus, in half a sentence, or a word, the poet does not only give pleasure to his readers by inducing them to recollect a phrase, an image or an incident of comparatively marked magnificence, splendour, or nobility, but also evokes all the gorgeousness, richness and grandeur of the object or person or place in question.

The art of mythical evocative quotation is not an easy art. It has been disreputed by either the misuse it was put into by scholarship or by the impairment of the significance of mythology: for readers are not often prepared to believe that, in order to appreciate poetry they themselves ought to have been as much erudite as the poet himself. They also believe, and in this instance they are not in the wrong, that looking for "allusions" and "imitations" spoils the life of poetry, altering it from something throbbing with life into a pseudomorphic spurious fabric of an imitated reproduction of variegated pigments and pilfered patent.

Still, there is no doubt that the reader who can identify these evocations without difficulty gets a fuller understanding of the text than the others. Set against the classically trained reader of Milton-the reader who has never concerned himself with the classics is not different from a child reading a novel for the narrative only without comprehending the greater and ultimate meanings that are obvious to every full-grown person.

1. Ibid., 4. 266f.

figures also as one of the characters in Shakespeare's *A Mid-Summer Night's Dream*. The other example was the bare-breasted queen of the Amazons, Penthesilia, killed by Achilles, who, moved by her youth and beauty, mourned over her.

Quite a number of poems also invoke one or more of the Greek Muses. Such invocations appear as early as Dante himself, particularly in his *Paradise* (l. 13 f.), where Apollo is invoked with an appeal to his own exploits.¹ Similarly Spenser, in his *Epithalamion* calls on the Muses :

Ye learned sisters which have oftentimes
Beene to me ayding, others to adorne :
Whom ye thought worthy of your gracefull rymes,
That even the greatest did not greatly scorne
To heare theyr names sung in your simple layes,
But joyed in theyr praise . . .²

Ben Jonson too, in his dedicatory poem to the Sweet swan of Avon for what he left us, leaves no doubt as to the power of the Muses and the Myths;

He was not of an age, but for all time.

And all the Muses still were in their prime,
When like Apollo he came forth to warme
Our cares, or like a Mercury to charme.³

The performances of contemporary figures are constantly compared to those of Greek and Roman mythical figures. Thus, in *Paradise Lost* Satan was

in bulk as huge
As whom the fables name of monstrous size,
Titanian, or Earth-born, that warred on Jove,
By ancient Tarsus held . . .⁴

Wonderful spectacles are set in analogy against the splendours emerging from the legendary tales. Even *Paradise* is so shown : the

1. Dante, *Paradise*, 2. 8. 18. 82f.

2. Spenser, *Epithalamion*, 1—19.

3. Ben Jonson, *To The Memory of Mr. W. Shakespeare* 11., 43—46.

4. *Paradise Lost*, 1., 196f.

had not soon
 The Eternal, to prevent such horrid fray,
 Hung forth in Heaven his goldens scales, yet seen
 Betwixt Astraea and the Scorpion sign
 Wherein all things created first he weighted

In these he put two weights,
 The sequel each, of parting and of fight :
 The latter quick up flew, and kicked the beam.¹

This was never the way Jehovah would have behaved; but it would have been Zeus' who actually behaved in this way for Achilles and Hector in the *Iliad*², and Jupiter for Aeneas and Turnus in the *Aeneid*.³ Milton introduced the reference to the serviceability of the scales in the work of creation.

Whole episodes from Graeco-Roman mythology are imitated and adapted. Some of these adaptations are of the highest artistic and spiritual significance. Such, for instance, are the calling up of the heroic dead and the prophetic utterances of the great who were yet to be born. In the *Fairie Queene*, Spenser makes Merlin foretell the future of Britain to Britomart. And in *Paradise Lost* we meet with the greatest of all apocalypses, where one angel discloses to Adam the whole past and another the whole future⁴. This spectacle is an adaptation from the journey Aeneas had made to the underworld and which gave him his vision into the future of Rome⁵.

Various graphic characters of Renaissance epics are copied from, or partly inspired by the figures of Graeco-Roman legends. For example, the warrior maiden, lovely swift, powerful and brave, who gives battle on the opposing side and performs acts of bravery, is conquered, but at the same time breathes in strong sympathy and sorrow in one of the antagonistic personages. Britomart in Spenser's *Fairie Queene* is such a heroine. The prototype for such a redoubtable maiden was Hippolyta, whom Theseus defeated and whose virgin girdle he took when she went to the aid of the Trojans after the death of Hector. Hippolyta

1. Milton, *Paradise Lost*, 4., 990 f.

2. Homer, *Iliad*, 8 69—77.

3. Vergil, *Aeneid*, 12. 725 — 7.

4. Milton, *Paradise Lost*, 5. 563 — 7, 649.. 11., 423 — 12, 551.

5. Vergil, *Aeneid*., 6. 751—88.

epics makes such supernatural properties essential in its plot. Nevertheless classical mythology is blended with it to provide significant ancillary material.

In *Paradise Lost* Milton conceives his divinities in the image of the Olympian pantheon. Gods and angels and even their appearances are largely described in mythical terms invented by the classical epic writers. For instance, When Milton's archangel Michael appears to drive out Adam and Eve from Eden, he is in complete uniform; dressed in a military vest of purple painted by the Hellenic deity of the rainbow :

Iris had dipt the woof.¹

And when Raphael descends to caution Adam of the tempter's approach he looks like the scriptural Seraphs, wearing six wings; but two of them are on his feet, like those of Hermes, to whom he is then likened :

Like Maia's son he stood² .

This is a reminiscence of Mercury as he was landing on Mount Atlas :

hic primum paribus niteus Cylinus alis constitit.³ .

In *Paradise Lost*⁴ there is a dreadful armed conflict between the angels and the devils. This conflict is an imitation of the battle of the gods in the *Iliad*⁵. The subversion of Satan is framed on the subversion and the defeat of Ares when the devils fall for nine days—; and the apex in which the angels break mountains and send them forth with violence onto the devils, 'with ejection dire', is modulated from the war of the Titans against the Olympians in Hesiod's *Theogony*.

Milton's God operates in a way quite different from that of Jehovah. He behaves more or less like Zeus. Thus, when Satan comes near Paradise he is ordered by Gabriel and his heavenly host to halt, and there would have been a clash

1. *Paradise Lost*, 11. 244.

2. *Ibid.*, 5. 285.

3. Virgil, *Aeneid*, 4. 252.

4. 6. especially 11., 637 f.

5. 11., 20 — 1.

Or in Hamlet's father,

See, what a grace was seated on this brow;
Hyperion's curls, the front of Jove himself,
And eye like Mars, to threaten and command,
A station like the herald Mercury
New lighted on a heaven-kissing hill¹

It is true that Shalespeare felt more sensitively about Rome than about Greece, but with Greek mythology it was otherwise. The images which emerge from the handmade manuscripts to become as real as animals and colours and stars — are used strikingly. This shows that the world of mythology was for him no less vivid, though smaller than life around him.

Waiting for her wedding night, Juliet gazes at the bright sky, sees the sun rushing on towards evening, and urges it to hurry, even at the risk of destroying the world. Apparently she does not say so: but it is implied by the superb image :

Gallop apace, you fiery-footed steeds
Towards Phoebu' lodging; such a waggoner
As Pheathon would whip you to the west,
And bring in cloudy night immediately.²

Greek mythology provides a great deal of the supernatural element for a poet like Milton. In order to understand all of this poet, one must be a classical scholar. The supernatural is an essential part of his epics and gives the heroic deeds their spiritual background.

However, most of the supernatural element is taken from the medieval fantasies : magic, enchanted objects, fabulous animals such as flying hippogriffs. Many of these things are paralleled in Greek legend : the winged horse Pegasus is like the hippogriff, the ring of Gyges made him invisible and so on. But none of the great classical

1. *Hamlet*, 3.4. 55f.

2. *Romeo and Juliet*, 5.2 1f.

The myth of Pheathon is in Ovid's *Metamorphoses*, l. 748—2. 332; "waggoner" is the Elizabethan translator Golding's word for the young charioteer, and no doubt Shakespeare remembered it.

“As the soul of Euphorbus was thought to live in
Pythagoras, so the sweet witty soul of Ovid lives in
mellifluous and honey-tongued Shakespeare; witness
Venus And Adonis¹

This is obvious in the rich interlarding and elaboration of the two Greek myths which he came across in Ovid's *Metamorphoses*²

Venus and Adonis, published in 1593, is a highly sensuous work of art and it was probably Shakespeare's first work. Venus, in love with the youth Adonis, detains him from the chase and woos him, but cannot win his love.³ She begs him to meet her on the morrow, but he is then to hunt the boar. She tries in vain to dissuade him. When the morning comes she hears his hounds at bay, and, filled with terror, goes to look for him, and finds him killed by the boar.

In Ovid's tale, Adonis is not indifferent and unwilling as Shakespeare makes him. Shakespeare appropriated his opposition to the erotic activity and his posture of defence from Ovid's account of Hermaphroditus and Salmacis.³ The two accounts however, merge together entirely in *The Passionate Pilgrim*, 6 where Adonis jumps into a river and Venus cries, O Jove, why was not I a flood ? — for Salmacis jumped in after her beloved. The two joined and both became a flood.⁴

In Shakespeare's early plays references to mythological figures or legends are very frequent. In fact, they are very densely scattered. Mythology apart from being utilized in the nature of decoration, the poet used it in order to show off or make a display of his knowledge. Very often he uses it in order to establish contact with the classically cultured audience or in order to impress the public.

1. Meres, *Palladis Tamia* : Wits Treasury, 280.

2. In Ovid's tale Venus and Adonis — 10. 519 — 59 and 705—39.

3. *Met.* 4. 285—388.

4. See D. Bush for a detailed analysis of the treatment of Adonis; cited in introductory note, p. 139f.

laden with fruit hangs above his head but withdraws from his hand. All this because he has stolen nectar and ambrosia from the table of the gods and gave them to mortals.

Again, in the *Fairie Queene*¹ the evil recluse Archimago summons Hecate and Gorgon by magic and sends a fairy to Morpheus for a sham dream. The fairy goes away through an ivory door. This again crops up in Virgil's *Aeneid*². There are a few good comments on Spenser's description of hell and their debt to Vergil in M.Y. Hughe's *Virgil and Spenser*³.

In the *Fairie Queene*⁴, Una is set free from her captor Sansloy by a passing group of fauns and satyrs. Satyrs appear in Spenser's epic and very often embark on satyric activities. When a bad spirit is called in, it is usually a classical spirit. This blend of medieval and Graeco-Roman is a deliberate device all through Spenser's poems.

As for Shakespeare, he dominated the classical material which he had access to, moulded, blended and changed it through his creative imagination and made of it a synthesis which, like a chemical compound of known elements was nevertheless, qualitatively different and genuinely new.

He knew, one would daresay without reservation, the classical myths far better than the Bible. And his favourite classical writer was Ovid. If he had not, like other English schoolboys of the time, learned some of Ovid at school, he definitely read him later in the original latin and certainly in Golding's translation of the *Metamorphoses*. His friends knew that he very often imitated Ovid, making him, so to speak, a launching pad for his creative work.

In his book of contemporary literature published in 1598, Francis Meres declared that Shakespeare was a re-incarnation of Ovid himself :

1. I.1., 37f.

2. VI. 894—9.

3. University of California, Publications in English, 2,3. Berkeley ; 1929, p. 371 f.

4. 1., 6.

The English Renaissance is very often described as Classical in the field of literature. Through the medium of Latin, Greek myths and legends became widely known in England. Ovid's elements of transformation in *Tales*, in which people could be changed into beasts, plants and stars afforded a useful expediency. The Elizabethan readers could not avoid reading about mythology which, in fact, had crept into all the aspects of their lives. There were painted cloths hanging on the walls, pageantries, tableaux covered with figures and incidents from mythology. And almost all Elizabethan writers wrote on subjects connected with Greek and Roman myths. Edmund Spenser (1552—99) and Christopher Marlow (1563—93) were two poets of the period whose poetry disclose a wide knowledge of mythology.

Spenser depended heavily on two manuals of mythology: Boccaccio's *Genealogia deorum* and *The Mythologie* of Natalis Comes, using their comments and quotations freely.¹

In his *Shepherd's Calender* (Aprile), Syrinx represents Anne Boleyn. She is an Arcadian nymph who, being pursued by the God Pan, threw herself into the river Ladon, where she was changed into a reed. Of this Pan made his pipe. No one could find any difficulty in understanding the analogy between Syrinx, Anne Boleyn and God Pan, Henry VIII, if he knows a little of history and mythology.

Greek mythology is blended with medieval life and thought in order to provide *ancillary material*. This is done deliberately in the *Fairie Queene* where hell as Spenser describes it is almost entirely the Greek and Roman underworlds. For instance, in 1.5 Sansloy, the deceased pagan is led down through the identical places and past the same persons, as those mentioned in *The Aeneid* such as Tityas, Tantalus and others. There, he is made well by Aesculapius the Greek Deity of health. Tityas was a giant of Greek mythology who attempted to do violence to Leto Latona but was killed by the arrows of Apollo and Artemis her-children. He was placed in hell, where a serpent continually tormented him.

Tantalus, on the other hand, is the son of Zeus. He is represented as punished in hell with an intense thirst and placed up to the chin in a pool of water which recedes when he attempts to drink, while a bough

1. H.G. Lotzpeich, *Classical Mythology in the Poetry of Edmund Spenser*, Princeton studies in English, 9, Princeton, 1932.

Of Ector and king Priamus,
 Of Achilles and Lamedon,
 Of Medea and of Jason,
 of Paris Eleyne and Lavyne.
 And all the walles with colours fyne
 Were peynted, bothe text and glosse,
 Of al the Romances of the Rose¹.

Many of Chaucer's poems were derived from Graeco-Roman literature which was inseparable from mythology and this was due to his knowledge of French and Italian. His *Romaunt of the Rose*, a poem of 7700 lines in short couplets is a translation with amplification, of so much of the french *Roman de la Rose*.

The narrative is set into the structure of a dream in which the poet calls at the Garden of Mirth, after he had been invited by Idleness. Here he witnesses different allegorical figures, the God of Love, Gladness, Courtesy and son on. In the water of the fountain of Narcissus, he sees the reflection of a rose-tree and is enamoured of a rose-bud. His attempts to pick it up are helped or hindered by different allegorical figures. The god Eros shoots arrows at the poet and brings him under his spell. He then instructs him as to the means by which the lover achieves his ends. The poem is a vigorous satire on religion, women and the social order of the times.

A gain in the *House of Fame*, he saw the temple of Venus with the stories of the *Aeneid* engraved on its walls. Just so had Aeneas, at the most critical moment of his errancy, his first landing in Italy. He saw the story of Minos and Daedalus and Icarus-an earlier escape from foreign hegemony into exile with an earlier landing in Italy-picture on the doors of Apollo's prophetic temple at Cumae.

The most remarkable classical author Chaucer had read was Valerius Flaccus, the author of an epic on *The Argonauts*. Chaucer is the first English writer who speaks of it in *The Legend of Good Women*, 1., 1457; he refers to the list of Argo's crew as "a tale long y-now" and in the same legend Chaucer describes the landing of the Argonauts in Lemnos.

1. Chaucer, *The Dream*, The Book of the Duchesse.

The material provided by Greek and Roman mythologies has been put into a variety of uses. There are many aspects of it. It has taken the form of decorative landscapes as in the case of Chaucer, or provided important ancillary material as in Spencer's work. Shakespeare has also used it as a decorative reference, while Milton, in order to give a supernatural and spiritual background to his religious epics has crowded his poetry with legends and mythological allusions, so as to give it profundity and be able to drive his point home.

In the Renaissance epics mythology is all-pervading. It is not predominant in them all; but it is one of the main pre-suppositions without which they cannot be understood or fully appreciated.

When Greek learning came into the hands of the nations of Western Europe, it was a decadent tradition. They were introduced into a culture in which Greek had been forgotten, but its phantasmal heroic past was still within the range of their sight. The result is that their classical landscapes are strange and bewildering. They are merely, decorative landscapes, and in these decorative scenes, the mythology of Greece as learned from Ovid and others is an important element :

The statue of Venus, glorious for to see,
Was naked fleting in the large see,
And from the navele doun all covered was
with waves grene, and brighte as any glas.¹

This is a glimpse of Greek mythology from Chaucer's *Knights Tale*, the greatest of Canterbury stories. This he took from Boccaccio's *Theseid*² after he had naturalized by omitting much of the mythology and epic machinery and added a great deal of material of his own, to make these stories more expressive of real life. And if we dallied around for a while with the poet's travellers on their way to Canterbury, we would learn many things of ancient history, the history of Troy, and Thebes and about their mythical background.

One May morning Chaucer dreamt that he was awakened by the singing of birds and found himself in a chamber with windows of stained glass in which were depicted the narratives :

1. Chaucer, *The Knights Tale*, 11., 1097—1101.

2. A poem on the story of Theseus, Palamon and Arcite, translated by Chaucer

rediscovery of a wealth of material provided by the Classical history and mythology, which stimulated the great production of masterpieces in literature.

In the fourteenth century, after a splendid start, French literature almost faded away, because France was involved in the Hundred Years' War. Italian literature had begun its magnificent motion upward with Dante and kept it up with Petrarch and Boccaccio. But England, after an interminable strife, was coming at last into being. Although it had its plagues and troubles in the fourteenth century, it developed its own character, building it up with the native material as well as with that acquired from the Graeco-Roman culture with its many-sided learning and vigorousness, with mythology playing a prominent part in the development of its literature. This is best exemplified in Chaucer, the father of English poetry and the poets that followed suit.

TRADITION IN FULL FLOURISH

Although the Renaissance uncovered a vast treasury of new material to the Western European writers in the shape of history and mythology, some of it was not unknown in the Middle Ages but was not so fully conceived as real or apprehended clearly. Now writers laid hold of this accumulated wealth and utilized it for their ends so eagerly that they often produced gracefully or stylishly polished lumber stuff. One is apt to get weary of their tedious innumerable allusions — which if ordinary are trite — and if scholarly are indistinct; with their ancient analogical procedures and collations every speaker becomes a Demosthenes or a Cirero, every soldier an Achilles or a Hector; and the mythological tools — Dionysus, the Satyrs and Fauns, Artemis and Diana, the nymphs, titans and cupids, which fill up the literature of the sixteenth and seventeenth centuries.

The best proof that the myths created by the Greek fancy are really durable is the fact that they have, so to speak, had nine lives, and outlasted such usages and still excite the imagination of poets and artists in the twentieth century.

and *Romans* in 1579. Shakespeare used it, borrowing its very words as well as its stories. It is not Plutarch, it is a new masterpiece on Plutarch's theme and it came into English, not from the Greeks directly but from the French Jacques Amyot.

By the time the Renaissance had reached its acme in England, churchmen as well as the educated classes were having ample recourse to Graeco-Roman myths. Whether this came about through Ovid's *Metamorphoses* or Virgil's *Aeneid*, or other direct sources, one fact remains true that Graeco-Roman myths had begun to work themselves into English literature. Their dissemination however, outside the scholarly circles had been accomplished. This was partly due to the fact that very often the essential art of poetry was to connect Greek and Roman myths with contemporary life. And myths have enabled the poets to sharpen their lessons, to shed fresh light on them and to magnify each present occasion by placing it with high precedents from the past.

Translations and verse renderings from the Greek and Roman literatures and mythology as well as the activity of discovering Greek and Latin manuscripts during the Renaissance were paralleled by the discovery of classical sculptural and architectural works of art, which had been buried in the ground for hundreds of years. The most prominent discovery was that of the statue of Laocoon which the artists studied and began to copy and emulate its special beauties. It drove scholarship into making a tremendous leap forward, for it represented the very beginnings of the history of a nation. People began to understand and sympathise with the ancients particularly their mythic past.

According to the legend, Laocoon was a Trojan priest of Apollo who, when he was offering a sacrifice to Poseidon, saw two serpents issue forth from the sea and attack his sons. He rushed to their help but the serpents wreathed themselves about him and crushed him. This was said to be a punishment because he had warned his countrymen against admitting the wooden horse into Troy.

The rediscovery of the classical world meant much more to Western Europe than an enrichment of vocabulary, or an improvement of the style by poets, or the discovery of literary forms. It meant a

The Renaissance was a sudden explosive expansion, in which the frontiers of space and time and thought were broken down with bewildering spell. A great part of classical culture, which had lain hidden untouched and neglected, was being re-discovered as though it were absolutely new. And classical scholarship took a tremendous leap forward. People began really to see through and sympathise with the ancients. Difficulties of interpretation, confusions of persons and traditions, silly legends and misunderstandings began to vanish and immense areas of activities were expanded.

The European languages were still further improved by the influx of new words taken directly from classical latin, and to a smaller but still significant extent, from Greek, some directly, others from adaptations already made by the French.

English also assimilated Greek and Latin words but they combined with the Anglo-Saxon and Norman French to make it far richer. There was a deliberate policy of borrowing during the fourteenth century. This was forced upon them as a solution to the problem of translating from a rich language into a poor one. Soon they began to latinize or hellenize french. The English language too, had not begun its life entirely devoid of Greek and Roman influences. Language was still on the making and writers needed to enrich their composition. Graeco-Roman mythology became a pre-requisite for the poet as it was an evidence of his erudition and culture.

One of the first books to come out of Caxton's press was *The History of Jason* in 1477. One other translation printed by Caxton was ovid's *Metamorphoses*,

However, the first serious attempts at a modern verse rendering were made in France, by Hugues Salel, with his 1545 version of the *Iliad*, 1—10, and Jacque Peletier du Maus, who translated the *Odyssey* in 1547. In England Arthur Hale, translated Salel's version in 1581; but his work was soon outdone by the complete rendering made from the Greek by George Chapman, who produced the *Iliad* in English verse in 1611, *The Odyssey* in 1614 and the *Hymns* in 1616.

During the same period there were other translations from Greek history, philosophy, drama, oratory and what not. The most famous of the Elizabethan translations is *The Lives of the Noble Grecians*

Another equally important myth is that of Pygmalion which Jean de Meun took from Ovid's *Metamorphoses*¹ and used it in his *Roman de Rose*² in the thirteenth century.

Pygmalion was a king and a sculptor in Cyprus. He became enamoured of a beautiful statue that he had made of a woman, and at his request Aphrodite the goddess of beauty, gave it life.

The myth of Pygmalion seemed to be a very successful instrument for the illustration of the poet's contemplative design. Several authors reconnoitered its possibilities and found it serviceable. In the Sixteenth century again the story is told by John Marston (1575—1634) in his erotic poem *The Metamorphoses of Pygmalion's* image (1598). In the Nineteenth century William Morris tackles with the same theme in *Earthly Paradise*, in addition to W.S. Gilbert's³ treatment of it as a subject of comedy in *Pygmalion and Galatea*. The last author to have dealt with the story in the Twentieth Century was B. Shaw⁴ in his drama *Pygmalion*.

The darkness that had fallen on Italy and had begun with the severance of Roman from Greek culture lifted and the real dawn was heralded by the return of Greek culture to the lands which had once known it so well. It was in Italy that Greek culture returned first, and it was there that the first of the stimulating rediscoveries were made during the Renaissance.

The people who did most to recapture Greek and retrieve the rest of Latin culture were two Italians, Petrarch (1304 — 74) and Boccaccio (1313—75) who had a second home in France.

The Renaissance was largely created by many interlacing groups of men who spoke not only their own tongue but Latin too, and sometimes Greek. The synthesis of Graeco-Roman with the modern European culture in the Renaissance produced an age of thought and achievement comparable in magnificence to the earlier synthesis between the spirit of Greece and the energy of Rome. Since then, the culture of the civilized European nations have been largely characterized by the teaching of some other language in schools and by the constant flow of translations, imitations and emulations into their literatures.

1. 10.243—87

2. 11., 20817 — 183.

3., 1836—1961.

4. 1867—1930.

it is that the realization of the extreme wishes of mankind usually leads to tragedy.¹

Sometime between 1316 and 1328 Ovid's *Metamorphoses* was translated by an unknown author². It was supplied with intellectual and moral commentary. The author first translated the fables as Ovid gave them and then added on an instructive explanation. For instance, when Narcissus pined away for love of his own reflection and was changed into a flower, he became the flower spoken of by the Psalmist in the old Testament, and so, he was the symbol of vanity and the flower of human pride :

Narcussus florete devint
Florete quel ? Tele dont dist
Li Psalmistres c'au main florist
Au soir est cheoite et fletrie³.

Perhaps only the Middle ages could have blended elements so diverse as the brittle, cynical beautiful Greek legend of Ovid and his Christian moralising.

Guillaume de Lorris, who uses myths in an illustrative way in his *Roman de la Rose* rewrites the tale of Narcissus from Ovid. Although he simplifies it he makes the nymph Echo merely Echoë a great lady and omits the metamorphosis of Narcissus into a flower.⁴

In 1922, in *Fragments of Narcissus*, Paul-Ambroise Valery, used the figure of Narcissus to symbolize "the self" which is happiest away from others, meditating and worshipping the "self-sufficing I". As Narcissus stoops lower and lower to enfold his infatuating reflection, as he comes into contact and fractures the fluid looking glass, and crosses the threshold into the cavernous eyes which grow nearer and nearer to him, he reaches the consummation of self-annuling and self absorption. Valery's main dilemma was that of the mind which dechotomized the external and the internal worlds of contemplation.

1. Homer, *A Hymn to Demeter*, 8, 428.

2. Also in *Ovide Moralisé*, ed. C. De Boer (Amsterdam, 1915).

3. Lines — 1886, *Ovide Moralisé*, 3. 1853 f.

4. *Roman de La Rose*, 11., 1439—1510.

Eccho. "une haute dame" appear : in line 1444.

and others. Two hundred years after its appearance it was turned into French prose by Moline (1483). Forty years later Clement Marot re-edited it, with moral comments which remind us of Ovid's *Metamorphoses*.

It was not only the best of the Graeco-Roman world that came down to England from France in modern adaptations, but also the most trivial. Yet still it stirred the imagination.

There were numerous Middle Eastern tales which were woven into Greek and late Latin Romances and they lived on to inspire that untruthful voyager Sir John Mandeville, to make Rabelais vie with them in the journeys of Pantagruel, and finally to help Othello in bewitching Desdemona with tales of

the Anthropophagi, and men whose heads
Do grow beneath their shoulders.¹

The Middle Ages was the period when many of the favourable Greek myths, like Narcissus, Pygmalion and Philomela entered European and from it into English literature.

Despite the fact that some of the stories are tales of Christian chivalry, by far the greater number are tales from Greek and Roman mythology and most of them come from Ovid who represented a synthesis of Greek and Roman cultures. The transformation of human beings into beasts and stones and trees and water found in Greek mythology, afforded a fertile vast area for its exploitation at the time.

The myth of Narcissus was among the first to enter into European literature through Ovid's *Metamorphoses*. Narcissus was the handsome son of the Athenian River-god Cephissus and the nymph Thespieae, who having rejected the love of Echo the nymph was punished by Nemesis by becoming enamoured of his own image when he saw its reflection in stream. He lay gazing enraptured, into the water. His fruitless attempt to approach this beautiful object drove him to despair and he wasted away.

According to the legend he was changed into a white flower with its red corollary which bears his name. The moral lesson entailed in

1. Shakespeare, *Othello*, 1.3. 144 f.

Le Roman de Troie virtually re-introduced classical history and legend into European culture. It was a seminal book which announced and encouraged a whole new school of poetry and imagination. Among other things, it stimulated the tracing of genealogical connexions.

This book was widely translated and even more widely imitated. To the people of the Middle Ages, most of the world and most of history was unknown : therefore they were ready and glad to believe anything as long as it was marvelous and had a substantial backing. As myth and history received equal credence, there was no essential difference between them. The mythico-historical method in verse writing had developed into a common practice.

There were other sources too; These were the *Romance of Aeneas* and *The Romance of Thebes*. *The Romance of Aeneas* in essence was a rewriting of Virgil's *Aeneid* decorating and disguising its original with mythical details taken from the commentaries of the original work. *The Romance of Thebes* and the *Romance of Alexander* by Lambert Le Tort and Alexandre Burnay were two other books which set the imagination in motion at the time.

Another poem of quite a great impact at the time was the *Roman de La Rose*. It was also a source from which so many legends found their way into literature. It is a French verse romance, of which the first 4000 lines were written about the middle of the thirteenth century by Guillaume de Lorris and the remainder, some 16000 lines, about forty years later by Jean de Meung.

The first part is an allegorical love poem. In the second part, which is of a more satirical character, after a vast amount of display of the author's learning, the lover obtains his rose with the intervention of Venus.

This book had an immediate and long-lasting success. And its wide appeal is proved by the existence of hundreds of manuscript copies as well as the fact that it was translated into English by Chaucer

1. It was translated and expanded in Holland by Scher Dieregotgaf and Jacob van Maerlant; It reached Germany in the early 13th Century by *Liet von Troje* of Herbert Von Fritslar; It was turned into Italian, French, German, Danish, Icelandic, Czech, Scots and English.

There is a Scots version attributed to Barbour and *A Troye-boke* by Chaucer's Benedictine pupil, Lydgate, 1420.

Notwithstanding the great linguistic and political differences which existed between the European countries, on the spiritual and cultural plane Western Europe was a unity.

When the Twelfth century drew to its close, France had become the centre of literature and Paris was its academic metropolis. And from it literature, conjointly with mythology radiated outwards warmly to Italy and Britain and the rest of Europe.

The appearance of a large number of verse and prose works on subjects drawn from classical antiquity is a significant aspect of the expansion of Greek and Roman cultures at the time. During this period a number of important Greek and Latin books were translated. Among them, the greatest romance on classical subjects was *Le Roman de Troie*, written by Benoît de Sainte Maure, about A.D. 1160, which starts with the Argonauts sailing eastwards to find the Golden Fleece, and ends with the sack of Troy.

Strangely enough, Homer's *Iliad* is altered in such a way as to make the Trojans innocent and the Greeks aggressors. This shift of perspective is maintained through the poem and after the fall of Troy, the poem ends with the murder of Ulysses by his son Telegonus : Circe's child.

Benoît justified himself by saying that he took the whole story from an eyewitness, who did not commit the foolishness of making gods and goddesses fight in human battles. And states that his source was *De Excidio Troiae Historia, The History of the Destruction of Troy* by Dares Phrygius. This book was also imitated in the *Historia Destructionis Troiae* written in Latin late in the thirteenth century by Guido de Columnis and it narrates the ancient story with the apparatus of Medievalism.

Benoît made use also of another book of the same type. This was the Latin translation of what purported to be a Greek version of *The Diary of the Trojan war* by Dictys of Crete, who assumed to have been the official historian of the war on the Greek side.

Benoît made the most of these sources simply because they were easy to read. And this book became very popular and extremely important. The methods, sentiments, and manners of the characters are all, however, twelfth century. That means that the story, its heroes and heroines were quite real for the readers.

The poem, however, begins with an exotic description of the Eastern paradise where the bird makes its home. It lives for a thousand years, then it flies eastward and builds its own nest in some secret wood land tree. The nest is consumed by the fire caused by the heat of the sun. From its ashes the Pheonix renews its life. Then the poet goes on to draw the allegorical moral.

Although the first half of *Phoenix* is basically a translation of a Latin poem *De Eue Phoenix* attributed to Lactantius (c. 300), a fourth century Ecclesiastical writer, the Anglo-Saxon poet did not hesitate to amplify upon his source with interpretations of his own. He suppresses the remote myth, substitutes the Hebrew biblical stories, and changes Phaethon's fires into lightning and the final fire of Doomsday.

One might conjecture the allegory operates on several levels. The death and rebirth of the Phoenix stand for the resurrection of the soul out of the purgatorial flames of Judgement, as well as for the death and Ascension of Christ. In any event, the Phoenix as a whole represents a graceful adaptation of pagan myth to the uses of Christian doctrine. This kind of symbolizing provided the artistic framework of the old English poem.

The significance of the *Phoenix* however, is that it is the first translation of any poem with mythical contents in the classical literature, into any modern language.

A great deal of the progress of the Middle Ages was educational progress; and one of its main features was the knowledge of Classical thought, language and literature expanded and deepened. This was due to the gradual appearance of the universities, libraries, and organizations which were either established or re-oriented to the study of classics and particularly the Greek philosophy of Aristotle; however deviously acquired.

Another feature of the intellectual activity of the time was also the translation from latin to the vernacular languages. Greek however, remained a close field, and the few islands of Greek that remained was read in latin translations. When Europe was over-run by the barbarians, learning took refuge in monasteries. The Benedictines preserved humane culture, and their schools were in high repute.

During the Middle Ages, the world of the Church and the world of scholarship with its international language of latin was a unity.

itself into English culture and has provided a great deal of its material, particularly in the domain of poetry. Thus Englishmen were enabled for the first time to share in the legacy of the ancient world and to hand on to the later generations the elements of that many-sided culture.

During the Dark Ages some knowledge of Graeco-Roman history and mythology, survived, though often in as curiously disfigured and condensed form. Perhaps most of the people of that time had no sense of historical perspective. So, they mixed up in their minds the near with the distant past and the factual with the fanciful.

Obviously, the writers did not feel the long retreating passage of time, where daring enterprises and hazardous activities of different sources and character had their serial places, one behind another, this near and that remote. They discerned only one single unit, the heroic past; but one part of that past was Graeco-Roman; a melange of history and mythology. This unitary perception grew more orderly and complex as the Dark Ages made its way towards a more civilized state of things.

The strangest synthesis of Greek mythology with the English tradition during this period is in the poem called *Phoenix*¹. It is the most elaborate attempt on the part of an Anglo-Saxon poet to allegorize natural history.

The myth of the *Phoenix* was the creation of Egyptian animal-worship which reached the Greek world through Herodotus's description of Egypt². Here the myth of the self-perpetuating bird is reshaped into a symbol of Christian immortality.³

It is the story of a fabulous bird, of golden red plumage, which, according to a tale reported by Herodotus (ii, 73) came to Heliopolis every five hundred years on the death of its father, and there buried itself in the temple of the sun. According to another version, the Phoenix after living five hundred years built itself a funeral pyre and died upon it. From his remains a fresh phoenix arose.

1. Transl. J.D. Spaeth, *Old English Poetry*, (Princeton, 1922).

2. 2.73. possibly from Hecataeus.

3. On its rich symbolism see J. Habaux and M. Lergy, *Le Mythe du phoenix dans les literatures Grecque et Latine*, Paris, 1939.

where Juno presents gifts to her. Under the guidance of Juno, she crosses the circles of the planets and reaches the milky way where Jove's residence is.

There, all the Greek gods and celestial beings known to Latin mythology assemble with a deity from Egypt here and there, besides the guards of the elements (*elementorum praesides*) and a most beautiful company of the angelic folk and souls of blessed ancients.

Now the bride demands a reading of the list of her dowry. Phoebus, with the bridal gifts, presents seven maid servants; these are the seven artes — *Ars Grammatica*; *Ars Dialectica*; *Rhetorica*; *Geometrica*; *Arithmetica*; *Astronomica* and *Harmonia*. Each one, as Phoebus leads forward, tells her parentage, and then sets forth in details the substance of her art most dryly, laying aside all original allegory.

Each of the seven books is dedicated to one art. They are the allegorical encyclopaedia of the arts of the trivium and quadrivium. This work was highly esteemed in the Middle Ages and became the standard school book. Through it the men of the Middle Ages received their profane education and the larger part of their classical knowledge. It is written in a medley of prose and verse. The author of this book is referred to by Chaucer in the *Merchant's Tale*¹ as well as in *The House of Fame*.²

II

During the Seventh Century A.D. England moved out into the main stream of Western Europe and entered for the first time into the inheritance of Greece and Rome, sadly attenuated though that tradition was. The envoys of the Catholic Church³ took to Britain, in addition to the entire corpus of Ecclesiastical writings, a body of European culture which had its basis on Graeco-Roman civilization.

Ever since that time mythology, being one of the significant accretions of the culture of Greece and its foster child Rome, has worked

1. II., 488 and seq.

2. I., 985.

3. In 605 A.D. led by St. Augustine who became the first archbishop of Canterbury at the time of king Ethelbert.

culture. An obvious evidence of this is the persecution that the famous French Humanist¹ Friar Rabelais François suffered for his addiction to the study of Greek culture when he had been declared an apostate.

The notion that prevailed was that which dismissed mythology as bizarre and chimerical fancies. Nevertheless, mythology did survive, deep seated and ingrown within the interstices of Greek and Roman cultures, in Church libraries, and schools as well as in religion itself which had become a channel for its survival. The existence of the pagan deities, the position of Christianity and such topics were discussed by both assailants and defenders of Christianity on a purely philosophical basis.

Perhaps the most widely used school-book of the times was the *De Nuptiis Philologiae et Mercurii* by Martianus Capella during the first part of the fifth century A.D.²

This was a work of nine books. The first two are dedicated to the allegorical narrative of the wooing and marriage of Mercury (Hermes) with the polymath maid Philology (in a wide sense). Mercury — according to Plotinus is the λόγος; hence the propriety of his marriage with Philology (φιλολογία).

Mercury looks for a bride: Sophia or Mantica or Psyche are excluded; Virtus advises him to ask Apollo who in his turn advises him to marry Philosophy. Under the merry escort of the Muses and encyphred by the music of the Spheres, Virtus, Apollo and the bridegroom wing their way to Jove's residence. A counsel of the gods is summoned; the decision taken is favourable; the bride will be raised to divine rank.

In the second book Philology appears willing to marry but is afraid at the greatness of the honour. Her mother Phronesis prepares her for the wedding; four noble matrons; the cardinal virtues greet her, and the Graces, with three mystic kisses, put heart into her. Athanasia, daughter of Apotheosis comes to escort her to Heaven, but first orders her to deliver that with which her bosom is seen to swell; at this she vomits forth many rolls of papyrus and of linen which are gathered up by the virgins Artes and Discipline, Urania and Calliope helping. The bride now drinks from the cup of immortality and mounts to heaven,

1. Fifteenth century.

2. Zeller, *Phil., der Griechen*, 111, 2, p. 561.

In this moral liberal attitude they were supported by the Greek Fathers of the third and fourth centuries by Origen and Clement of Alexandria; while Basil the Great also wrote an address to young readers, pointing out the positive value of pagan literature.

In his *De Doctrina Christiana*, 18, St. Augustine boldly proclaimed that pagan writings contained useful teachings, even glimpses of God and that their good things belonged to those who could use them, and he held that the best in ancient literature and thought might well be adapted to Christian needs.

Thus far, then it may be said that as time went on, positive values were attached to the Graeco-Roman tradition in pagan literature, the aesthetic merits in classical literature being to some extent appreciated, and still more its usefulness for practice and educational purposes.

However, one fundamental fact remained—that Latin as distinct from Greek culture lay at the root of all subsequent literary development. It was indeed, a parting of the ways, full of significance for later history. Nevertheless, this did not prevent classical Greek writings from being received as the works of great times; they were accepted as authorities whatever topic they treated.

In general, this was a transitional period, a period of gathering and selecting from the classics past, recasting and presenting the antique substance in forms suited to the tastes and capacities of their own. At the same time there was scanty severing of legend and fiction from history and science.

Mythology, however, which was incorporated in Greek culture and language was on the wane and lost much ground. This was due to the strong counteraction to its study within the Church, because it was supposed to be the work of a world which was corrupt, pagan, dead and damned.

The very Church which had made use of Greek culture at the beginning, was now the one that had done a great deal to diminish its value, in order to lay stress on the spiritual significance of the Scriptures when it realized how closely Greek culture was linked with mythology which was considered incompatible with Christianity. Antagonism had reached its peak. Pope Gregory¹ was bitterly opposed to Greek

1. A.D. 590—604.

dormant for centuries. Thus, unintentionally the Christian Church has served as a carrier for un-Christian and even anti-Christian Hellenic ideas and ideals, which have sometimes re-asserted themselves to their Christian purveyors' consternation.

It was under the auspices of the Church that the copying and therefore the preservation of classical texts began. But for the most part its attitude was one of definite hostility. The position adopted was due to certain utterances of the Latin Fathers, made in the first flush of religious enthusiasms and handed on to later ages as final and dogmatic pronouncements.

Thus the Latin Church Father Tertullian Quintus Septimus (150—220 A.D.), the creator of ecclesiastical Latinity was the first to raise the question, "What has Athens to do with Jerusalem?"¹ St. Hieronymus or Jerom (c. 340—420) who was much engaged in theological controversy, maintained that poetry is *daemonium cibus*, "the food of devils"² While Gregory the Great (590—604) who sent Augustine to England, held that the praises of Christ could not be uttered by the same lips as the praises of Jove. It might be added, that Boetius³ whose *De Consolatione Philosophiae* was translated by King Alfred and Chaucer, adopted much the same attitude when he represented philosophy as driving from his couch the Muses with their false and comfortless counsels.

These were among the pronouncements which were to furnish arguments for the discrediting of Pagan literature and mythology throughout the Middle Ages; though at no stage in practice was the rejection of secular literature complete.

At the same time there was a deeply rooted consciousness of the value of classical pagan literature; a sense visible in Jerome and Augustine of its aesthetic and humane qualities, and an aliveness even on the part of Tertullian to its uses as a preliminary to theological studies: "*Studia sine divina non possunt*"⁴.

1. *Ad Notiones*, (in Clark's Ante-Nicene Christian Library), ii, 7, Among his many writings his best known is *Apology*. It is a vigorous vindication of the Christians against the attacks and charges of the heathen world.

2. *Epistles*, XXI, 13.

3. 470—475 A.D.

4. *De Idololatria*, 20.

spite of the frequent contacts that existed, the gap between west and east widened¹ until it grew into a conflict after the serious discords arising from difference in opinions in the eighth and ninth centuries after which it developed virtually into a war.² The result was that Greek culture was cut off from the western part of Europe during the Dark Ages, except for a few trickles which found access to it through various alien channels.³

An impenetrable darkness fell in the west accompanied by political chaos and intellectual paralysis. Learning languished, ancient texts disappeared and the Graeco-Roman system which had kept alive in the west the ancient studies came abruptly to an end.

However, the task of education was taken up by the Church and profane studies were fostered as a means of fitting ecclesiastics for the discharge of their duties. Monastic schools preserved some elements of ancient learning but it was learning subservient to ecclesiastic ends.

True, Christianity superseded Hellenism; but it did not and could not repudiate the elements of Hellenic culture, which it had previously adopted as instruments for furthering its own original aim of converting the Hellenic world.

Its creeds were formulated in the terminology of pagan Hellenic philosophy and literature. And it picked up and carried along with it a body of pre-Christian Hellenic literature nurtured and sustained by a substratum of legends and myths to serve as models of literary stylistic excellence and as canons of metaphysical reasonings as well as a basis for a new culture.

The quantity and range of the Hellenic pagan literature that the Christian Church took under its aegis was actually much greater than the minimum required for strictly utilitarian purposes. This generous preservation of an Hellenic literary heritage has caused it embarrassment; for like a slain Egyptian fertility god Osiris's dismembered body-these disjecta membra of Hellenism have retained within themselves the latent spark of life which has repeatedly burst into flame after lying

1. In 476 A.D. During the time of Emperor Romulus and "little Augustus"

2. The Christian Church was divided after 1045 A.D., when the Pope excommunicated the Patriarch of Constantinople and the entire eastern Church as heretical

3. And it only returned after the fall of Constantinople.

not sufficient as a theme for a poem unless it was substantiated and exemplified by mythological parallels.

In his poem *Susceptibility*, I.e invokes Demophoon whom the goddess Ceres (Demeter) tried to make immortal by placing in the flames in order to purge away his mortal element, and eventually perished in the fire.

The poet feels that he is like the legendary Demophoon, burning in the flames of his unsatisfied erotic impulses. At the same time he is careless of the danger of becoming blind like Thamyrae, the Thracian bard who challenged the Muses to a trial of skill and lost. He insists on his erotic pursuit :

I'll keep my eye for beautiful girls till the very end.¹

The native Roman literature and Roman culture were rude and simple : so Rome went to school with the Greeks.² Roman literature and thought rose to their noblest when all educated Romans spoke and wrote Greek as well as Latin.

In its topmost development, the Roman empire was not Latin speaking but bilingual, Latin and Greek. The Romans themselves employed Greek as a social and intellectual language. There is ample evidence of this. The last words uttered by Julius Caesar when he was breathing his last, were Greek. When Caesar (44 B.C) saw Brutus attacking him, he is reported to have said to him : καὶ σὺ τέκνον; "You too, my boy?"³. The emperor Marcus Aurelius (180 A.D.) himself kept his private spiritual diary in Greek. There was a perfect synthesis which was called Greco-Roman.

However, the two streams of language and culture which had glided along together to create Graeco-Roman civilization diverged and proceeded in different directions in the fourth century A.D.⁴ And in

1. Michael Grant, *Roman Readings*, Penguin, 1967, p. 249

2. Cirero (106—43 B.C) practised speaking in Greek; Horace (65 — 8 B.C) began his career as a poet by writing Greek; Cicero's friend Atticus actually gave up Rome and went to live in Athens. whence his name.

3. Suet. *D. Iul.* 82.2

4. In 364 A.D. When the Roman Empire was divided into Western and Eastern Empires.

never dying enmity" of Juno (Hera) to the Trojans.¹ In the *Odyssey* again, Ulysses (Odysseus) pays a visit to the infernal regions, under the guidance of the Sibyl² to hold a converse with his father and learn the fortunes and the fate of posterity.

Besides these, there are very many minor imitations such as the description of the shield of Achilles made by Vulcan, (Hephaestus) at the request of Thetis³ and that of Aeneas by the same master-hand. The adventures of Ulysses with the Cyclop polyphemus suggests that of Aeneas with the same cruel monster. Many of the most splendid incidents in the *Aeneid* are borrowed closely from Homer. Such were the myths of Orpheus and Eurydice, and Hercules and Cacus.

Virgil drew heavily and freely on Greek mythological figures and tales from many sources. In addition to Homer's *Iliad* there were the Alexandrian poet of the second century B.C., Apollonius Rhodius, the author of the *Argonautica*, Hesiod, whose *Theogony* contained a mythical account of the genealogy of the gods; and of a *Catalogue of Women*, who, being beloved by the gods, had become mothers of heroes, as also the cyclic poets who described the return of the Grecian chiefs from Troy and their fortunes.

An evidence of the great importance given to Greek mythology at the time, when Rome was still on its ascendancy, was the painstaking effort made by Ovid in writing his *Metamorphoses*⁴. No doubt the need for a repertory of the Greek legends and of Greek myths was urgent.

The practice of employing exemplars from history and myths to illustrate a moral lesson was a very wide-spread tradition at the time. It had come down from Homer and others where the heroic figures of the still earlier past were taken as paragons and quoted in speeches so that the later generations could copy and imitate their virtues and eschew their errors⁵. It proliferated all throughout classical literature to an unbelievable extent. For instance, Propertius Sextus, (51 B.C) the Roman poet, who composed erotic poetry, felt that his own passion was

1. *The Aeneid* Bk. I.

2. The Sibyls were certain inspired women who flourished in different parts of the ancient world, at Cumae, and Delphi.

3. *The Iliad*, XVIII. This is also the theme of a poem by W.H. Auden.

4. 43 BC — 18 AD. 2

5. See W. Jaeger, *Paiŋeia*, Oxford, 1938.

GRAECO-ROMAN MYTHOLOGY
ITS RE-INTERPRETATION AND RE-VITALIZATION

PART I.

THE GENESIS OF A TRADITION
ITS EUPHORIA AND ITS DECADENCE

By
ANASTASS P. PLATONIDIS Ph. D.

THE GENESIS OF A TRADITION

I

In the third century B.C. the founder of Roman epic poetry and drama, the poet Livius Andronicus rendered Homer's *Odyssey* into Latin for use as a text-book of Greek poetry and legend. Although faultily executed, this book satisfied a real want by introducing the Romans to a knowledge of Greek culture and mythology. This was an attempt at recreating a work of art in the framework of a different language and culture. It was the first of many hundreds of thousands.

In this attempt Livius established the now well known functional correlation between Greek and Roman deities : Aphrodite equalled Venus, Zeus equalled Jupiter and so on. While Homer invoked the Muses, Livius substituted the native Italian spirit of song, the *Camenae*¹; but their personality was too fragile to survive.

The thematic similarity between Homer's *Iliad* and Virgil's *Aeneid*, written during the last decades of the Pre-Christian era, is only one among many manifestations of the significance Greek mythology had acquired at the time. The main outlines and prominent features of both these two epics are alike. The romantic adventures of Aeneas, in his wanderings by land and sea are counterpart of those of Ulysses.

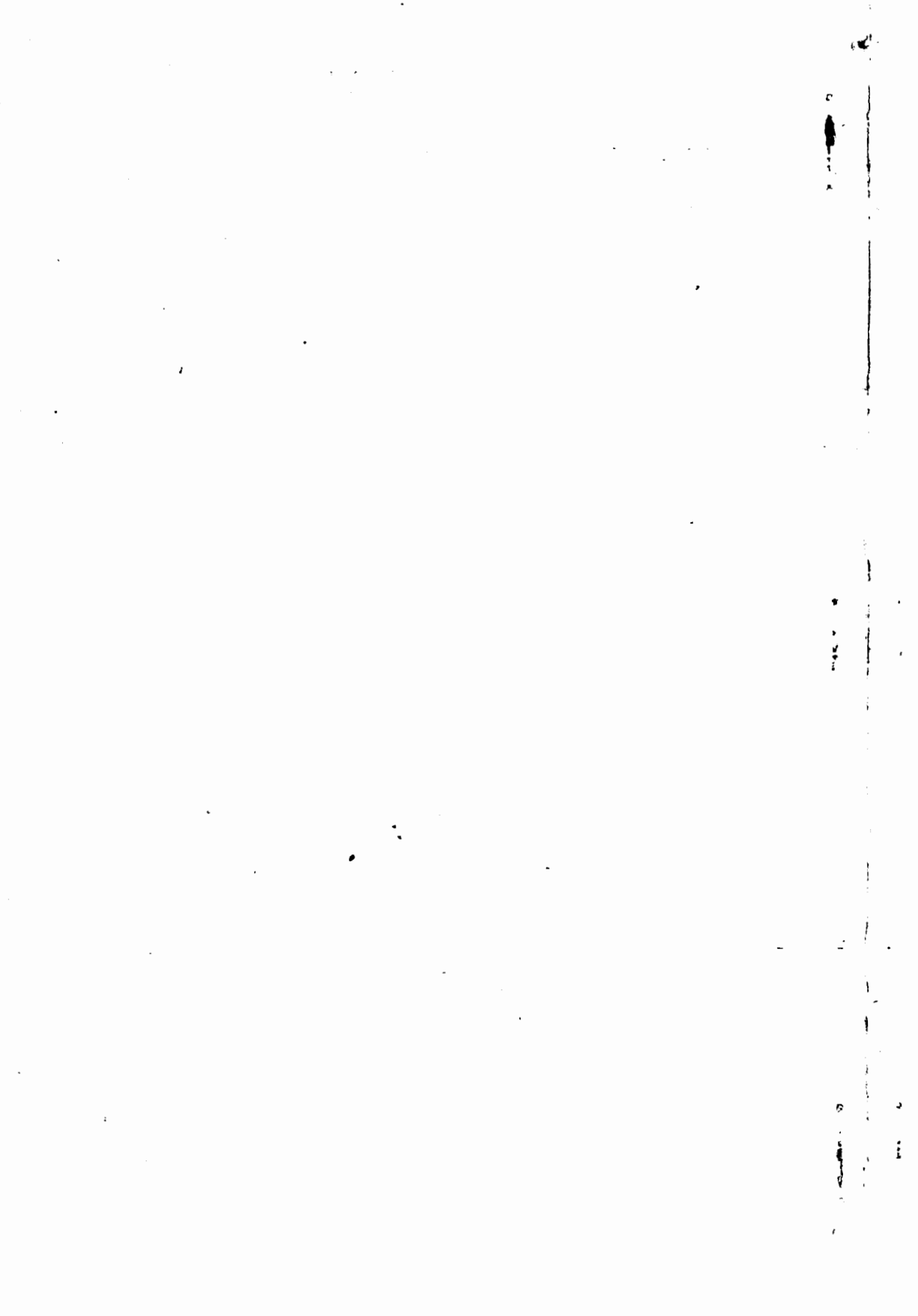
As in the *Iliad* the wrath of Achilles was to the Greeks "the direful spring of woes unnumbered"², so in the *Aeneid* was the

1. The Roman goddesses. They seem, however, to be water-deities, having a grove and spring outside the Porta Capena (Plutarch, Numen, 13).

2. *Iliad*, Bk. I.

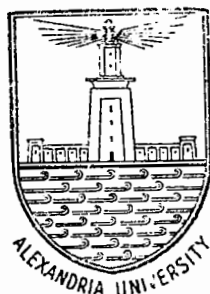
CONTENTS

	<i>Page</i>
Graeco-Roman Mythology : its Re-Interpretation and Re-Vitalization	
<i>Anastass P. Platonidis</i>	1
Ideologie et Structure dans "La Condition humaine" de Malraux	
<i>Azza Heikal</i>	39
La Conception de l'Idée de l'Encyclopedie chez Bacon, Diderot et d'Alembert	
<i>Dawlat El Arab</i>	85
The Historical Background of Amun and His Cult in the Western Oases and in the Libyan Greek Colonies Before Alexander the Great	
<i>Ahmed Ghazal</i>	103
Les Engagements de Malraux; Du Communisme au Gaullisme	
<i>Doha Chiha</i>	127
Samuel Beckett, Watt ou la Preuve par l'Absurde	
<i>Nadia Abdallah</i>	163



BULLETIN

OF THE FACULTY OF ARTS



Vol. XXVI

1972

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University Shatby, Alexandria, R. A. E. Communications regarding contributions should be addressed to the Editing Board of the Bulletin.

ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS

1979